

جامعة البحرين



قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

كلية الآداب

التلطف بالقول في نماذج من محاورات التوحيدي مقاربة تداولية

أطروحة مقدمة كجزء من متطلبات الحصول على درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها

إعداد

إسراء عادل محمد عبد الرحيم جناحي

20140907

إشراف

د. عبد الله محمد البهلول

أستاذ البلاغة والنقد المشارك

جامعة البحرين

مملكة البحرين

يونيو 2022

صفحة الاعتماد من قبل لجنة التحكيم

University of Bahrain
Deanship of Graduate Studies
And scientific Research



جامعة البحرين
عمادة الدراسات العليا والبحث العلمي

قرار لجنة مناقشة أطروحة

اسم الطالب:	إبراء عادل جناحي	الرقم الجامعي:	20140907
الكلية:	كلية الآداب	القسم:	قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
اسم البرنامج:	الدبلوم العالي والماجستير في اللغة العربية	المعدل التراكمي:	3.89
عنوان الأطروحة: التلطف بالقول في نماذج من محاورات التوحيد: مقارنة تداولية			

اجتمعت لجنة المناقشة يوم الأحد الموافق 12-Jun-22 بقاعة رقم S20-10 وبعد مناقشة الطالب المذكور أعلاه علناً توصي لجنة المناقشة بالتالي:

يمنح الطالب تقدير: A في مقرر الأطروحة: 590
ترجمة بنشر الأطروحة

•	دون إجراء أية تعديلات على الأطروحة.
•	إجراء التعديلات المرفقة مع هذا القرار.

تصديق أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم	التوقيع
1. د. عبدالله محمد البهلول	المشرف على الأطروحة
2. د. ضياء عبدالله الكعبي	الممتحن الداخلي
3. أ.د. محمد مشبال	الممتحن الخارجي

6 Approved at the University Council 6th meeting, 2013
In accordance with Decision No. 736/2013 dated 14/3/2013
Modified by University Council Decision No. 2043/2013 dated 20/11/2013.

الملخص

التلطف بالقول في محاورات التوحيدى مقارنة تداولية

إعداد

إسراء عادل محمد جناحي

إشراف

د. عبد الله محمد البهلول

يهدف البحث إلى دراسة نماذج من محاورات أبي حيان التّوحيديّ، من منظور اللّسانيّات التّأديّة بوصفها مبحثاً من مباحث التّداليات المعاصرة وفرعاً مهماً من فروعها، يُعنى بدراسة الوسائل التّعبيريّة والاستراتيجيّات التّأثيريّة التي يعتمدها المتكلّم في علاقته بمخاطبه حفاظاً على سلامة العلاقات وتأسيساً لمتين الصداقات. وقد أغرانا هذا الأفق المعرفيّ بالخوض فيه لاستكشاف أسرارهِ والوقوف على العوامل المؤثرة فيه وتوظيفه في قراءة الأدب العربيّ.

وقد أقمنا البحث على أربعة فصول: فصل أوّل تمهيديّ هو بمنزلة التأسيس النظريّ، وثلاثة فصول متميزة بحسب ما أفضى إليه تحليل المحاورات الثلاث.

خصّصنا الفصل النظريّ التمهيدىّ، لدراسة النموذج الذي قدّمه براون Brown وليفنسون Levinson بوصفه أخصب النماذج وأكثرها اعتماداً في مجال التلطف اللغويّ، فحاورناه محاوره نقدية، سعينا من خلالها إلى تبيين منطلقاته، وتوضيح الأسس العامة التي بُني عليها، سبيلاً إلى استثماره في دراسة الأدب وسائر أنواع الخطاب.

وعقدنا الفصل الثاني لتحليل المحاوره بين العرب والعجم. وهي محاوره افتتحت بسؤال مهّد للوجه سلك التّوحيديّ في الإجابة عليه مسالك متنوعه انقاء للتهديد. فاستعرضنا سياق السؤال المهّد وفقاً لعوامل تقييم الخطر (Wx)، وخلصنا إلى أنّ إثارة السؤال قد شكل تهديداً على نوع العلاقة التّخاطبيّة بين الوزير والتّوحيديّ وفقاً لعناصر تقييم مستوى خطورة العمل المهّد للوجه، وكشفنا عن وسائل الوزير في المخاطرة بالوجه والتي تجلّت في عدم مبالاته بوجه التّوحيديّ السّلبىّ، الأمر الذي دفعنا إلى البحث عن طرائق التّوحيديّ في انقاء التهديد.

ونظرنا في الفصل الثالث في المحاوره التي جرت بين متى بن يونس القنائيّ وأبي سعيد السّيرافيّ انطلاقاً من سياق التّدال الأجناسيّ، وباعتماد على الاعتذار بوصفه عامل تهديد ووسيلة تحريض للانتهاك، وعرضنا انتهاكات السّيرافيّ لوجه متىّ، وطرائق الوزير في التحريض على الانتهاكات وصولاً إلى تغييب موقف متىّ وتصريح السّيرافيّ بالانتهاكات، وقد توصّلنا إلى أنّ قلة توظيف استراتيجيّات التّلطف في جنس المناظرات مرجعه إلى قيام المحاوره على الجدل والمماره من جهة، وتداخلها مع أجناس أدبية من جهة أخرى لعلّ من أهمّها المذاكرة.

أما الفصل الرابع فخصّصناه لدراسة غياب التّلطف بوصفه مبحثاً من مباحث التّلطف قلّما حظي بعناية النّقاد والدارسين، وقد تخيّرنا له أخلاق الوزيرين أنموذجاً نستجلي من خلاله مظاهر غياب قواعد التّلطف واستراتيجيّاته بالاستناد إلى المبحث الذي استعرضنا فيه الإطار العام للنظريّة القائمة على مهاجمة الوجه، والمتسبّبه في إحداث

الصراعات الاجتماعية، وقد أفضى بنا البحث إلى ملاحظة وجود تقارب وتداخل بين الاستراتيجية التصريحية التي يغيب فيها التلطف، وبين الاستراتيجية التصريحية التي تتضمنها نظرية التلطف حيث إن الاستراتيجيتين تهدفان إلى التصريح بالعمل المهدد للوجه إلا أن السياق هو الفاصل بينهما.

وقد انتهينا في هذا البحث إلى جملة من النتائج من أهمها أصالة نظرية التلطف في التراث العربي. فقد تناولها العلماء العرب الأوائل تحت مباحث الكناية وتخيّر الألفاظ ومراعاة المقام وحال أطراف الخطاب، إضافة إلى وجود تداخل كبير في الأعمال المهددة لوجه منجزها ومتلقيها اعتماداً على المعايير الشخصية للفرد، علاوة على ضرورة وصل إنجاز الأعمال المهددة للوجه، واختيار الاستراتيجيات التلطيفية بعوامل تقييم مستوى خطورة العمل المهدد على الوجه وهي: المسافة الاجتماعية الفاصلة بين المتخاطبين Social Distance، والقوة النسبية التي تظهر توسع نفوذهما Relative power، ومنزلة العمل المهدد بالنسبة لثقافة معينة Absolute Rank، وقد توصل البحث إلى إمكانية تصنيف أغلب الأنواع التي تتضمنها استراتيجية التلطف الإيجابي تحت مصطلح (التقرب) والذي يسعى فيه المتكلم إلى وصل سلوكه الفعلي المتمثل في إظهار الاهتمام بالآخر والعناية به بما يُنجزه من أفعال لغوية تؤكد ذلك؛ تحصيلاً لتأييده وتحقيقاً لمقاصد المتكلم وغاياته، في حين أن غالبية استراتيجيات التلطف السلبي يمكن تصنيفها تحت مصطلح (التجنب) الذي أشار إليه دوركهيم Durkhiem ليكون فحوى الاستراتيجية المركزي قائماً على تجافي كل ما من شأنه التحكم في سلوك المتكلم اللغوي أو تقييد حرية المتلقي في التفاعل القولي، إضافة إلى أن توظيف استراتيجيات التلطف الإيجابي اعتبرت وسيلة فاعلة مكنت التوحيدي من انقاء تهديدات الوزير، في حين أن قلة استراتيجيات التلطف وانعدامها كان أمراً موصولاً بطبيعة الجنس الأدبي للمحاورة من جهة، وخاضعاً لطبيعة العلاقات الاجتماعية التي تحكم أطراف المحاورة من جهة أخرى.

الإهداء

إلى من بقربهم تتلطف حياتي
والدي وأختي..
وإلى كلّ من له فضل عليّ بعد خالقي..
أهديكم هذا العمل وأسأل الله فيه القبول والنفع..

الشكر والتقدير

أحمد المولى اللطيف الذي خصني للوصول إلى هذه المرحلة العلمية فكان وحده نعم المعين الذي يسّر لي البدايات وذلّل لي الصّعب وأعانني على التّمام والبلاغ..

كما يسعدني أن أتقدّم بخالص شكري وتقديري وامتناني لأسرتي العزيزة التي حقّنتي بكلّ معاني الحبّ والعناية والاهتمام، وسخّرت لي كافة السّبل المعينة على إنجاز هذه الرّسالة.. جعلني الله ابنة صالحة بارّة بكم..

هذا ويشرفني أن أتقدّم بخالص عبارات الشّكر والتّقدير إلى جامعتنا الوطنيّة البحرين وإلى عمادة الدّراسات العليا والبحث العلميّ على إتاحة برنامج الماجستير في اللّغة العربيّة وآدابها..

كما أتقدّم بجزيل الشّكر والتّقدير إلى الدّكتورة ضياء عبد الله الكعبيّ رئيسة قسم اللّغة العربيّة والدّراسات الإسلاميّة على حرصها الشّديد ومتابعتها المستمرة..

وحين أصل إلى هنا، فإنّ عبارات الشّكر تتضاءل إجلالاً أمام أستاذي الفاضل الدّكتور عبد الله محمّد البهلول فعلى الرّغم من كافة تحديات فايروس كورونا إلّا أنّه لم يعتذر يوماً عن استقبالي أو متابعة إنجازي لفصول هذه الرّسالة، كما أنّه لم يتوان عن تزويدي بمحاضراته في التّأدّب والحجاج التي أفدت منها في كتابة الرّسالة، وقد كان واسع الصّدر، لطيف الكلمة، حسن التّعامل، فكنّت محظوظة بإشرافه على هذه الرّسالة فله منّي عظيم الاحترام ووافر التّقدير..

ولا أنسى أن أتقدّم بالشّكر والثناء لأعضاء لجنة المناقشة الأفاضل على تفضّلهم بقبول مناقشة هذه الرّسالة..

قائمة المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
أ	صفحة الاعتماد من قبل لجنة التحكيم
ب	ملخص الأطروحة باللغة العربية
د	الإهداء
هـ	الشكر والتقدير
و	قائمة المحتويات
1	المقدمة
7	الفصل الأول الإطار النظري للتلف
8	التلف أدبيات تأسيسية في المفهوم والنشأة
13	منطلقات النظرية والأسس العامة لنموذج B & L - الأعمال المهددة للوجه وسبل التعويض - استراتيجيات التلف من الصمت إلى التصريح - استراتيجيات التلف الإيجابي وسبل التأييد والتعويض الجزئي - استراتيجيات التلف السلبي والإجراءات التعويضية المنصفة - الاستراتيجيات المراوغة وانتهاك المعاني الغرائسية
49	سبل الارتقاء بالنموذج المقدم
57	الفصل الثاني السؤال المهدد للوجه وطرائق اتقاء التهديد في الليلة السادسة من الإمتاع والمؤانسة (المفاضلة بين العرب والعجم أنموذجاً)
58	سياق السؤال المهدد وعوامل تقييم الخطر (Wx)
64	المخاطرة بالوجوه وطرائق التوحيد في الاتقاء - تهديد الوزير لوجه التوحيدي - طرائق التوحيد في اتقاء التهديد - الإقذاع في الحديث عن الجيهاني

92	الفصل الثالث الاعتذار عامل تهديد ووسيلة تحريض للانتهاك (المناظرة بين متى والسيرافي أنموذجاً)
93	المناظرة في سياق التداخل الأجناسي
97	الاعتذار تهديداً وتحريضاً – انتهاكات السيرافي لوجه متى – طرائق الوزير في التحريض على الانتهاكات
108	تغيب موقف متى وتصريح السيرافي بالانتهاكات
114	الفصل الرابع: غياب التلطف واستراتيجيات تشويه الوجوه (عرض نماذج من كتاب أخلاق الوزيرين).
117	الإطار العام لنظرية غياب التلطف
122	استراتيجيات تشويه الوجوه انتقاماً وتشفيًا – استراتيجية (انشر ولا تستر) – استراتيجية (سخر اللغة لصالحك) – استراتيجية (اسأل، ارصد، انشر) – استراتيجية (خض في الأعراض) – استراتيجية (لا تغفر، وعامل بالمثل)
139	الخاتمة العامة
145	المصادر والمراجع
156	ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية

المقدمة

يسعى البحث إلى قراءة نماذج من محاورات أبي حيان التّوحيد من منظور اللّسانيّات التّأديّة الحديثة قراءة علميّة استدعت المقاربة التّداوليّة لاختبار تطبيق نظريّة التّلطّف لبراون وليفنسون على جنس المحاورات الأدبيّة في التّراث العربيّ الأصيل.

وتقوم إشكاليّة البحث على دراسة الوسائل التّعبيريّة والاستراتيجيّات التّخاطبيّة انطلاقاً من المفهوم الّذي يعمد إليه أطراف المحاورّة لتحقيق الانسجام في العلاقات، وتجنب الصّراعات، وإسداء الخدمات وصولاً إلى المفهوم الّذي يرى أنّ انعدام قواعد التّلطّف واستراتيجيّاته هي الطّريقة المثلى للتعامل مع المسيء باعتبارها ردّة فعل نتيجة لعنف لفظي أو سلوك لغوي غير أخلاقيّ، ومن هنا تجلّت ضرورة الاحتكام إلى المقام والسيّاق التّواصلّي الّذي تمّ التّخاطب فيه؛ للكشف عن القرائن السيّاقية، والمعطيات الّتي من شأنها أن تكشف ملابسات الخطاب.

وتكمن أهمية البحث في ندرة البحوث العلميّة العربيّة، والدراسات الأكاديميّة -حسب بحثنا وإطلاعنا- التي عيّنت بتأصيل موضوع التّلطّف في التّراث العربيّ، وتطبيقه على جنس المحاورات في صورة نصوص طويلة ومتكاملة ممّا يؤكد طرافة الموضوع الأدبي وجدّته، علاوة على القيمة الاجتماعيّة لهذه النّظريّة فلا يكاد أن يستغني عن توظيفها أيّ متحاور يسعى إلى تحقيق مقاصده، وكسب تأييد متلقّيه، ويبدو لنا أن مآل هذا التّقصير يعود لأسباب عديدة، منها قيام النّظريّة على المنجز المعرفيّ المقدّم من براون وليفنسون والّذي لم يحظ حتّى الآن بترجمة عربيّة شاملة له من لغته الإنجليزيّة الأم، إضافة إلى صعوبة الكشف عن المعاني المتضمّنة في التّفاعلات القوليّة نظراً لوجود عوامل عدة تتحكّم في طبيعة العلاقات التّخاطبيّة بين الأطراف المتحاورّة.

ومن هنا تتبيّن أهداف البحث الّذي يسعى إلى تحليل الممارسات القوليّة للكشف عن المعاني المتضمّنة في البنى اللّغوية، وبيان أثر الالتزام بقواعد التّلطّف واستراتيجيّاته في تحقيق المقاصد الكامنة والغايات الدّفينة المضمرة.

وينهض البحث على فرضيّة تتمحور في بيان أثر توظيف استراتيجيات التّلطّف في توطيد العلاقات وتحقيق المقاصد والغايات.

وتتجلى أهمية المقاربة التداولية كإجراء منهجيّ معتمد في دراسة محاورات التّوحيديّ في امتحان إجراءاتها وتبسيط آلياتها وتوظيفها في نظرية لسانية حديثة ومعاصرة تسهم في ربط المكتسبات التداولية المعاصرة والنظريات العلمية الحديثة بما أنتجه علماء العرب الأوائل، ولعلّ السبب الذي يدفعنا إلى اختيار المنهج التداوليّ دون غيره من المناهج، عنايته بدراسة علاقات البنى اللغوية بمستعملها، وبظروف استعمالها، وبالأثار المترتبة على هذا الاستعمال.

هذا ويسعى البحث إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات، والإشكاليات المثارة في موضوعه لعلّ من أبرزها:

1. هل يمكن اعتبار نظرية التّلطف أداة فاعلة للكشف عن مزالق التّفاعل القوليّ؟
2. ما تأثير التزام المتحاورين بقواعد التّلطف واستراتيجياته على سيرورة التّفاعل، وعلى طبيعة العلاقات التّخاطبية بينهما؟
3. هل سلك التّوحيديّ مسلك التّشنيع والتّقبّيح لطبيعة شخصيّة فيه، أم أنّها نتيجة لظروف ومعاينة أفضت به إلى اتخاذ هذا المسلك؟

وتتنزّل أسباب اختيار محاورات التّوحيديّ مدونة لهذا البحث في قيامها على التّبادل الكلاميّ بين شخصيات ذات أصوات محدودة، إضافة إلى ما تميّزت به هذه المحاورات من حمولة معرفيّة تجلّت في التّداخل الأجناسيّ الذي أضفى على جنس المحاورّة طابعاً حركيّاً تفاعليّاً¹.

وإنّ ما تميّزت به نظرية التّلطف من أفق معرفيّ يُعنى بدراسة السلوك اللّغويّ للأفراد أغرى عدداً من الباحثين للوقوف على هذه النّظرية، ودراسة حدودها، وتطبيق قواعدها واستراتيجياتها على مدوّناتهم البحثية، ولعلّ من جملة الدّراسات التي تتقارب مع دراستنا هذه في إحياء مفهوم التّلطف وتأصيل وجوده في التّراث العربيّ من جانب، وتعميق النظر في الإطار النّظريّ لنظرية التّلطف والسّعي إلى تطبيقه على أجناس أدبية من تراثنا العربيّ من جانب آخر، وقع اختيارنا على أربع دراسات، نستعرضها فيما يلي:

¹ المحيميد، منال صالح، المحاورّة في أدب أبي حيان التّوحيديّ دراسة في خصائص التّفاعل القوليّ (الأدب المجلسي في مدونات التّوحيدي)، دار كنوز المعرفة للنشر والتّوزيع، عمان، ط1، 2019م، ص 43-44.

- صور التَّلَطَّف في نصوص أخبار العرب من كتاب العقد الفريد، دراسة في ضوء علم اللِّغة الاجتماعي، للباحثة سامية بنت محمد البحري، قدّمت كرسالة ماجستير في اللِّغة العربيّة وآدابها من كلية الدراسات الإسلامية بدبي، في عام 2008-2009م، هدفت الباحثة في دراستها إلى اكتشاف البعد التّواصليّ للأنماط الخطابيّة في الموروث اللّغويّ العربيّ من خلال كتاب العقد الفريد، مستخدمة المنهج الوصفيّ التحليليّ في الدّراسة اللّسانيّة الاجتماعيّة، وقد تلخّصت نتائجها، في بيان الأهمية التي حظيت بها الأنماط الخطابيّة الدّالة على التَّلَطَّف والتي ارتقت إلى مستوى اللِّغة المتخصّصة الفاعلة، رغم القيود التي يفرضها المجتمع على المتكلّم، كما حاولت تحديد الأشكال الخطابيّة، فتناولت خطاب الدّعاء، والخطاب الطّلي، والدّنائيّ، وبيّنت أكثر هذه الأشكال التي أقبل على استخدامها العربيّ في الفصل الثّاني من دراستها التّطبيقية الإحصائيّة، وإن التقت هذه الدّراسة مع البحث في تأصيل مفهوم التَّلَطَّف في تراثنا العربيّ، إلّا أنّهما تفرقان منهجاً ورؤية.

- نظريّة التّأدّب في اللّسانيّات التّداوليّة، حاتم عبيد، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 43، يوليو- سبتمبر 2014م. سعى صاحب المقال إلى تعقب نظريّة التّأدّب، في أبرز الأطوار التي مرت بها، مع بيان لأشهر الأعلام الذين مثلوا محطات مهمة، في دراسة هذه النّظريّة، دراسة لغوية وصفية، وقد اتخذت الدّراسة المنهج اللّسانيّ التّداوليّ. ومن أبرز ما توصّلت إليه الدّراسة أنّ منوال العالمين بروان وليفنسون، يعدّ من أهم المناويل اللسانية في التّأدّب، وهو الذي أرسى مفهوم التّأدّب اللّسانيّ، ووجه الاهتمام إلى الصّيغ اللّغويّة الحاملة للتّأدّب، كما أكّد أنّ أثر التّأدّب لم يبق حكرًا على المحادثات الشّفويّة بل تخطى البحث ليشمل عددًا من الخطابات المكتوبة والنّصوص الأدبيّة، ولعلّ هذا البحث يأتي تلبية لهذه التّوصية، وتأكيدًا لتطوّر المنظور اللّسانيّ التّأدّبي ليشمل تحليل محاورات متكاملة تتميّز بالنّراء المعرفيّ والعمق الفكريّ.

- مبدأ التّأدّب في عهد الإمام عليّ إلى مالك بن الأشتر، حميد عبد الحمزة الفتلي، كلية الآداب، جامعة بغداد، السنة الثّانية، العدد الرابع، مجلة المبين 2017م. حاولت الدّراسة البحث عن جذور نظريّة التّأدّب في التّراث العربيّ رغم تأكيدها في مبحث (مبدأ التّأدّب عن العرب) "أنّ هذا المبدأ لم يحظ بعناية خاصة عند قدماء اللّغويين العرب، ولم يفرد له باب من أبواب اللّغة أو الأدب وإنما كان يفهم من عباراتهم وأسلوب كتاباتهم وبحسب ما تدعو إليه الحاجة ويقتضيه المناسبة"¹، وقد

¹ الفتلي، حميد عبد الحمزة، مبدأ التّأدّب في عهد الإمام عليّ إلى مالك بن الأشتر، كلية الآداب، جامعة بغداد، السنة الثّانية، العدد الرابع، مجلة المبين 2017م، ص 123.

أحدث هذا الادّعاء نوعاً من التناقض بين هدف يسعى الباحث إلى تحقيقه، وبين تعميم يؤكد فيه صراحة أنّ العرب لم تعن بدراسة التّلطف بشكل خاص وإنّما هو أمر تستدعيه الحاجة وتقتضيه المناسبة، إضافة إلى قيام الدّراسة التطبيقية على تحليل -أقرب ما يكون إلى السّطحية- إلى مجموعة من العبارات المتفرقة للإمام عليّ -رضي الله عنه- في حقبة زمنيّة معيّنة معقّباً إيّاها بحضور مبدأ التّأدّب أو تضمّنه أو أنّه مجرد صورة من صور التّأدّب من دون أن يورد استراتيجية صريحة من استراتيجيات التّلطف معرّفاً بحدودها ومبيّناً مؤداها، فالأساس النظريّ -في هذه الدّراسة- كان في حاجة ماسة إلى العودة إلى المنجزات النظريّة التّأسيسيّة في لغتها الأم حتّى يقوى الجهاز المعرفيّ الَّذي يمكن الباحث من تطبيقه على مدونته البحثيّة.

- **التّأدّب في الوصيّة من خلال نماذج من جمهرة وصايا العرب**، لحماي اللطيفي، من كتاب: الخطاب والأخلاق مقاربات بلاغيّة وتداوليّة مقالات علميّة محكّمة، عالم الكتب الحديث للنّشر والتّوزيع -الأردن، 2019م. امتدّ المقال على أربع عشرة صفحة سعى من خلالها الباحث إلى بيان قواعد التّأدّب ومبادئه، وتوضيح الكيفية التي يستعمل فيها المتكلم التّأدّب في خطاب الوصيّة، والأسباب الدافعة إلى جعل المتكلم وهو الموصي متأدّباً، إلّا أنّ الجانب النظريّ قد اشتمل على خطأ في ترجمة الاستراتيجية التلميحية التي تنجز بصورة خفيّة Off-the-Record Strategies في التشجير الَّذي أورده لتوضيح استراتيجيات التّلطف¹، إضافة إلى أنّ الجانب التّطبيقيّ المتعلّق بالتّأدّب الَّذي لم يتجاوز خمس صفحات قد اتسم بعموميّة التّطبيق على المدونة البحثيّة، فلم يحدّد الباحث الوصيّة التي هي مدار اشتغال الدّراسة، إذ انتقل في تحليله من وصيّة إلى وصيّة أخرى من دون أي ربط يمكن القارئ من وصلها بسابقتها، ولعلّ ذلك مرجعه إلى عموميّة عنوان المبحث الَّذي جمع بين مبدأ التّأدّب وجانب التّعامل في الخطاب الوصويّ ممّا دفع الدّراسة لأنّ تغلب الجانب التّعاملي والَّذي تجلّى في وصل الباحث لكلّ مظهر من مظاهر الالتزام بمبدأ التّأدّب بإحدى القواعد التّاليّة (السّخاء والاتّفاق والتّوافق والتّواضع واللبّاقة والتّعاطف) ممّا أجحف بحقّ ما وصلت إليه نظريّة التّلطف من تطوّر ملحوظ في إطارها النظريّ.

¹ بوراس علي، واللطيفي حمادي، ومجموعة من الباحثين، الخطاب والأخلاق مقاربات بلاغيّة وتداوليّة، تنسيق وإشراف: عمو عسو، حسن بدوح، عبد الفتاح شهيد، لكبير الشميطي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2019م، ص 177.

ونتيجة للضعف المزدوج في الجانب النظري أو التطبيقي فيما وقع عليه اختيارنا من دراسات سابقة ارتأينا أن نقيم البحث على فصل هو بمنزلة التأسيس النظري، وثلاثة فصول لتحليل بعض النماذج المتميزة من محاورات التوحيد في كتابيه الإمتاع والمؤانسة، وأخلاق الوزيرين.

ونظرًا لعمق المادة العلمية والمعرفية التي تتضمنها نظرية التلطّف وكثافتها عزمنا على تخصيص الفصل النظري تمهيدًا عسى أن يكون مرجعًا مفيدًا للباحثين، وذلك لما أثرناه من سعي وبذلناه من جهد ووقت كبيرين تجاوز الستة أشهر عكفنا فيها على قراءة كتاب براون وليفنسون بلغته الإنجليزية، وترجمة أسسه المعرفية وقواعده النظرية واستراتيجياته ترجمة توضح لنا حدود هذه النظرية، وتبين منطلقاتها، وتظهر لنا الأسس العامة التي بُنيت عليها، فهي سبيل خصب للاستثمار في دراسة الأدب وسائر أنواع الخطاب.

ونعقد الفصل الثاني -في بحثنا هذا- الموسوم بعنوان (السؤال المهدّد للوجه وطرائق اتقاء التهديد في الليلة السادسة من الإمتاع والمؤانسة (المفاضلة بين العرب والعجم أنموذجًا))؛ لنختبر السؤال بوصفه عملاً إنجازيًا مهدّدًا للوجه، ويتضمّن الفصل بحثين، يُعنى المبحث الأول بدراسة سياق السؤال المهدّد وفقًا لعوامل تقييم الخطر (WX)، وأما الثاني فيسعى في الكشف عن وسائل الوزير في المخاطرة بالوجه، وبيان طرائق التوحيد في اتقاء التهديد.

ويقوم الفصل الثالث المعنون بـ (الاعتذار عامل تهديد ووسيلة تحريض للانتهاك (المناظرة بين متى والسيرافي أنموذجًا)) على ثلاثة مباحث، يتناول المبحث الأول المحاورة في سياق التداخل الأجناسي بين مقامات ثلاثة، وهي مقام الكتابة ومقام الترسّل ومقام المشافهة، ويهتم المبحث الثاني بدراسة الاعتذار بوصفه عامل تهديد وتحريض، ونستعرض فيه انتهاكات السيرافي لوجه متى، ونبين فيه طرائق الوزير في التحريض على الانتهاكات، ويشتمل المبحث الثالث على طرائق السيرافي في التصريح بالانتهاك نتيجة لتغيب موقف متى.

وننظر في الفصل الرابع الموسوم بـ (غياب التلطّف واستراتيجيات تشويه الوجه (عرض نماذج من كتاب أخلاق الوزيرين)) في غياب التلطّف بوصفه مبحثًا من مباحث التلطّف قلما حظي بعناية النقاد والدارسين، ويقوم على بحثين، نفرد المبحث الأول لاستعراض الإطار العام لنظرية غياب التلطّف، ونستند فيه إلى النظرية المقدمة من كولبير الذي سعى من خلالها إلى وضع قواعد تأسيسية لبناء نظرية غياب التلطّف انطلاقًا من الأهمية التي يحظى بها عنصر الوجه في نظرية

التَّلَطَّف للباحثين B & L، وأمَّا المبحث الثاني فنعمد فيه إلى استنتاج (أخلاق الوزيرين) لاستعراض أهم الاستراتيجيات التي اتبعتها التَّوْحِيدِيَّ سعيًا منه في تشويه الوجه انتقامًا وتشفيًا.

ويجدر بنا أن نشير إلى أبرز الصَّعوبات والتَّحديات التي واجهتنا خلال إنجاز البحث، منها محاولتنا في عدم الرُّجوع إلى المراجع الوسيطة والمترجمة -بقدر الإمكان- والاعتماد على المجهود الشخصي في الترجمة الذي أطال مدة إنجاز البحث، علاوة على أنَّ التَّطبيق على (أخلاق الوزيرين) دفعنا إلى إفراغ فصل خاص يُعنى بدراسة غياب التَّلَطَّف وقد حرَّضنا ذلك على قراءة أبرز الدِّراسات الأجنبية الحديثة في هذا المبحث والذي جعلنا نهتدي إلى نظرية كولبير التي تُعدُّ امتدادًا لنظرية الوجه، ومع ندرة الدِّراسات التَّطبيقية في هذا المجال، ورغبنا في عدم إقحام النظرية على الفصول التطبيقية بصورة قسرية أثَّرتنا تحليل كلِّ محاورة وبناء مباحثها بالاعتماد على ما تجلَّى فيها من مظاهر تعمد إلى الانتهاك تارة، وإلى الانتقاء تارة أخرى ممَّا كلَّفنا جهدًا كبيرًا في محاولة البحث عن العلائق والصِّلات بين الأساس النَّظريِّ والتَّطبيقِيَّ لبناء فصول البحث وتسميه مباحثه انطلاقًا من أهم المصطلحات التي بُنيت عليها نظرية براون وليفنسون. ولعلَّ ما بذلناه من جهد وآثرناه من سعي يسهم في سد ثغرة بسيطة في مجال ما فتئت الدراسات فيه تتطور بشكل ملحوظ وسريع جدًّا.

- قائمة بالمختصرات:

B & L	بروان وليفنسون Brown and Levinson
FTAs	الأعمال المهددة للوجه Face Threatening Act
D	المسافة الاجتماعية الفاصلة بين المتخاطبين Social Distance
P	القوة النسبية (عامل السلطة) Relative power
R	منزلة العمل المهدد بالنسبة لثقافة معينة Absolute Rank
Wx	القيمة العددية لقياس ثقل العمل المهدد للوجه
S	المتكلم Speaker
H	المتلقي Addressee

الفصل الأول: الإطار النظري للتلف

1. التلف أدبيات تأسيسية في المفهوم والنشأة

2. منطلقات النظرية والأسس العامة لنموذج B & L

- الأعمال المهددة للوجه وسبل التعويض

- استراتيجيات التلف من الصمت إلى التصريح

- استراتيجيات التلف الإيجابي وسبل التأيد والتعويض الجزئي

- استراتيجيات التلف السلبي والإجراءات التعويضية المنصفة

- الاستراتيجيات المراوغة وانتهاك المعاني الغريسية

3. سبل الارتقاء بالنموذج المقدم

الفصل الأول: الإطار النظري للتلفظ

التلفظ أدبيات تأسيسية في المفهوم والنشأة

إنّ البحث في نظرية التلفظ بالقول، يدعونا إلى النظر في أصل مصطلح التلفظ اللغوي، المشتق من مادة (ل، ط، ف) والذي يدل على صغر الشيء ودقته¹، وأمّا اللطيف فيتضمّن معاني البرّ والتكرمة والتخفي²، وتلفظ للأمر فمؤداه "الترقيق له"³، واللطيف من الكلام هو "ما غمض معناه وخفي"⁴، وعلى هذا الحقل الدلالي اللغوي بُني فهم العلماء العرب لظاهرة التلفظ بالقول اصطلاحاً، فقد تنوّلت الظاهرة تحت مباحث الكناية وتخيّر الألفاظ ومراعاة المقام⁵ وحال أطراف الخطاب⁶ ممّا يثبت وعي العربي بضرورة الالتزام بالأدب العامة⁷، ومراعاة خصوصيات المخاطبين تلتظاً وتهذباً، ومن تلكم الإشارات، نورد تعريف المبرد للكناية على أنّها رغبة ذاتية يسعى من خلالها المتكلّم إلى ضبط محادثاته، واستبدال الألفاظ المحظورة لغوياً بألفاظ تؤدي الغرض ذاته، بشرط مراعاتها للأدب العامة، ولخصوصيات المخاطبين⁸.

فضلاً عن هذا، فقد أفرد العسكري باباً خاصاً يعنى بالتلفظ حتّى عدّه أحمد مطلوب مبتدعاً⁹ لهذا المفهوم، وهو كائن في "أن تتلفظ للمعنى الحسن حتّى تهجنه، والمعنى الهجين حتّى تحسنه"¹⁰،

¹ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1993م، ج 9، ص 316-317.

² المصدر نفسه، ج 9، ص 316-317.

³ الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط5، 1999م، ج1، ص 282.

⁴ الأزهرى، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م، ج 13، ص 235.

⁵ يضمّ المقام "المتكلّم والسامع أو السامعين، والظروف والعلاقات الاجتماعية، والأحداث الواردة في الماضي والحاضر ثم التراث والفلكلور والعادات والتقاليد والمعتقدات والخزعبلات". ينظر: حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط6، 2009، ص352.

⁶ يعرف الخطاب على أنه "موطن التفاعل والوجه المتحرك منه، ويتمثّل في التعبير والتأويل". ينظر: الزناد الأزهر، نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصّاً، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، ط1، 1993، ص 15.

⁷ تنسب منطلقات نظرية آداب المعاملة في الدراسات التداولية الحديثة إلى براون ولفنسن فقد أكدا ضرورة أن يبذل كلا المتحاورين الجهود لتلطيف كل الأعمال التي تهدد ماء الوجه، ينظر:

Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, University of Cambridge, 1978, p61-62.

⁸ المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي- القاهرة، ط3، 1997 م، ج2، ص 215.

⁹ مطلوب أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1986م، ج2، ص 341.

¹⁰ العسكري، الحسن بن عبد الله، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - بيروت، 1998م، ج1، ص 427.

ومن التعريف السابق، يتبين لنا توجه العسكري في اعتبار التلطف في القول سلاحًا ذا حدين، فالتلطف المفرط في المعاني الحسنة يحولها إلى معانٍ مستهجنة وقبيحة ومريبة، فمبالغة المادح بذكر الخصال الحميدة لشخص معين يوقعه في التهكم والسخرية منه نتيجة المبالغة في نسبة ما لا يستحقه إليه، وفي مقابل ذلك، فإن التلطف في استعمال بعض المعاني القبيحة المستنكرة، في سياقات معينة، يخرجها من دائرة الاستهجان والاستنكار إلى الاستحسان والقبول؛ لتبلغ بذلك غاية التلطف بالقول، وهو عين مفهوم "كناية التلطيف"¹ الذي تطرق إليه ابن فارس فذكر أن للكناية بايين، فإما أن يكنى عن الشيء فيذكره بغير اسمه تحسينًا للفظ أو إكرامًا للمذكور²، وتظهر الكناية بتغيير الاسم لتحسين اللفظ في قوله جل في علاه في قصة عيسى وأمّه عليهما السلام: لما المسيح ابن مريم إلاً رسول قد خلت من قبله الرسل وأمّه صديقة كانا يأكلان الطعام³، وفيه كناية عما لا بد لأكل الطعام منه⁴، وأما الكناية لغرض التبجيل والتوقير فتظهر في قولهم: (أبو فلان)، توقيرًا له، وصيانة لاسمه من عدم الاحترام والاحتشام⁵.

ولم يغفل الجاحظ عن تأييد ما جاء به بشر بن المعتمر من أهمية مراعاة أحوال المخاطبين، وضرورة الموازنة بين أقدار ثلاثة، وهي: أقدار المعاني، وأقدار المستمعين، وأقدار الحالات، فلكلّ كلام قدر من المعاني، وقدر كلّ معنى مقام، وقدر كلّ مستمع حال⁶، وبيان ذلك أن الإنسان العاقل لا يمكن أن يخلو كلامه من مقاصد يسعى إلى تحقيقها، وإما أن تكون تلك المقاصد صريحة ومباشرة أو خفية وضمنية، وحتى ينجح في تحقيقها فعليه أن يحسن أدائها على الوجه الذي يراعي فيه مكانة المتلقي، ويعتني بإدراك حاله عند صياغته الكلام واختياره المعاني، فيكون حديثه في

¹ هي ترجمة لمصطلح Euphémisme، ويعرفه دومارسي على أنه الوجه الذي به نخفي الآراء التي لا تروق أو الشنيعة أو الباعثة على الحزن بأسماء ليست الأسماء الخاصة بتلك الآراء؛ وتكون لها كالحجاب؛ لتصبح بذلك أكثر إمتاعًا، وأقل صدامًا، وأكثر نزاهة، وفقًا للحاجة، ينظر: شارودو باتريك، دومينيك منغو، معجم تحليل الخطاب، بالاشتراك مع عدد من المؤلفين، ترجمة: عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، دار سيناترا، المركز القومي للترجمة، تونس، ط1، 2008م، ص 233-234.

² فارس أحمد، صاحب في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: محمد علي ببيزون، ط1، 1997م، ج1، ص200.

³ القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية 75.

⁴ نزلت هذه الآية في سياق رد المولى تبارك وتعالى على اليهود والنصارى الذين كذبوا نبوة نبي الله عيسى عليه السلام، ونسبوا إليه الإلهية، وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وكذلك ما نسبوه من الفاحشة إلى أمه السيدة مريم عليها السلام، فتأتي هذه الآية دليلًا على نفي صفة الإله عنهما، وإظهار عجزهما لاحتياجهما إلى الطعام، والإله لا يكون عاجزًا، وهذه كناية عما لا بد لأكل الطعام من إحدائه بعد الأكل. ينظر: الماوردي، علي بن محمد، تفسير الماوردي النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ج2، ص 56، وينظر أيضًا: المصدر السابق ذكره، صاحب في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ج1، ص 427.

⁵ المصدر نفسه، ج1، ص 427.

⁶ الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2003م، ص 138-139.

مستوى فهم المتلقي، ولا يساوي الجاهل بالمتقف، ولا يتحدث بحديث الخاصة إلى العامة، مع ضرورة مطابقة اللفظ لمقتضى المقام الذي قيل فيه، فيبتعد عن اختيار الألفاظ الغريبة والوحشية.

واعتماداً على ما سلف بيانه، يتضح لنا اتساع الحقل المعجمي والدلالي لمصطلح التلطف فقد تضمن معان ظاهرة ومباشرة والتي تمثلت في معاني البر، واللين، والزفق، ومعان خفية وغير مباشرة، امتازت بالغموض، والدقة، والتخفي، فرغم ما يتضمنه المصطلح من معاني اللباقة والكياسة، إلا أنه لا يعدم "الحيلة والفتنة والدكاء"¹، ومن هذا المنطلق يتبين لنا أن مفهوم التلطف ذو أفق دلالي واسع يتجلى في الأقوال والسلوكيات والأفعال تجلياً يجعله ظاهرة سيميائية عابرة، وتُجز بثلاث طرائق: لفظية Verbal من قبيل عبارات الثناء والاعتذار، وموازية للفظ Paraverbal من قبيل الصوت والنبر والحركة المصاحبة للنطق، وغير لفظية Non-Verbal من قبيل اللباس، وطريقة الجلوس إلى المائدة، ورغم أن المعاني التي يتضمنها مصطلح التأدب موصولة بتهديب الأخلاق (Politesse)، ومراعاة آداب المعاملة إلا أننا عمدنا إلى استخدام مصطلح التلطف معولين على ارتباطه بمجال اللغة والبلاغة والأدب، ومراعين في اختياره اجتناب اللبس الآتي من جهة التجانس الصوتي بين الأدب (literature) والتأدب (Politeness) لكونهما حقلين متميزين موضوعاً ونهجاً وغاية.

ومما لا شك فيه أن تقديرنا كبير لجهود العلماء والباحثين، في تقديم المحاولات والتصورات المؤسسة لنظرية التلطف، باعتباره النموذج الذي يضمن استمرار العلاقات، ويدفع إلى بناء الصداقات، إلا أن جلّ اهتمامهم قد انصب حول ما يشكل تهديداً لماء وجه المخاطبين، رغبة منهم في المحافظة على الأنا الذاتية²، مما يؤكد ضبابية الصورة التي بُني عليها موضوع التلطف وحياديتها، ولعلنا نورد المحاولة الأولى بعد حوالي ثلاثين سنة والتي سعى خلالها قوفري ليتش Geoffrey Leech في كتابه Pragmatic of Politeness إلى مراجعة المنجز المعرفي في مجال التلطف، وتقديم مقترح جديد حاول فيه فحص النظرية بصورة موضوعية والذي خصص فيه فصلاً عرض فيه تعريفات التلطف عند عدد من الباحثين أهمها تعريف روبين لاكوف Lakoff Robin بأن التلطف إنما هي فكرة سعت المجتمعات إلى تطويرها رغبة في تقليل الخلافات الشخصية³، ولهذا فقد اعتبر ليتش التلطف استراتيجية تمكّن الفرد من تجنب الصراعات والمواجهات Strategic conflict

¹ الثبتي، محمد بن سعيد، ظاهرة التلطف في الأساليب العربية (دراسة دلالية لتقبل الألفاظ لدى الجماعة اللغوية)، مجلة جامعة أم القرى، العدد 20، 2000م، ص 86.

² تعرف الذاتية على أنها بروز المتكلم في الفعل الكلامي، ينظر الهامش: سيلفان أورو، جاك ديشان، جمال كولوغلي، فلسفة اللغة، ترجمة: بسام بركة، مراجعة: ميشال زكريا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، ط1، 2012، ص347.

³ Politeness "developed by societies in order to reduce friction in personal communication"

Lakoff, Robin. Language and Woman's Place. New York: Harper and Row, 1975, p64.

¹avoidance، مؤكِّداً أنَّ مدار التَّلَطُّف كائن في العلاقة الَّتِي تربط المتفاعلين، والمتمثِّلة في (الأنا والآخر)²، كما اعتبرت ساشيكو إيد Sachiko Ide التَّلَطُّف لغة مرتبطة بالتَّواصل المرن والسَّلس³، في مقابل ماريا سيفيانو Maria Sifianou الَّتِي اعتبرت التَّلَطُّف مجموعة من القيم الاجتماعيَّة الَّتِي توجِّه المتفاعلين لمراعاة بعضهم البعض سعياً إلى إرضاء التَّوقعات المشتركة بينهم⁴.

وبناءً على هذا التَّصوُّر، نُسبت الهيمنة على جميع المحاولات التَّنظيريَّة في مجال التَّلَطُّف اللُّغوي⁵ إلى النَّمُودَج المَقْدَم من براون Brown وليفنسون C. Levinson في كتابهما Politeness Some Universals In Language Usage الَّدِّي صدر في عام 1978م، كما صدرت في عام 1987م طبعة أخرى منقَّحة ذات مقدمة ضافية تشرح حدود النَّظريَّة. وعلى الرغم مما نُسب إلى روبين لاكوف، أستاذة اللِّسانيَّات بجامعة كاليفورنيا، من ريادة في مجال البحث في التَّلَطُّف باعتبارها (أمَّ النَّظريَّات التَّلَطُّفيَّة الحديثة The Mother Of Modern Theory)⁶، إلَّا أنَّها انطلقت من أعمال بول غرايس Paul Grice، وتحديداً من مقالته (المنطق والمحادثة Logic and Conversation) الَّتِي ضُمَّنت في الجزء الأوَّل من كتابه (دراسات في طريق الكلمات Studies in the Way of Words)، فقد اعتمد غرايس (مبدأ التَّعاون Cooperative Principle)⁷ أساساً يرتكز عليه في دراسة مختلف التَّبادلات القوليَّة، ممَّا تفرَّع عنه أربع قواعد تهتم بالخبر، وهي (الكم، والكيف، والمناسبة أو الترابط، والنوع أو الطريقة)، وقد اعتبر طه عبد الرَّحمن هذه القواعد بمثابة الضَّوابط الَّتِي تضمن للخطاب تحقيق الغاية والإفادة في الوُضُوح⁸، كما تطرَّق غرايس إلى مبادئ أخرى جماليَّة واجتماعيَّة وأخلاقيَّة، منها (مبدأ التَّلَطُّف)، ولكنه لم يوفِّه

¹ Leech, Geoffrey, Exploration in Semantics and Pragmatics, Amsterdam: Benjamins, 1980, p19.

²"Politeness concerns a relationship between two participants whom we may call self and other". Op.cit: Language and Woman's Place, p 131.

³"Politeness is "language associated with smooth communication". Ide, Sachiko, Formal forms and discernment: two neglected aspect of linguistic politeness, Multilingua, 1989, 8(2/3), p225.

⁴ "The set of social values which instructs interactants to consider each other by satisfying shared expectations".

Sifianou, Maria, Politeness Phenomena in England and Greece, Oxford: Clarendon Press, 1992, p86.

⁵ Richard J.Watts, Politeness, Cambridge University Press, fourth impression, 2004, P10.

⁶ Elen, G, Ideology in politeness: A Critical Analysis. Proefschrift voorgelegd tot het behalen van de graad van Doctor in de raal-en letter kunde. Antwerp: Universitaire Instelling Antwerpen, p 32-33.

⁷ Grice, Paul, Studies in the Way of Words, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, London, England, 1989, p26.

⁸ عبد الرحمن طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء 1998م، ص 238-239.

حقّه من البحث والتّحليل، فقد كانت إشارته إليه عامة من دون تفصيل يوضح القواعد والأسس التي ينبغي عليها، الأمر الذي كان بمنزلة الإشارة التي التقطتها لأكوف.

واستنادًا إلى ما سبق، اعتبر الإطار النظريّ الذي قدمه الباحثان براون وليفغسون (B & L) هو الإطار الأكثر اتساقًا وقوة رغم الانتقادات التي تعرّض إليها في بداية التسعينيات 1990، الأمر الذي رسّخ وجود هذه النظريّة، وأكّد أهمّيّتها، وفتح آفاقًا واسعة للتعامل مع التّلطف من منظور لغوي¹، ولعلّ هذا خير دافع لنا لنستعرض الإطار النظريّ لنظريّة التّلطف موضحين أهم منطلقاتها، ومبيّنين أهم الأسس التي بنيت عليها.

¹ Richard J.Watts, Politeness, P10.

منطلقات النظرية والأسس العامة لنموذج B & L

ينطلق براون وليفنسون في كتابهما من مشكلة بحثية مؤداها أنّ المرء يتمكن من إدراك مقاصد الآخرين في التفاعلات القولية، (كالطلب، والعرض، والتقد، والشكوى، والإيحاء) ليس مما يتم ادّعاءه صراحة، وإنما في التفاصيل اللغوية المصاحبة لأقوالهم، والقرائن الحركية التي تسهم في فهم تلك المقاصد¹، مؤكّدين أنّ التوجّه الاستراتيجي في استخدام اللغات إنّما هو منبثق من (وجه المشاركين Face) باعتباره عنصر النواة Kernel Element في المفاهيم الشعبية للتلفّظ²، ويعتبر مفهوم الوجه مفهومًا مركزيًا في كتابهما، وهو خاضع للاستثمار العاطفي Emotionally Invested، وهذا يعني أنّ الوجه قد يتعرض إلى أمور ثلاثة: فقدان Lose، أو الصيانة Maintain، أو التحسين Enhance³ من قبل الأطراف المتفاعلة، وحتى يستمر التفاعل القولي بينهما، فعلى كلّ منهما احترام وجه الآخر، وصيانتها باعتباره احتياجًا أساسيًا Basic Wants⁴ يكفل المصالح، ويحقق الغايات.

إنّ مفهوم الوجه لدى B & L مشتق من فكرتين⁵ أولاهما لإيرفينق غوفمان Erving Goffman الذي عرّف مفهوم الوجه أو الحرم في كتابه (طقوس التعامل Interaction Ritual) عام 1967م بوصفه القيمة الاجتماعية الإيجابية التي ينسبها المرء إلى نفسه بواسطة الأعمال التي يفترض الآخرون أنّه أنجزها في اتصال معيّن⁶، وأمّا الفكرة الثانية فقد جاءت من المصطلح الإنجليزي losing face فقدان الوجه والذي يرتبط بمواجهة المفاهيم المحرجة والمهينة للأشخاص، وهو أمر يشير إلى أنّ قوام نظرية التلفّظ إنّما ارتكز على أساس يدعو إلى المحافظة على الصورة الذاتية للمرء في أبهى حلّة، وتجنّب كلّ ما يشوه جمال تلك الصورة، أو يحطّ من قدرها ومكانتها أمام الآخرين⁷.

¹ Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p57.

² Ibid, p57.

³ Ibid, p61.

⁴ Ibid, p61.

⁵ Ibid, p61.

⁶ "The positive social value a person effectively claims for himself by the line others assume he has taken during a particular contact".

Goffman, Erving, Interaction Ritual: Essays on face-to-face Behavior, Pantheon, New York, 1967, p5.

⁷ ولعل مفهوم غوفمان يدفعنا إلى استدعاء مصطلح (الأخذ بالوجه) الذي أورده ابن رشد في تلخيصه لكتاب الخطابة لأرسطو والذي وصفه بأنه جملة الأمور المستعملة مع الألفاظ، وهي أشياء مُعينة على جودة التقسيم وإيقاع التصديق وبلوغ الغرض المقصود، وليتمكن المتكلّم من استمالة السامعين إلى الإصغاء والاستماع والإقبال عليه بالوجه وتفرغ النفس لما يورده من أمور، مؤكّداً نفعية الأخذ بالوجه في الخطب التي تتلى من جهة المنازعة؛ لأنها تحتاج إلى الاستعانة بجميع الأشياء المقنعة لتحصل الغلبة، فيتم تغيير الألفاظ وإبدالها،

ولهذا فقد سعى B & L إلى وصف وتفسير التشابه غير العادي في التفاصيل اللغوية التي يختارها الأشخاص للتعبير عن أنفسهم بلغات وثقافات متنوعة، الأمر الذي دفعهما إلى بناء فرضية تقوم على أن أنماط بناء الرسائل، أو طرق وضع الأشياء (التسمية)، أو استخدام اللغة ببساطة، ما هي إلا جزء من الأشياء المستخدمة في العلاقات الاجتماعية¹، ولعل من أهم الركائز التي قامت عليها النظرية كانت كالآتي: الأعمال المهددة للوجه Face Threatening Act، أو بإيجاز (FTAs)²، والوجه الإيجابي Positive Face³، والوجه السلبي للمتخاطبين Negative Face⁴، والاستراتيجيات التلطيفية التي تهدف إلى حماية الوجوه من التعرض إلى التهديد، أو التقليل من حجم التهديد، وتقليل نسبة خطورته على وجه الطرف المستهدف، ومن هذا المنطلق يحق لنا أن نتناول الأسس العامة التي بني عليه النموذج المقترح من قبل بروان وليفنسون.

إن بناء المحاورة أو الخطاب⁵ يقوم على هيكل عام متعدد المستويات للأهمية الكلية للأفعال التفاعلية، هو مرجع أساسي يقوم عليه التحليل الاستراتيجي لاستخدام اللغة، فهو يحتل موقعاً رئيساً لمواجهة اللغة والمجتمع. ولما كان إدراك التبادلات القولية غير مقتصر على ما هو ظاهر في الأفعال المنجزة صراحة، وإنما كائن في التفاصيل اللغوية، والقرائن الحركية المصاحبة للأقوال والأفعال، كان التوجه نحو (وجه المشاركين) عنصراً مهماً في المفاهيم الشعبية المتعارف عليها لتحليل نظرية التلطف. فإن الوجه Face في هذه التفاعلات القولية يقوم على مجموعة من الرغبات

=كنوع من الترميز والمغالطة، وذلك لأن مفهوم الأخذ بالوجه لدى أرسطو ينتزل من القول المغير منزلة الموطئ والمستدرج، فيمكنه أن يبلغ بالتغيير من الإقناع أقصى ما في طبعه نتيجة ما يحدثه من استجابة واستعطاف من دون قسر أو إكراه. ومما سبق تتضح لنا أصالة مفهوم الوجه في التراث العربي واليوناني والذي تجلّى في أمور عدة تمثلت في القدرة على الإقناع، والتخيل، والإقناع، والتصديق للأفعال والأخلاق الصادرة عن المتكلم، ولذلك نجد أن ابن سينا في الشفاء يساوي بين مفهوم الأخذ بالوجه والنفق، مشيراً إلى أنهما يصدران عن الطباع، ولذلك فإن الإنسان الذي يجيد التعبير عن مكونات نفسه بالوجه والجسد إنما هو أقدر على إقناع الآخرين، وفي الوقت ذاته قد يستغل البعض هذه القدرة في المغالطة، والترويح، والتلاعب في التعبير وهذا هو عين النفاق ومادته. ينظر: ابن رشد، محمد بن أحمد، تلخيص الخطابة، وكالة المطبوعات، الكويت، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم بيروت- لبنان، د. ط، د. ت، ص 250، 252، 303. وينظر أيضاً: ابن سينا، الشفاء، تصدير ومراجعة: إبراهيم مدكور، تحقيق: أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي الكبرى، الخزنة العالمية للمخطوطات الإسلامية، قم إيران، ط2، 2012م، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1957م، ج4، ص197، 200.

¹ Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p55.

² Ibid, p60.

³ Ibid, p68.

⁴ Ibid, p67.

⁵ يذكر حاتم عبيد أن مجال الخطاب الاختلاف، فهو فضاء تصادم يُخرج القائل إلى أن يتحصن في موضع معين منه يدافع عن قيمه وأفكاره ومن ثم يثبت هويته الاجتماعية والإيديولوجية، ينظر: عبيد حاتم، في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط1، 2013م، ص 27.

التي تسعى الفواعل المتشاركة¹ إلى إشباعها بواسطة الأفعال، ونتيجة لقيام التفاعل على أساس الضعف المتبادل في الوجوه، ظهر مفهوم بذل الوجه face given، المتمثل في سعي كل طرف من أطراف التفاعل إلى الحفاظ على ماء وجه الآخر²، وصيانته من التهديد والإراقة حفاظاً على صورته الإيجابية من التشويه، وصيانة لوجهه من التهديد.

وعليه، فقد ميّزت التفاعلات بخاصيتين، هما الوجه والقدرات العقلانية Rationality، وأما الوجه فيمثل الصورة الذاتية التي يطالب بصيانتها كل طرف من أطراف الخطاب، ويتكوّن من جانبين متصلين، وهما الوجه الإيجابي، والوجه السلبي. يقوم مفهوم الوجه الإيجابي على الصورة الإيجابية المتمثلة للذات التي يُنشئها الآخرون عنه، ويسعى هو بدوره إلى إظهارها وفرضها في مختلف التبادلات القولية، فتتمثل في نرجسيته، ورغبته الدائمة في الاعتراف بنفسه أمام الآخرين، ونيل الخطوة، والقبول والتقدير لكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال. وأما الوجه السلبي فإنه يقوم على الرغبة في الحفاظ على المحميات الشخصية للفرد، والسعي إلى عدم الكشف عنها، وتتمثل في مساحات حرم الأنا الجسدي، والمكاني أو الفضائي، والزمني، والمتاع المادي، والمعلومات السرية الخاصة به.

في حين أنّ الخاصية الثانية تتمثل في تحديد القدرات العقلانية التي تتضمّن أنماطاً عقلية متسقة للإدراك والمعارف والتي تُحقّق على إثرها الغايات، وتبيّن الوسائل المعنية على تحقيقها³، وفي الانزلاق عن هاتين الخاصيتين تحدث الانتهاكات التي تعرقل من سيرورة التفاعل القائم على احترام آداب التعامل، وتتعدى على حرّامات الآخرين وخصوصياتهم.

إنّ التعامل مع أهمية الحفاظ على وجه الآخر لا يعتبر معياراً اجتماعياً فحسب، ولا قيمة اجتماعية يسعى الأفراد إلى تحقيقها وإنما هي حاجة أساسية يعرفها كل متحاور في الخطاب، وعليه أن

¹ الفواعل المتشاركة مفهوم يطلق على تسمية كل من المتكلّم والمخاطب في العملية اللغوية، ينظر: شارودو باتريك، دومينيك منغو، معجم تحليل الخطاب، بالاشتراك مع عدد من المؤلفين، ص 20.

² يعتبر غوفمان أن أصل مفهوم (ماء الوجه) مسرحي يحيل على القناع (mask) الذي يرتديه الممثل أثناء التمثيل على المسرح، ولهذا فقد استعاض بمصطلح الممثل (Actor) عن مصطلحي المتكلّم والسامع، ينظر:

Goffman, Erving, Interaction Ritual: Essays on face-to-face Behavior, p18.

وينظر أيضاً: عبيد حاتم، في تحليل الخطاب، ص 50-51.

³ يتقارب مفهوم الوجه بجانيه الإيجابي والسلبي مفهوم الإيپوس (Ethos)، والباثوس (Pathos) لدى أرسطو، يقوم مفهوم Ethos على الصورة الذاتية التي يحافظ فيها المتكلّم على فضائل نفسه لدى السامع، في مقابل مفهوم Pathos المتمثل في استدعاء عواطف السامع وانفعالاته. ينظر: عبيد حاتم، في تحليل الخطاب، ص 93.

يحرص على الالتزام بها، وهذا ما أطلق عليه الباحثان صيانة الوجه Face as wants¹. وتتكوّن صيانة الوجوه أو بذلها من مكونين رئيسيين، وهما الوجه السلبي، والوجه الإيجابي. اشتقت فكرة الوجه السلبي من عدم الفرض والإعاقة، وهو أدب مألوف يستحضره مفهوم اللباقة، بينما الوجه الإيجابي فإنّه مشتق من التلطّف الإيجابي والمتمثّل في حاجة كلّ عضو في أن تكون رغباته معروفة ومقبولة، ومن هنا تشكّلت ضرورة التّطرّق إلى ما يخالف مفهوم صيانة الوجوه وحمايتها من التهديد بتناول الأعمال المهدّدة للوجه FTAS وتوضيح طرائق التصحيح وسبل التّعويض.

-الأعمال المهدّدة للوجه وسبل التّعويض

يمكن أن نعزو ظهور الأعمال المهدّدة للوجه إلى طبيعة الطّروف الاجتماعيّة والنّفسيّة التي تتحكّم في منجز الخطاب، وتدفعه إلى إنجاز عمل مهدّد للوجه رغم وعيه بما يترتب عليه إنجازها من ضغط وإكراه، ونقف هنا على الأعمال اللّغويّة المنجزة التي تتعرّض للتهديد والانتهاك لنتعرف على أقسامها، ونتبيّن حدودها.

إنّ كلّ تبادل قوليّ يقوم على أربعة وجوه:

1. أعمال تهدّد الوجه السلبي لمتلقّيها، وتظهر في ثلاثة أشكال:

أولها: الأعمال التي تُنبئ عن حدوث ضغط على المتلقّي، أو ترغب منه الامتناع عن أداء فعل معيّن، ويكون ذلك في الأوامر، والطلّبات، والاقتراحات، والنّصائح، والتذكير، وكذلك في حال التّحذير من العقوبات المتوقّعة جراء عدم القيام بهذا العمل.

¹ يقوم مفهوم (صيانة الوجه) على أهمية حماية الوجوه، والحفاظ عليها من التعرض إلى أي انتهاك أو تهديد، الأمر الذي يلزم مُنجز الخطاب ببذل المزيد من الجهد لإرضاء متلقّيه -ولو تمّ ذلك بصورة جزئية-، علاوة على تقديم ما في وسعه من أجل صيانة وجهه من التهديد، وهو المفهوم الذي يبنّي عليه بذل الوجه face given، فمنجز الخطاب بهذا المفهوم لا يلجأ إلى بذل وجهه للمتلقّي بناءً على رغبته الحقيقية والصادقة في إرضائه، وإنما سعياً منه في صيانة وجهه من كلّ تهديد قد يتعرّض إليه، ولعلنا نوضح ما سبق بمثال (الشّتائم)، فعندما يتلقّى أحد الأفراد شتيمة فهي تعرضه وجهه الإيجابي والسلبي للانتهاك، ولكنها في الآن ذاته تنتهك وجه المنجز الإيجابي، وتقلل من قدره في نظر الآخرين نتيجة ما قام به من فعل مشين، ويكون بذلك مفهوم الوجه مساوياً لمفهوم الصيانة، وتكون الصيانة هي الأصل في التفاعل القوليّ، في حين أن البذل يكون فرعاً عنه.

ولقد كان لمفهوم الصيانة حضور في تراثنا العربي، فاستعمل بمعاني المحافظة والعناية والإكرام، ولعلنا نورد من طريف أخبار العرب، ما قاله أبو السماك لأحد الرجال في سبيل استتجاح نيل مطلوبه: "لم أضن وجهي عن الطّلب إليك، فُصن وجهك عن ردّي، وضعتني من كرمك بحيث وضعت نفسي من رجائك". ينظر: مانغونو دومينيك، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص60. وينظر أيضاً: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، دار الكتب المصرية، 1925م، ج8، ص127.

ثانيها: الأعمال الإيجابية المنجزة من قبل المتكلم والتي تتحكم في التصرفات المستقبلية للمتلقى، فهي تمارس نوعاً من الضغط والتهديد عليه من ناحية القبول أو الرفض، ويظهر ذلك بخاصة في العروض والوعود.

ثالثها: الأعمال التي يعبر فيها المتكلم عن مشاعره اللطيفة اتجاه المتلقى كمشاعر الحب والإعجاب، أو مشاعره السلبية كالبعوض والكراهة، أو عند رغبته في الحصول على شيء من أغراض المتلقى أو حاجاته مما يوقعه في حرج وارتباك شديدين، ويدخل في ذلك كل إساءة لفظية أو جسدية غير لائقة كالاختراق الحرامي، أو النقد الجارح، إضافة إلى أي سلوك مزعج يضيع وقت الآخر، ويسلبه حريته كالأفعال التوجيهية من قبيل الأمر والنهي والطلب والمنع والنصح والوعظ.

2. أعمال تهدد الوجه الإيجابي لمتلقيها، وتظهر عند تعبير المتكلم عن رفضه، أو نقده، أو ازدراءه، أو سخريته مما يصدر عن المتلقى من أقوال وأفعال، ومن أنواعها: الشكاوى، والتوبيخ، والانتهاكات، والشتم، والتناقضات، والإهانة، والسخرية، والخلافات، والتحديات التي يتعرض لها الوجه الإيجابي للمتلقى مما يطعن في كبريائه، ويستهدف نرجسيته، الأمر الذي يؤكد عدم مبالاة المتكلم بوجه المتلقى الإيجابي.

3. أعمال تهدد الوجه السلبي لمنجزها، وتكون في العروض والوعود التي يطالب المتكلم بإنجازها سواء أكانت في المستقبل القريب أو البعيد، ويتمثل ذلك عندما يعرب المتكلم عن شكره، أو في حال تلقيه لعبارات الشكر، وكذلك عند تعبيره عن الاعتذار، أو في حال قبوله للاعتذار، أو الهدايا والهبات المكروه عليها، أو عند نقده لأخطاء المتلقى. فكل تلك الأعمال تشعر المتكلم بالتوتر، وتعرض وجهه السلبي للإحراج.

4. أعمال تهدد الوجه الإيجابي لمنجزها، وتظهر عند قبوله لعبارات الشكر والتثناء، أو اعتذاره عن مجاملة سابقة، أو عند مواجهته نقداً ذاتياً، كالاعتراف بذنب ارتكبه، أو الإقرار بمسؤوليته عند حصول أمر معين، أو في حال عدم حصوله، أو عند جهله بشيء كان من المتوقع أن يعرفه، علاوة على قلة تحكمه في عواطفه، وأهوائه، أو قلة مراقبته للحركات الصادرة عنه الأمر الذي يمكن أن يعرض سيطرته الجسدية إلى السقوط، أو الدل، أو الانهيار.

ولهذا فإنّ مُنجز الخطاب يجد نفسه بين مسلكين، فأما المسلك الأول فهو قائم على إنجاز العمل المهدّد لماء الوجه بطريقة مباشرة، ومن دون عمل تصحيحيّ، ويظهر ذلك عندما لا يخشى المتكلّم من أن ينال منه المتلقّي، أو في حال وجود أسباب تستدعي القيام بالفعل بهذه الصّورة المباشرة، وتتمثّل في الأوامر المستعجلة، وفي التّهديدات الصّغيرة جدّاً، والاقتراحات، والطلّبات الّتي من شأنها خدمة مصالح المتلقّي وتلبية رغباته، وعندما يتفوّق مُنجز الخطاب في سلطته ومكانته ونفوذه على المتلقّي ممّا يُمْكِنه من تحقيق السّيطرة والفرص والإلزام.

وقد يسلك مُنجز الخطاب مسلكاً ثانياً يتمثّل في إنجاز العمل المهدّد للوجه باستخدام عمل تصحيحي أو إجراء تعويضي¹ Redressive Action، ويعرّف B & L هذه الأعمال والإجراءات بأنّها محاولات تتصدّى لمختلف الأضرار المحتملة للوجه نتيجة إنجاز أعمال مهدّدة لماء الوجه، ويتمّ ذلك عبر إجراء بعض التّعديلات، والإضافات الّتي تبعد الشّك عن وجود تهديد مقصود أو مرغوب فيه، وتؤكد أنّ منجزها يريد أن يصون وجهه متلقّيه لينجح في الأداء، وتتخذ هذه الإجراءات التّصحيحيّة بالاعتماد على وجه المتلقّي السّلبّي أو الإيجابّي² أحد الشّكلين التّاليين:

أولاً: التّلطّف الإيجابّي³ Positive Politeness، وهو موجّه نحو الوجه الإيجابّي للمتلقّي، ويتمثّل في سعي المتكلّم إلى الحفاظ على وجه المتلقّي، والعمل على تلطيف الأفعال الموجهة إليه، وتتجلّى في حال إعلاء المتكلّم من شأن متلقّيه فيعتبره بمثابة الصّديق، أو الشّخص المعروف إليه بسماته ورغباته، أو عندما يشعر المتكلّم متلقّيه بقربه فيبدي له موافقته وإقراره وتأييده لرغباته، ويكون ذلك نتيجة لوعي المتكلّم التام بما تترتب عليه المعاملة السيّئة من معاملة بالمثل والّتي قد تنتهك وجهه الإيجابّي، ولهذا كان إحياء المتكلّم بحبّه للمتلقّي سبيلاً في تغيير التقييم السّلبّي للأعمال المهدّدة للوجه بشكل عام إلى ما يخالف ذلك.

ثانياً: التّلطّف السّلبّي⁴ Negative Politeness، وهو موجّه نحو الوجه السّلبّي للمتلقّي، ويعتمد بشكل أساسي على التّجنّب، والانتقاء، وإدراك استراتيجيّات التّلطّف السّلبّي، فهو يتّسم بالإقضاء وضبط النّفس بحيث تنجز الأعمال من دون أن يحول بينها وبين المتلقّي أي عائق أو فرض مباشر يقيد من حريته.

¹ Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p69.

² Ibid, p70.

³ Ibid, p101-128.

⁴ Ibid, p129-130.

ولتصحيح الأعمال المهددة للوجه يمكن استخدام الاعتذار وسيلة مباشرة توضّح تأسّف منجز العمل المهدّد للوجه عن انتهاكه لخصوصيّات الآخرين، ويتّضح ذلك عند تعبير أحدهم: (أعتذر بشدة عن تدخّلي في أمورك الشخصيّة).

كما يمكن لمنجز العمل المهدّد للوجه أن يستخدم أعمال اللّغة غير المباشرة¹، فيلجأ إلى طرح سؤال، أو إثبات قول، أو ذكر إحياء، أو توظيف رافعات التّعيين عن الزّمان أو الأشخاص، كفعل الشرط، وصيغة المبني للمجهول، أو استخدام آليات التلطيف² Softening Mechanisms التي تمكّن المتلقّي من صيانة وجهه من التّهديد، وتمهّد له سبيلاً للهروب والخلاص من الشّعور بالإكراه الذي ينطوي عليه الرّد، ومن الأمثلة على ذلك التعليق على أحدهم نتيجة عدم التزامه بالإجراءات الوقائيّة للتّصدي لفايروس كورونا، فيقول: (في هذه الفترة الحرجة من غير المحتاج لا يرتدي الكمامة؟)، ونلاحظ أن المتكلّم قد ذكر العلة وهي الحاجة والفقر التي تمكّن المتلقّي من اتخاذها وسيلة تبرير فاعلة تسوّغ له عدم ارتداء الكمامة.

¹ يتقارب مفهوم العمل المباشر وغير المباشر مع مفهومين أصليين في تراثنا العربي أشار إليهما السكاكي، وهما المقتضى الظاهر وهو المعنى الصريح في علم البيان، والخروج على المقتضى الظاهر، وكذلك مع مفهومي الحكاية بالقول، والحكاية بالمعنى الذي استخدمه الباحثان في نظرية الصلة أو المناسبة لترجمة المصطلحين Direct Speech، و Indirect Speech. ينظر: السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 1987 م، ج 1، ص 171 و211. وينظر أيضًا: سبيريبر دان، ولسون دبيري، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة: هشام إبراهيم الخليفة، مراجعة: فراس عواد معروف، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت - لبنان، ط1، 2016، ص 12.

² Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p70.

-استراتيجيات التلطف من الصمت إلى التصريح

تتنوع الاستراتيجيات التلطفية التي تسهم في تقدّم التفاعل بين أطراف الخطاب، وتضمن نجاح التواصل بأقل نسبة ممكنة من التهديدات، فكلّ فرد عاقل يرغب في الحفاظ على صورته الجيدة أمام الآخرين، والابتعاد عن كلّ ما قد يكون سبباً في إراقة وجهه أو التقليل من هيئته واحترامه، وقبل أن نستعرض الاستراتيجيات التلطفية، نودّ أن نؤكد أنّ منجز القول لديه الخيار في اختيار المستوى الدلاليّ للغة التي يريد استخدامها، فإمّا أن يتخذ شكل اللغة الدلالي (الصورة المباشرة) فيطابق المعنى الخطابيّ ظاهرياً، فتكون الاستراتيجية المباشرة، أو أن يعدل عنها فيدرك المتلقّي الدلالة من السياق¹، وهي الاستراتيجية غير المباشرة. ومن هنا نتبيّن أن لاستراتيجيات التلطف درجات، وهي تنقسم خمسة أقسام:

1- استراتيجية الصمت (الكف) **Opting Out**، وهي ببساطة أن يتجنّب المتكلّم الإساءة، ويتبعّد عن استخدام الأفعال المهدّدة لوجه المتلقّي على الإطلاق، ممّا يحافظ على استمرارية الصلة والعلاقة بين المتخاطبين، ويحقّق التواصل المنشود في الخطاب المتبادل بين أطراف، ولهذا فقد كانت العرب تحتّ على الالتزام بالصمت فنقول: "خير الخلال حفظ اللسان"².

2- استراتيجيات التلميح **Off-the-Record Strategies**، وتعتبر هذه الاستراتيجية من الاستراتيجيات الخفية وغير المباشرة التي يعدل المتكلّم فيها عن الإفصاح إلى التعريض، ممّا يدفع المتلقّي إلى جمع القرائن المقاميّة حتّى يدرك المقصود، وتتيح هذه الاستراتيجية مزايا عديدة لمنجزها، منها: إمكانية ممارسة الضّغط العام في الطلب على المتلقّي، أو دعم ما هو في صدد فعله بصورة خفية، إضافة إمكانية حصوله على تمييز خاص بنسبة أفضل الصفات كالصدق والصراحة إليه نتيجة ثقة المتلقّي بما يصدر عنه من أقوال، وسيكون في الآن ذاته بمنأى عن زميم الخصال كالتلاعب في الأقوال أو الأفعال، حينئذ تتحقّق كفاءة المتكلّم في كلّ ما يصدر عنه، وذلك لكون الكلام لم يوجّه إلى المتلقّي بصورة مباشرة على الإطلاق، ولعلّ من نافلة القول إن الدلالة المركزية للاستراتيجية التلميحية في كثير من الأحيان قائمة على

¹ لا يقتصر مفهوم السياق على المعلومات الخاصة بالبيئة المادية المباشرة ولكنه يشمل على التوقعات المستقبلية، والفرضيات العلمية، والمعتقدات الدينية، والحكايات المخزونة في الذاكرة، والافتراضات الثقافية العامة، والمعتقدات بشأن حالة المتكلّم العقلية، فجميع ما سبق يمكنه أن يسهم في تفسير المقول، وعليه يمكن تعريف السياق بأنّه الوضعية الملموسة التي توضح وتتطوّر عبرها المقاصد المتعلقة بالمكان والزمان وهوية المتكلّمين، وكل ما نحن بحاجة إليه من أجل فهم وتقويم ما يقال. ينظر سبيريبر دان، ولسون ديري، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ص 42.

وينظر أيضاً: أومينكو فرانسو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ط1، 1986م، ص 8.

² الميداني، أحمد محمد، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، لبنان، ج1، ص 242.

عدم الفرض والإلزام، وفكرة هذه الاستراتيجية نقف على مثلها عند قولهم: "إياك أعني واسمعي يا جارة"¹ وهو مثل عربي يضرب لمن يريد بكلامه شيئاً مغايراً عنه.

3- استراتيجيات التلطف السلبي **Negative Politeness Strategies**، وتتمثل في تصريح المتكلم بالفعل المهدد للوجه مع إجراء تصحيحي يقلل من الخطر الواقع نتيجة تهديد وجه المتلقي السلبي، ويظهر ذلك عندما يحافظ المتكلم على مسافة اجتماعية آمنة بينه وبين متلقيه، ويسعى إلى تجنب التهديد أو خسارة الوجوه المحتملة عند زيادة الألفة بينهما.

4- استراتيجيات التلطف الإيجابي **Positive Politeness Strategies**، وتقوم على تصريح المتكلم بالفعل المهدد للوجه مع إجراء تصحيحي يقلل من خطر التهديد الواقع على وجه المتلقي الإيجابي، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما يبديه المتكلم من مشاعر الحب والرغبة في التوافق مع كل ما يرغب فيه المتلقي، ولعل أهم مردود يجنيه المتكلم عند توظيفه هذه الاستراتيجية قائم على استمرار العلاقة بين المتخاطبين، وتجنب آثار الديون والتهديدات المترتبة على إنجازها بصورة مباشرة ومن دون عمل تصحيحي.

5- الاستراتيجية التصريحية **Bald On-Record Strategies**، تعتبر هذه الاستراتيجية من الاستراتيجيات المعلنة والمباشرة، فالمتكلم يصرح فيها بالقول المهدد من غير إجراء تصحيحي وتعويضي للوجه، وهذا لا يعني تجريد كلامه من احترام القواعد العامة والآداب، وإنما يسعى إلى إراحة نفسه من عناء الكناية والتضمين، ولهذا كانت العرب تقول: "عند التصريح تُريح"²، وغالباً ما يلجأ المتكلم إلى هذه الاستراتيجية عندما يكون العمل المهدد لماء الوجه ثقيلًا وخطراً مما يستدعي استخدام الأسلوب الصريح والمباشر، وهي تقابل مبدأ التعاون الغرائسي **Cooperative Principle**.

يقوم مبدأ التعاون على أربع قواعد توجيهية للمخاطبة؛ تسهم في تحقيق أقصى قدر من كفاءة الاتصال، وهي: قاعدتا كم الخبر **Quantity**، وكيف الخبر **Quality**، قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال **Relation**، وقواعد جهة الخبر **Manner** التي أريد بها بلوغ الغاية في الوضوح، بحيث تكون المعاني بين المتخاطبين صريحة وحقيقية، ومن المفيد أن نشير هنا إلى قاعدة التعفف **Don't impose** عند لاكوف والتي تقوم على (عدم فرض نفسك على الآخرين)، فهي توجب حفظ مسافة بين المتخاطبين، فيتجنب المتكلم استخدام أفعال وجدانية،

¹ الميداني، أحمد محمد، مجمع الأمثال، ج1، ص 49.

² المصدر نفسه، ج2، ص 31.

والدّخل في خصوصيّات المتلقّي وشؤونه الشخصيّة، وإلزام المتلقّي بفعل ما يكره، ومردود هذه الاستراتيجية قائم على مضاعفة درجة القوّة التي يمتلكها المتكلّم لإرضاء وجه المتلقّي السّلبّي من الدّرجة الّتي تتيحها استراتيجية التّلطّف السّلبّي، علاوة على إسهامها في إظهار كفاءة المتكلّم الّذي لن يعتبر الوجه الوسيلة الوحيدة لإرضاء المتلقّي؛ لاعتقاده أن ثمة أمور تتضاعف أهميتها مفهوم الوجه، كما أنها تجنّب المتكلّم مسؤولية مساءلته اتجاه الأفعال الّتي تستلزمها الاستراتيجيّات الخفيّة وغير المباشرة.

ولتوضيح الاستراتيجيّات السابقة، نورد هذا المثال التطبيقي:

(ألقي أحد المشاركين في الندوة مداخلة متواضعة تواترت فيها أخطاء معرفية عديدة، وكانت معالجة الموضوع سطحية، والأحكام فيها موسومة بالتسرّع ينقصها الصواب والإقناع. كيف نواجه الأمر؟).

1. استراتيجية الكف والّتي تتجلى عندما يلتزم المتكلّم الصّمت، ويتعدّد عن إيراد القول المهدّد للوجه، لوجود مصلحة لديه، وذلك لما يبيده النّقد في المحافل من صورة تتمثّل في الطّعن على المحاضر أمام الحاضرين، والتّشكيك في كفاءته العلميّة والمعرفيّة.

2. استراتيجية التّلميح، وتظهر عندما يؤدي المتكلّم القول بطريق التّعريض تاركًا للمستمع أن يتخيّر إحدى المعاني المحتملة، فيقول: (هذه المسألة مختلف فيها بين الباحثين، وزوايا النّظر إليها عديدة، ولكلّ فريق حججه ومؤيداته، ومن ثمة لا يمكن أن نصدر في شأنها حكمًا جازمًا).

3. استراتيجية التّلطّف السّلبّي، وتبرز عند تصريح المتكلّم بالقول المهدّد مع تعديل يدفع عن المتلقّي الضّرر المحتمل من تهديد وجهه السّلبّي، ومن الأمثلة على ذلك: (عفوًا سيدي الكريم، لي رأي آخر، غير ما ذكرت)، أو (أعتذر إن بدا في نقدي لمداخلتك بعض الاختلاف عما ذهبت إليه).

4. استراتيجية التّلطّف الإيجابي، وتتمثّل في تصريح المتكلّم بالقول المهدّد مع تعديل يدفع عن المتلقّي الضّرر المتوقّع جراء تهديد وجهه الإيجابي، فيقول: (من عاداتك الّتي أحترمها كثيرًا حرصك على إيفاء العلم حقوقه من المناقشة والمراجعة، واقتناعك بأنّ الكمال يُنشد فلا يدرك، وكم مرة قدّمت بسلوكك وأخلاقك العلميّة أعظم الدّروس، ومن هذا المنطلق أعلم أنّك

تقبل نقدي، فقد تواترت في معالجتك السطحية العديد من الأخطاء المعرفية بشكل أفصى إلى أحكام متسرعة ينقصها الصواب والإقناع).

5. الاستراتيجية التصريحية، وتظهر عند النقد المباشر الصريح بشكل معلن ومباشر، فيقول: (استمعت إلى محاضرتك وكانت فيها أخطاء معرفية عديدة، ومعالجتك للموضوع كانت سطحية، وأحكامك متسرعة ينقصها الصواب والإقناع)، وهذا موقف ينصف العلم، ويكشف عن الأخطاء رغم ما يفرضي إليه من توتر في العلاقة بين المتفاعلين.

وبعد هذا البيان، تتضح العلاقة الطردية التي تربط ثقل الأعمال المهددة للوجه باختيار الاستراتيجية العليا المناسبة، فكلما زاد ثقل الأعمال المهدد للوجه اضطر منجز القول إلى استخدام أعلى استراتيجية تمكنه من تحقيق مقاصده، ونيل المكتسبات الفردية المرجوة، وإذا مضينا في هذا السبيل وجدنا أن هناك ضرورة حتمية تدفعنا إلى تناول العوامل التي تسهم في تقييم مستوى خطورة العمل المهدد للوجه:

أولها: المسافة الاجتماعية الفاصلة بين المتخاطبين **Social Distance**، ويرمز لها اختصاراً (D)، وهي المعنية بتحديد درجة الألفة والمودة بينهما.

ثانيها: القوة النسبية التي تظهر توسع نفوذهما **Relative power**، ويرمز لها بالرمز (P)، والتي تُعنى بتقدير سلطة أحد الطرفين على الآخر.

وثالثها: منزلة العمل المهدد بالنسبة لثقافة معينة **Absolute Rank**، (R)، ويقاس قوة التهديد بالنظر في الثقافة واللغة التي أفرزته، وذلك لما تفرضه مختلف اللغات والثقافات من قيود تستدعي أنماطاً معينة من التفكير دون غيرها.

وقد أشار الباحثان B & L إلى عملية حسابية يمكن من خلالها قياس ثقل العمل المهدد للوجه، والتي جاءت كالآتي: $(Wx = D(S,H) + P(H,S) + Rx)$ ¹.

تمثل Wx القيمة العددية التي يقاس عبرها ثقل العمل المهدد للوجه، وهي الدافع لاختيار استراتيجية معينة دون أخرى وحتى يتمكن الفرد من قياس حجم التهديد فعليه أن ينظر في العوامل الثلاثة التي أشرنا إليها أعلاه، وأن يراعي في استخراج درجة تأثير عاملي المسافة الاجتماعية والقوة النسبية على المتكلم من جهة، وعلى المتلقي من جهة أخرى.

¹ Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p 76.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن معيار ترتيب الأعمال المهددة للوجه يخضع لمقدار الألم الذي يتعرض له وجه المتلقي الإيجابي، نتيجة التناقض الواقع بين الصورة الجيدة التي يرغب المتلقي في إظهارها للآخرين، وبين الصورة التي قدمت عنه بشكل صريح أو ضمني في العمل المهدد للوجه، وذلك لوجود تصنيفات ثقافية لجوانب الوجه الإيجابي، مثل: الكرم، والنجاح، واللطف، والجمال والتي يمكن إعادة تصنيفها في ظروف معينة لتشكل تهديدات من نوع آخر على وجه متلقيها، إضافة إلى خضوع هذه التصنيفات للتمييز نتيجة المعايير الشخصية الخاصة لكل فرد، فما يعتبره أحدهم عملاً مهدداً قد لا يصنفه الآخر على ذلك.

وعليه، فقد أكد الباحثان أهمية الانطلاق من السياق باعتباره المحدد الأساسي لمجال القوة، إلا أن القوة النسبية -وهي أكثر وجهات النظر منطقية- قيمة غير مرتبطة بالأفراد على الإطلاق، وإنما بالأدوار أو مجموعة من الأدوات التي تؤثر في تحديدها، ولتوضيح ذلك نورد هذا المثال الذي نقارن فيه بين سلطتي المدير والعامل، ونبين أن المدير بالاعتماد على منصبه فإنه يتبوأ درجة عالية، ويحتل تصنيفاً مرتفعاً في القوة النسبية (عامل السلطة)، في حين أن العامل -وبناء على وظيفته المتواضعة- فإنه يتبوأ درجة ضعيفة، ويحتل تصنيفاً منخفضاً، ولكن عندما يقوم العامل بحمل أي سلاح، فإن درجات القوة النسبية ستتغير بينهما نتيجة لانقلاب عامل السلطة، ولهذا يجب ألا تكون التعينات مطلقة وفي معزل عن السياق الذي أنتجها، وذلك لشمولية هذه العوامل P و D و R على أنواع عديدة تدخل فيها: المكانة، والسلطة، والاحتلال، والعرق، والهوية، والصداقة، والعوامل الظرفية التي لها تأثير مبدئي على تقييمات خطر مواجهة الأعمال المهددة لماء الوجه، ولما في هذه العوامل من قدرة على إزالة الغموض عن العامل الأكثر أهمية في تقييم الخطر Wx. وعلى سبيل المثال فإن اعتبار (الاحترام) على أنه إذلال للذات أو إعلاء للآخر يعود إلى درجة القوة النسبية للمتكلم والمتلقي على حد سواء P(H,S).

ولعل السبب الذي أدى إلى ظهور عامل الخطر Wx قائم على مدى ارتباطه باختيار الاستراتيجيات المناسبة دون غيرها، فهو رمز يتيح لمنجزه تقدير المخاطر مما يؤكد -في غالبية الأحيان- أن اختيار الاستراتيجية المناسبة بشكل عام يشق عن الخطر المتوقع حدوثه على المتلقي، كما يقوم اختيار الاستراتيجيات على الرغبات المرتبطة بالوسائل اللغوية، وعليها تكون تلك الرغبات منظمة ومرتبطة من الأكثر تهديباً حتى أقلها، وإن العمليات المتضمنة في تلك الرغبات لها علاقة بتركيز الاستراتيجيات وبترتيبها الموضوعي.

ولهذا فقد أشار الباحثان إلى أربع استراتيجيات ذات المستوى الأعلى في التقييم، أطلقا عليها مسمى **الاستراتيجيات الفائقة¹ Super-Strategies**، والتي تتضمن الاستراتيجيات التصريحية، واستراتيجيات التلطف الإيجابي، واستراتيجيات التلطف السلبي، وأخيراً استراتيجيات التلميح. ونجد أن مخرجات هذه الاستراتيجيات -في الغالب- تركز على ثلاثة أركان، أولها: الجهد، وثانيها: سبل صيانة ماء الوجه، وثالثها: الرغبة، ويظهر ذلك جلياً عند دراسة العلاقة الطردية بين هذه الأركان: فكلما زاد الجهد المبذول من قبل منجز الكلام للحفاظ على وجه المتلقي، ازدادت السبل التلطيفية التي يسعى إلى توظيفها في خطابه الأمر يؤكد رغبته الفعلية في صيانة وجه متلقيه والمحافظة عليه من التهديد، أو أن تلك الجهود والسبل قد تسهم في إضفاء إشارات ضمنية تفصح للمتلقي نوايا منجزها الخفية والمبطنة.

ولما كان الأمر كذلك فقد كان من المهدّب أن يلتزم المتكلم بتخفيف الأعباء التي تقع على وجه المتلقي جراء العمل المهدّد للوجه بشكل استباقي والتي أطلق عليها بـ**(الدعوات الوقائية Pre-emptive invitation)**²، وتظهر في ثلاث فئات، أولاًها: الترحيب أو ما بعد التّحيات، ثانيها: الوداع، وثالثها: العروض، لما تشتمل عليه هذه الفئات من مخاطر تهدّد وجه المتلقي الذي لا يرغب في قبول هذه الأعمال فضلاً عن تلقّيها، وبخاصة عندما يكون مستوى الخطر كبيراً على وجهه ويستدعي منه اختيار استراتيجية تصريحية مباشرة، ولعلنا نوضّح ذلك بقول أحد الأمهات عن ابنتها الخجولة: (ابنتي هي دائماً هكذا)، فإنّ علم الأم المسبق بشخصية ابنتها الخجولة يدفعها لأن تصرّح لمن تقابله في حضرته بأنها ابنة خجولة، ونلاحظ أنّ الأم قد قدّمت المبرر (فهي دائماً هكذا)؛ لتخفّف من حجم التهديد على من بادر بالسلام على ابنتها نتيجة امتناعها عن المبادرة بذلك.

¹ Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p 92.

² Ibid, p 99.

-استراتيجيات التلطف الإيجابي وسبل التأيد والتعويض الجزئي

جاءت استراتيجيات التلطف الإيجابي لغرضي الإنصاف والتعويض، ويتوجه الإنصاف إلى الوجه الإيجابي للمتلقى، رغبةً في تصديق رغباته، وتأييداً لأقواله وأفعاله، فتتسع دائرة الإنصاف فيه إلى تقدير رغبات الأنا، والقدرة على تغييرها، بينما التعويض فإنه في الغالب يتم بصورة جزئية، تلبية لرغبات المتلقى كلها أو ما يتفق منها مع رغبات المتكلم، وليس بالضرورة أن يكون التعويض في التلطف الإيجابي إعادة تقدير لوجه انتهك جراء عمل مهدد للوجه، ويتباين الأمر عند استخدام استراتيجيات التلطف السلبي، وذلك لأن مجال الإنصاف فيها مقتصر على تعويض ما تم إهماله وانتهاكه.

ولأن دراستنا تنطلق من التلطف بالقول فإن من الأهمية بمكان أن نشير إلى عنصر الإدراك اللغوي بين المتخاطبين The Linguistic Realizations، ويظهر هذا العنصر عند التلطف الإيجابي، ويتمثل في السلوك اللغوي الذي يظهر اهتمام المتخاطبين ببعضهما البعض، وتقاسمهما الرغبات والمعارف المشتركة¹، ويمكن تمييز السلوك اللغوي الودي اليومي عن السلوك اللغوي بغرض التلطف الإيجابي، بواسطة عنصر المبالغة؛ وذلك لأن تصحيح رغبات وجه المتلقى الإيجابي تتم عن طريق إضفاء عنصر المبالغة على رغباته والتي تشعره بالاهتمام والرغبة فيما يريده، وكذلك عنصر النفاق Insincerity الذي يكثر استعماله في التعبيرات المبالغ فيها².

هذا وتتميز استراتيجيات التلطف الإيجابي بسمة مشتركة، وهي قدرتها على إدخال المتلقى بشكل مباشر في ثنايا الخطاب مما يزيد من الاهتمام الجوهري به، وتتضمن ثلاث استراتيجيات كبرى (جامعة) تتفرع منها خمس عشرة استراتيجية، وهي كالتالي:

¹ يعتبر الباحثان في نظرية الصلة إلى أن الافتراضات المشتركة هي الطريقة الوحيدة لضمان عدم حصول سوء الفهم نتيجة تطابق السياق المستعمل من قبل المستمع مع السياق الذي تصوّره المتكلم. ينظر: سبيريبر دان، ولسون ديري، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ص 44.

² يشير الباحثان إلى أهمية عنصر المبالغة والنفاق في تعويض وجه الطرف الآخر وتحسين ما خلفه إنجاز الفعل المهدد عليه، فيكون النفاق وسيلة إيجابية تمكن المتكلم من إظهار رغبته الصادقة وإن لم تكن مخلصه بشكل تام في إرضاء المتلقى. ينظر:

Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p102-103.

1. **الانتماء إلى خلفيّة مشتركة**، ويتم ذلك عن طريق سعي المتخاطبان إلى خلق أرضيّة مشتركة تظهر اتفاقهما، أو التأكيد على وجود أرضيّة مشتركة جامعة بينهما، ويكون ذلك نتيجة لرغبة المتكلم وإرادته في تقريب العلاقات، والابتعاد عن الخلافات، وتكثيف سبل الحفاظ على رغبات الطرف الآخر، ويتم ذلك عبر الاستراتيجيّات الفرعيّة الثّمان الّتي نجلها في:

1-1 الاستراتيجية الأولى وقاعدتها: **(ابد اهتمامك بالآخر)**، وفي هذه الاستراتيجية يلاحظ المتكلم حالة الطرف الآخر عند أداء خطابه، فهو ينتبه إلى التغيّرات الملحوظة الّتي تطرأ على المتلقّي، ويظهر المتكلم تأييده لمصالح المتلقّي ورغباته واهتماماته وحاجاته والكثير مما يملكه، ويتجلى ذلك عندما يحرص المتكلم على ملاحظة لباس متلقّيه، وعطره، وتسريحة شعره، وعند اطمئنانه عليه في حال مرضه، أو عند إحساسه بالجوع من عدمه، ولعلّ الأمر يتضح بصورة أكثر في هذا المثال الّذي يلاحظ المتكلم فيه معاناة متلقّيه من نزلة برد أدت إلى جريان أنفه أمامه، فالتكلم أمام موقفين، إمّا أن يتجاهل هذه الحادثة فيعدّ نوعاً من أنواع التّلطّف السّليبيّ، وقد يتفاعل مع هذه الحادثة، ويقدم للمتلقّي منديلاً أو يطلب منه أخذ القليل من الراحة إزاء ما يقوم بفعله، فالتكلم في هذه الحال يتلطف مع مخاطبه تلطّفاً إيجابياً.

2-1 الاستراتيجية الثّانية وقاعدتها: **(بالغ في التّعبير عن إعجابك بالآخر)**، يسهب المتكلم في استخدام إشارات تثبت تأييده وإعجابه وتعاطفه مع كلّ ما يصدر عن مخاطبه من أقوال وأفعال، ومثال ذلك ما تتضمنه الخطابات من تعبيرات تدل على الموافقة المؤكّدة للأقوال، مثل: بالتأكيد، حقاً، بالضبط، تماماً.

3-1 الاستراتيجية الثّالثة وقاعدتها: **(كنّف اهتمامك بالآخر، واسع إلى أن تسدي إليه نفعا)**، يحاول المتكلم أن يظهر اهتماماً خاصاً بمساهمات المخاطب أثناء الخطاب، ويكون ذلك عبر توظيف عنصر السرد في الخطاب، فيقوم المتكلم على سبيل المثال بسرد قصة تتعلّق بموضوع الخطاب، وكذلك استخدام الأفعال المضارعة الّتي تضيفي على الخطاب حيوية وتجديداً، وفي بعض الأحيان يتطلّب الخطاب تبديل الأزمنة الماضية والحاضرة وفقاً لطبيعة الخطاب والمخاطبين، إضافة إلى توظيف الكلام المقتبس المباشر (الشّواهد) عوضاً عن استخدام الكلام غير المباشر، وقد تؤدي المبالغة في هذه الحالات إلى التّخفيف من حجم التّهديد الّذي يواجهه المتلقّي عبر ما بيديه المتكلم من نوايا حسنة وصادقة اتجاه متلقّيه.

4-1 الاستراتيجية الرابعة وقاعدتها: (استخدم علامات تدل على وجود هوية مشتركة جامعة)، يقوم المتكلم بتوظيف بعض العلامات في خطابه التي تؤكد وجود علاقة متماسكة تجمع بينه وبين متلقيه، ومن الأمثلة على ذلك استخدام الألفاظ التي تشير إلى وجود علاقة ودية بين الطرفين، مثل: رفيقي، صديقي، عزيزتي، أمي، أخي، أختي، فعندما يخاطب أحدهم الآخر قائلاً: (أتساعدني في حمل الحقيبة يا بني؟)، تتضح لنا طبيعة العلاقة التي تربط متكلم تبدو عليه علامات الوقار والاحترام وتقادم العمر، مع صبي يصغره سناً، يقع على عاتقه واجب الاحترام، وتأدية ما يطلب منه.

ويمكن أن يخفف أسلوب الأمر الذي يحكمه عنصر القوة النسبية على الطرف الآخر إلى أسلوب طلب متلطّف، ويظهر ذلك جلياً عندما يخاطب المتكلم متلقياً صغيراً في السن، فيلجأ إلى تخفيف أسلوب الأمر، ومثال ذلك ما يقال للطفل الصغير: (احضر لي ملابسك المتسخة لأغسلها يا عزيزي).

وتتجلى في هذه الاستراتيجية ظاهرة الازدواج اللغوي فيقوم المتكلم باستبدال لغة مكان لغة الأخرى، يمكننا أن نلاحظ ذلك عندما يزواج بعض المتكلمين حديثهم باللغة العربية مع اللغة الهندية عند حديثهم مع عمال البناء على سبيل المثال إظهاراً للرفق والرحمة ودفعاً للتميز.

ويمكن للمتكلم توظيف استراتيجية الحذف في الخطاب والتي تعتبر من استراتيجيات التلطّف الإيجابي، نتيجة لوجود ارتباط حتمي بين العلامة التي تعد دليلاً على المحذوف وبين وجود معرفة مشتركة بين المتخاطبين، فعلامة الحذف تبعاً لهذه الاستراتيجية تشير إلى وجود كلام معروف بينهما تمّ التلّفظ به في وقت سابق.

5-1 الاستراتيجية الخامسة وقاعدتها: (كن وفاقياً)، يبحث المتكلم في هذه الاستراتيجية عن سبل تمكّنه من تعزيز الاتفاق مع المتلقي، ويكون ذلك عندما يختار المتكلم الحديث في مواضيع آمنة وعامة¹، كالحديث عن الطقس، أو جمال الطبيعة والحدائق، أو مناقشة مضايقات الوقوف في الطابور، أو الحديث عن بعض الموضوعات التي تمكّن المتكلم من الحصول على موافقة المتلقي عليها بسهولة، ومن هنا تتجلى لنا أهمية المعرفة المسبقة بحال الطرف الآخر، فكلما زادت معرفة المتكلم بحال المتلقي ورغباته كانت رؤيته عنه أكثر وضوحاً وجلاءً، ومثال ذلك تعليق أحدهم على

¹ يطلق تمام حسان على هذا النوع من الأحاديث بالحيل الاجتماعية التي يلجأ إليها المتكلم لرفع الحرج الاجتماعي الذي يشعر معه أطراف الخطاب برغبة في إنهاء الموقف، فتكون هذه الحيلة بمثابة الوسيلة التي تمكن المتخاطبين من تجنب الحرج بفتح موضوع لتبادل الكلام. ينظر: حسان تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 344.

جاره الذي اشترى سيارة جديدة ولكنها ملوثة للبيئة: (أليس لون سيارتك الجديدة ذات الدخان الكثيف جميلاً؟).

ويعتبر عنصر التكرار من الطرق التي تمكن المتكلم من الحصول على الاتفاق متلقيه، ويمكن أن ينجز ذلك على النحو الذي يقوم فيه المتكلم بتأكيد الاتفاق بينه وبين المتلقي عبر تكرار جزء من المقول أو كله، كما يتجلى التكرار في **الاتفاق المؤكد emphatic agreement** وبخاصة عندما يروي شخص ما قصة أو حادثة توجب وجود شخص ما يستجيب لتلك القصة أو الحادثة، ويظهر ذلك عندما يتفاعل المتلقي معه فيقول: نعم، أجل، آه، حقاً.

1-6 الاستراتيجية السادسة وقاعدتها: (كن مسالماً وتجنب الخلاف قدر الإمكان)، يستطيع المتكلم إنجاز هذه الاستراتيجية بأربع طرق:

أولاًها: **الاتفاق الرمزي Token agreement** وليبيان هذه الطريقة استحضّر الباحثان قاعدة الاتفاق عند ساكس Sack's الذي جمع فيها أمثلة عديدة من اللغة الإنجليزية ليقف على الدرجة الملحوظة التي يحرف عبرها المتكلمون من أقوالهم سعياً إلى إبداء الاتفاق وتقليل الخلاف، ومن الأمثلة على ذلك ما يمكن أن يبديه المتكلم من موافقة على ما جاء به المتلقي مع استدراك فيقول: (نعم، لكن...) عوضاً عن (لا) الصارخة، ومن المفيد أن نشير إلى قاعدة التواطؤ لدى ساكس والتي تعتبر استراتيجية موازية متضمنة في الكلام، تنصّ على أنّ الإجابات يجب أن تتبع الأسئلة، ولكن يمكن تقديمها تجنباً للخلافات، إضافة إلى إمكانية توظيف السخرية واعتبارها وسيلة للموافقة السطحية على الكلام.

ثانيتهما: **الاتفاق الظاهر أو الاتفاق الزائف Pseudo-agreement**، يقوم المتكلم برسم خط منطقي للمحاورة مع المتلقي بناء على وجود اتفاق سابق حقيقي أو مزيف، ومثال ذلك عندما يقول أحدهم للآخر: (سأقابلك أمام المسرح قبل الساعة الثامنة بقليل، بعد ذلك). فالتركيب (بعد ذلك) Then في اللغة الإنجليزية يمثل علامة نهائية توضح وجود اتفاق حقيقي مسبق، أو تشير إلى وجود اتفاقية مسبقة مزيفة في حالة انتفاء وجود اتفاقية حقيقية سابقة في الواقع Fake prior agreement.

ثالثتها: **الكذبة البيضاء¹ White Lies**، وهي ناتج آخر لرغبة المتكلم في الالتزام باستراتيجيات التلطّف الإيجابيّ تجنبًا للخلاف، وفي هذه الطريقة يتجنّب المتلقّي المواجهة برفض طلب منجز القول مباشرة، فيلجأ إلى التظاهر بوجود سبب يمنعه من إنجاز الطلب، ومثال ذلك ما يبديه أحدهم من علة تمنعه من تحقيق طلب استعارة مذياعه الخاص فيقول: (مع الأسف لا أستطيع، تلفت البطاريات)، وقد يدرك كلا الطرفين المتخاطبين أنّ العلة غير مقنعة، ولكن ما يدفع المتكلم إلى توظيفها هي الرغبة العميقة الساعية إلى الحفاظ على وجه ملتقى من جهة، والعدول عن استخدام أسلوب الرّفص المباشر لطلبه من جهة أخرى.

أما الطريقة الرابعة فهي **الآراء الملطّفة Hedging Opinions**، يحاول المتكلم أن يكون حذرًا عند عرض أفكاره على الطرف الآخر، فيحيطها بشيء من الغموض والتلطّف حتّى لا يعتبرها المتلقّي آراء مخالفة لآرائه ممّا يكلف المتكلم عناء انتقاء ألفاظه، وتهذيب عبارته حتّى يتمكّن من تحقيق أقصى تلطّف ممكن في الأسلوب وفقًا لدرجات مقياس القيم ذات الصلة بالغرض المراد عوضًا عن قول الحقيقة التي قد تكون مرة في بعض الأحيان فضلًا عن المبالغة في المدح والثناء حد الإسراف والخداع.

إن استخدام هذه الملطّفات تعتبر وسيلة فاعلة في التخفيف من حدة الأعمال المهدّدة للوجه كالاقتراح والتلميح أو النقد والشكوى، فهي توفر للمتكلم القدرة على إخفاء مقاصده نتيجة عدم اتصاله الدقيق والمباشر في الموقف، كما يمكن أن تستخدم هذه الملطّفات كعلامات يترك المتكلم مسألة تأويله على الطرف الآخر وفق ما يراه مناسبًا بالاستناد إلى العلامات الموجودة في السياق.

1-7 الاستراتيجية السابعة وقاعدتها: (افتراض، انهض، وأكّد وجود الأرضيّة المشتركة بين المتخاطبين)، يمكن إدراك معرفة المتكلم بالمتلقّي واهتمامه العام به عبر جملة من الأمور جمعها الباحثان تحت هذا العنوان، فالمتكلم يفترض وجود أرضيّة مشتركة تجمعهم مع الطرف الآخر، ومن ثم ينهض بجمع الوسائل التي تعينه على تأكيد وجودها، أو خلقها مع الطرف الذي يتفاعل معه، ويمكن ملاحظة هذه الوسائل بطرائق عديدة، منها: طبيعة الأحاديث المتبادلة بين الطرفين، فكلمًا بذل المتكلم وقته وجهده في الحديث مع الطرف الآخر بأسلوب ملطف وفي مواضع آمنة ومشاركة بينهما، دل ذلك على وجود صداقة أو اهتمام عام به.

¹ لعل هذا المصطلح يدعونا إلى الإشارة إلى مفهوم "الكذب الحسن" الذي بيّنه ابن سينا في شرحه لأفكار أرسطو، وهو قائم على ترغيب المتكلم في الاستعارة وإقامة الألفاظ الحسنة محل الفاحشة وإن كلّفه الأمر الكذب في سبيل تحقيق ذلك، ينظر: ابن سينا، الشفاء، ج4، ص 207.

- استبدال المركزية، يمكن إنجاز هذه الطريقة في الخطاب بأساليب متنوعة ومتعددة، منها: استبدال المركزية الشخصية لأدوار المتخاطبين في الخطاب الكلامي، تسمى وجهة النظر في اللغات الطبيعية Deixis، وتعني الطرق التي تركز بها الجمل على جوانب معينة من سياقات الكلام، بما في ذلك دور المشاركين في حدث الكلام، وموقعهم المكاني والزمني والاجتماعي، فعلى سبيل المثال يعود استخدام الضمير (أنا) على المشارك الذي ينسب إليه دور المتكلم، بينما يشير ظرف الزمان (الآن) إلى الوقت الذي أنجز فيه الكلام، كما يشير ظرف المكان (هناك) إلى مكان يبعد عن المكان المشار إليه بالظرف (هنا).

وفي هذه الطريقة تبنى الباحثان وجهة نظر فيلمور Fillmore الذي سعى إلى تطوير الطرق التي ترسخ معنى الجمل بشكل واضح وإلزامي عبر تبديل أدوار المتخاطبين، ويظهر ذلك عندما يتم تبديل المركزية الشخصية للمتكلم بالمتلقي، فيأخذ المتكلم دور المتلقي أو تتساوى المعرفة التي يملكها المتكلم بالمعرفة التي يملكها المتلقي، ويوظف هذا الأمر في الخطاب عندما يبتعد المتكلم عن فصل ذاته باستخدام ضمير الأنا عن الآخر أنت، فيستخدم ضمير (نحن)؛ ليدل بذلك على وجود مشاركة واتفاق مشترك جامع بين الطرفين. كما يمكن استبدال مركزية الزمان، عندما يقوم المتكلم بتغيير استخدامه لزمن حدوث الأفعال، فيستبدل المتكلم الأفعال الماضية بالأفعال المضارعة التي تفيد التجدد والتحول في الأحداث. ويستطيع المتكلم استبدال مركزية المكان، فيشير المتكلم إلى المكان الذي يريده باستخدام ظرف مكان يدل على مكان قريب (كهنا وعند) بدلاً من استخدام ظرف مكان بعيد (كهناك أو هنالك). كما يمكن للمتكلم أن يستخدم الكلام المقتبس المباشر بشكل عام جدًا كتقنية للتلطّف الإيجابي.

1-8 الاستراتيجية الثامنة وقاعدتها: (استخدم النكته)، يعدّ توظيف المزاح أسلوبًا أساسيًا في استراتيجيات التلطّف الإيجابي نتيجة لقدرته على التقليل من حدّة التهديد، وإضفاء الشعور بالراحة والطمأنينة على الطرف الذي تعرّض للتهديد، وخاصة إذا بُني المزاح على خلفية معرفيّة مشتركة بين الطرفين. كما يمكن للمتكلم استغلال هذه النكات كمحاولة فاعلة في إعادة ترتيب القيم R, P, D.

2. **التعاون في إنجاز الخطاب**، يرغب كلا الطرفين في تأكيد تعاونهما ومحاولة إيصاله إلى الآخر، فالمتكلم يشير في حديثه إلى المعلومات التي يعرفها عن المتلقي، فيبدي اهتمامه ومساعدته بكل ما من شأنه أن يقوي العلاقة بينهما، وفي حال حدوث نوع من التعارض بين رغبات الطرفين، فالمتكلم هنا بين أمرين، فإما أن يظهر وده ورغبته في قبول رغبات متلقيه، وإما أن يستخدم خاصية قلب وجهة النظر. وتتبقى خاصية قلب وجهة النظر من رغبة كل طرف من أطراف الخطاب في أن يحترم وألا ينتهك وجهه أو حرمانه، وفي إبداء المتكلم احترامه واهتمامه للمتلقي رغم مخالفته إياه في بعض الأمور تحقيقاً لهذه الخاصية. كما يمكن للمتكلم أن يستخدم خاصية المعاملة بالمثل والتي تقوم على سعي الطرفين في تحقيق التعاون المشترك بينهما، وتعزيز المساعدة المتبادلة التي تحكم تفاعلهما في الخطاب.

ويقوم التعاون في هذه الاستراتيجية المركزية على ست استراتيجيات فرعية تستكمل الاستراتيجيات السابقة نوردها فيما يلي:

2-1 الاستراتيجية التاسعة ومفادها: **(ضع في اعتبارك كل ما يرغب فيه الطرف الآخر)**، فإن امتلاك المتكلم المعرفة باحتياجات المتلقي فعليه أن يبدي احترامه لتلك الاحتياجات، ويأخذ رغبات متلقيه بعين الاعتبار، وفي حال عدم امتلاكه للمعرفة اللازمة باحتياجات متلقيه ورغباته فعليه أن يفترض تلك المعرفة، وأن يظهر استعداده لقبول رغباته.

2-2 الاستراتيجية العاشرة وقاعدتها: **(قدّم الاقتراحات والوعود)**، يبدي المتكلم رغبته في التعاون مع المتلقي عبر محاولاته التي تهدف إلى إرضاء وجه المتلقي الإيجابي، وتتجلى هذه الاستراتيجية في سعي المتكلم إلى أن يفرض على نفسه بعض الوعود، وأن يعرض نفسه لبعض المخاطر بفعل الاقتراحات التي يؤيد بها متلقيه مما يؤكد حسن نواياه.

2-3 الاستراتيجية الحادية عشرة ومفادها: **(كن متفائلاً)**، يتميز المتكلم في هذه الاستراتيجية بصفة النقّال وحسن ظنه بالآخر، فهو يتوقع مساعدة المتلقي في حصوله على ما يريده من رغبات واحتياجات مهمة بالنسبة إليه، وتعمل هذه التعبيرات التفاؤلية Optimistic Expressions على التقليل من حجم تهديد الذي يتعرض له المتلقي، ولهذا فقد عدت هذه التعبيرات من أكثر نتائج استراتيجيات التلطّف الإيجابي إثارة لما تحدثه من أثر يقود المتكلم لاتخاذ الطريقة الملائمة لإنجاز الأعمال المهددة للوجه، ومن هذه التعبيرات: (أليس كذلك، أتمنى ذلك، أتخيل ذلك)، كما يدخل في ذلك استخدام صيغة الفعل المضارع الدالة على حدث مستقبلي، مثل: (ستعاون، وسوف

تتعاون)، ولتوضيح ما سبق نورد الأمثلة هذه التي تمكّن المتكلم من تلطيف العمل المهّد فيقول: (سوف أستعير منك كتابًا في عطلة نهاية الأسبوع، وأرجو ألا تمانع ذلك).

كما يمكن للمتكلّم اللّجوء إلى تصغير الطّلب حتّى يتخفّف من حدّته، ويكون سببًا داعيًا إلى قبول المتلقّي، وقد يستعمل التّصغير في أمرين، فإما أن يُستعمل التّصغير لتقليل أمر يتسم بالقلّة والصّغر في حقيقته، مثل: (سأخذ القليل من السكر)، وإما أن يُستعمل التّصغير بدافع التّخفيف من حدّة طلب ثقیل ويصعب على المتلقّي قبوله، مثل: (أريد أن أستعير هاتفك الخاص لدقائق، حسنًا؟).

2-4 الاستراتيجية الثّانية عشرة وقاعدتها: (استخدم الضّمائر الخطابية المشتركة)، يقوم المتكلم بتضمين نفسه في النشاط القوليّ مع المتلقّي، فنجدّه يقول: (نحن نعمل معًا)، و(دعنا نتناول العشاء) نائيًا عن فصل نفسه عن الآخر، ومن أهم مخرجات هذه الاستراتيجية هو التّخفيف من حدّة الأوامر والطلّبات الّتي تظهر حرص المتكلم على إنجاز متلقّيه للفعل المطلوب، وتأكيد قوّة هذه الافتراضات التّعاونيّة على تحقيق المصالح المشتركة بين الطّرفين، فعندما يرغب المتكلم في تحقيق أمر ما فإنه يقول على سبيل المثال: (سنغلق الباب يا سيدتي، الجو عاصف). فهو يخاطب المتلقّي على أنه فرد يتفهّم رغبته، ويوافق على طلبه.

2-5 الاستراتيجية الثّالثة عشرة ومفادها: (قدّم حججًا مؤكّدة لما تقول واسأل عن الأسباب)، يُضمّن المتكلم متلقّيه في الخطاب عبر ما يذكره من أسباب سوغت له القيام بالطلّبات، وتبني تلك الرّغبات، ممّا يعرض المتلقّي إلى ضغط كبير بطريقة غير مباشرة؛ لأنّها تقتض وجود متلقّ متعاون معه في إنجاز العمل. كما يمكن للمتكلم أن يوجّه الأسئلة إلى متلقّيه سعيًا منه في إظهار استعداداته التام للتعاون والاشتراك معه في إنجاز المهام والأعمال، ومن الأمثلة على ذلك: (لماذا لا أساعدك في مهمتك؟)، (لماذا لا نذهب معًا إلى الشّاطئ اليوم؟).

2-6 الاستراتيجية الرّابعة عشرة وقاعدتها: (بادله الفعل أو اطلب منه ذلك)، يؤكّد المتخاطبان وجود تعاون والتزام مشترك بينهما في الحقوق والالتزامات، فالمعاملة بينهما معاملة متبادلة، يفترض المتكلم إنجاز فعل مماثل للفعل الّذي قام بإنجازه متلقّيه، هذا وقد يلجأ المتكلم إلى استخدام هذه الاستراتيجية رغبة منه في تلطيف الأعمال المهّدة للوجه عبر التّقليل من حجم الدّيون، والتّعويض عن بعض الانتهاكات، والتّخفيف من حدّة بعض الأفعال الكلاميّة الّتي تستعمل لتوجيه النّقد، وتقديم الشّكاوى للمتلقّين.

3. **وفاء المتكلم ببعض رغبات المتلقي**، فيبادر المتكلم في إظهار وفائه وتقديره لرغبات المتلقي بصورة مباشرة احتراماً لبعض طلبات المتلقي الخاصة.

ويقوم هذا الوفاء على الاستراتيجية الخامسة عشرة، وهي الأخيرة من استراتيجيات التلطف الإيجابي وقاعدتها: **(قدم الهدايا للمتلقي)**، فإن إرادة المتكلم في إشباع رغبات المتلقي تتحقق بتقديم الهدايا المادية الملموسة التي تدل على أن المتكلم يدرك بعض احتياجات المتلقي، ويسعى إلى تحقيقها، وفي العلاقات الإنسانية فإن كل طرف من أطراف الخطاب يرغب في أن يتقبل الآخر صفاته، ويتعاطف مع رغباته، ويتفهم حاجاته إلا أنه قد يؤثر في بعض الأحيان فعل التجنب والابتعاد عن كل ما يعدّه المتلقي تهديداً على فعل التقرب الذي يسعى فيه المتكلم إلى كسب الود وإظهار التأييد والاهتمام، لذلك كان من الجدير أن نستعرض استراتيجيات التلطف السلبي؛ لنتعرف على أنواعها، ونتبين قوام كل استراتيجية على حدة، ونشير إلى أبرز السبل التعويضية التي تمكن منجز القول من التخلص من كل تهديد يمكن أن يتعرض إليه وجهه السلبي.

-استراتيجيات التلطف السلبي والإجراءات التعويضية المنصفة

إنّ مفهوم التلطف السلبي يركز على عنصرين رئيسين، فأما العنصر الأول فهو إجراء تعويضيّ محدد الغاية يتخذه منجز القول لتلطيف الأعمال المهددة للوجه، أو لتقليل فرض معين أو لتخفيف أثر تهديد مقصود لا مفر منه، وأما العنصر الثاني فيتمثل في رغبة المتكلم بأن يكون حرًا في تصرفاته، بعيدًا عن العوائق التي تقيد سلوكياته ورغباته، ولهذا أسمى الباحثان التلطف السلبي بأنه السلوك المحترم الذي يتوافق مفهومه مع طقوس التجنب لدى دوركهائم، وطقوس الاتقاء لدى غوفمان.

1- الاستراتيجية الأولى وقوامها (كن مباشرًا)، يبحث المتكلم عن الوسائل التي تعينه على تحقيق الاختيار الأمثل للاستراتيجية الفائقة المناسبة عندما يؤدي عملاً مهددًا للوجه، فلا يقوم المتكلم به صراحة لما فيه من انتهاكات تضر وجه الطرف الآخر، وإنما يسعى إلى إنجازه بصورة مباشرة وغير صريحة (خفية)، ومن هذه الوسائل: استعمال صيغ تخاطبية متفق عليها، من قبيل: (هل تستطيع أن تفعل كذا؟)، وفي هذه الاستراتيجية يتجاوز المتلقي تأويل المعنى الحرفي للمعاني إلى المعاني السياقية المقصودة، والأعمال المتضمنة في القول¹. وعليه، فقد اعتبرت أفعال الكلام غير المباشر Indirect Speech Acts من أهم أشكال اللباقة التقليدية.

تقوم نظرية أفعال الكلام غير المباشر لدى سيرل على "أن أنواع الأشياء التي يمكن القيام بها عن طريق الكلام محدودة للغاية، وأنّ الجمل تحمل في بنيتها على دلائل استخدامها الحرفية، أو على قوة تنبيهية"². هذا وقد تستخدم الأسئلة التحوّية لطلب معلومة، أو لتأكيد إصدار بعض البيانات الواقعية، كما يمكن أن يستخدم المتكلم السؤال لتأكيد العمل، أو لتقديم المنح والعروض،

¹ فرّق سورل بين العمل اللغوي الذي يحتمل الإحالة والحمل كأن يحيل المتكلم إلى أمر معين فيختصه أو يحمل عليه، عن الأفعال اللغوية التامة التي يسميها أوستن Austin (أعمالاً مضمنة في القول illocutionary acts) والذي أكد بأن إنجاز العمل المضمن في القول هو إنجاز فعليّ لعمل قضويّ وعمل قوليّ، فقول الكلمات إنجاز لعمل قوليّ، والإحالة على شيء معين والحمل عليه إنجاز لعمل قضويّ، في حين إثبات الأمر، أو الاستقهام عنه، أو الوعد بتحقيقه إنما هو عمل مضمّن في القول، ومن هذا المنطق صنّف الأعمال المتضمنة في القول وفقاً لمعايير الاثنين عشر إلى الأعمال التالية: الخبريات، والتوجيهيات، والوعديات، والإفصاحيات، وأخيراً الإيقاعات، ينظر: سورل جون. ر، الأعمال اللغوية: بحث في فلسفة اللغة، ترجمة: أميرة غنيم، مراجعة محمد الشيباني، دار سيناترا- المركز الوطني للترجمة، تونس، 2015، ص 48-50. وينظر أيضًا:

Searle, John R. Sens et expression: études de théorie des actes de langage, Éditions de Minuit, Paris, 1982, p39-46.

² Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, 132.

Searle, John.R. A classification of illocutionary acts, Language in Society, Vol.5, No.1, 1976, p2.

أو لتأكيد فعل يتضمن طلباً وأمرًا، ومثال ذلك (تأكيد سارة لزميلتها عائشة بأنها سترتدي فستان السهرة المناسب لحضور حفل زفافها).

ولكي يكون الطلب موفقاً وناجحاً، يجب أن يعتقد المتكلم أن متلقي الطلب قادر على الامتثال للطلب، وأن هذا الطلب لا يخالف رغباته، فمن الواضح (عدم نجاعة طلب إغلاق الباب)، إن كان المتلقي عاجزاً عن إغلاق الباب، وإذا كان الباب مغلقاً بالفعل أو على وشك الإغلاق، أو إذا كان المتلقي غير مكترث بهذا الموضوع بشكل عام.

ويفرق جوردون Gordon ولاكوف Lakoff بين التساؤل الذي يراد به المعنى الحرفي للسؤال، وبين التساؤل الذي يراد به فهم أفعال الكلام غير المباشر¹، فعندما نورد هذا المثال: (هل يمكنك أن تتاولني الملح من فضلك؟)، فإن هذا الطلب الذي صيغ على شكل سؤال، قام على محتوى افتراضي مطابق للمحتوى الذي يؤديه الفعل بشكل غير مباشر، ويمكن تأكيد ذلك عبر ما تم إدراجه من جمل داخلية متضمنة في السؤال تهدف إلى تلطيف الغاية المقصودة، فسؤال الحصول على الملح، يعد طلباً غير مباشر؛ لأن المتكلم موقن بقدره الطرف الآخر على مساعدته، وليس من المتصور أن يكون سؤالاً حول قدرات المتلقي المحتملة. كما يمكن أن تحدث بعض التحولات في معنى العبارة، فتجعل المتلقي يستبعد المعنى الحرفي للعبارة، ويذهب في تأويله إلى معنى غير مباشر، ولعلنا نوضح ذلك في المثال التالي: (لماذا تقوم بطلاء منزلك باللون الأرجواني؟)، يمكن أن يكون سؤال المتكلم بريئاً يثيره الفضول، وهذه هي القراءة الحرفية، أو يكون تحدياً نقدياً إليه، وهذه هي القراءة غير المباشرة، كما يستطيع المتكلم أن يخفي هذا التحدي عبر إدخال تعبيرات توحى بالتعجب مما يؤدي نوعاً من الضغط غير المباشر على المتلقي، ومثال ذلك قول أحدهم: (لماذا أنت في هذا العالم تقوم بطلاء منزلك باللون الأرجواني؟!)، (لماذا برّب الكعبة أنت تدرس هذا التخصص؟!).

ونستبين مما سبق، أن أي سلوك غير مباشر يمكن أن نعتبره سلوكاً تواصلياً، سواء أكان لفظياً أو غير لفظي؛ لأنه ينقل شيئاً أكثر مما يرمي إليه المعنى الحرفي، أو يختلف عما هو عليه، فالمعاني الحرفية تتسم بطبيعتها الواضحة لا الغامضة، ولهذا فهي لا توفر خطأ آمناً ومهذباً يمكن الطرفين من اللجوء إليه هرباً من موقف معين. ويمكننا أن نخلص إلى العلاقة الطردية التالية: كلما زاد جهد المتكلم عند أدائه لعمل مهّد للوجه دلّ على محاولاته في إرضاء وجه

¹ Gordon, D and Lakoff, G. Conversational postulates. In Papers from the seventh regional meeting of the Chicago Linguistic Society, Chicago, 1971, p. 63-84.

المتلقّي والحفاظ عليه، وكلّما زادت مخرجات توظيف أفعال الكلام غير المباشر في الخطاب حكم على المتكلّم أنّه مهذّب في علاقته مع الآخر.

2- الاستراتيجية الثانية وقوامها (لا تفترض)، تعطي استراتيجيّات التّلطف السّلبيّ الإنصاف لوجه المتلقّي السّلبيّ، وفي هذه الاستراتيجية يحافظ المتكلّم على خصوصيّة الطّرف الآخر، فيتجنّب وضع افتراضات حول رغبات المتلقّي واهتماماته، وذلك لما في تلك الافتراضات من تأثير على منجز القول عند انتقائه للألفاظ، واختيار الأسلوب بناء على اعتقادات وظنون قد لا تحمل في طيّاتها الكثير من الصّحة، وغالبًا ما تكون عمليات التّواصل بين الأفراد بمثابة تهديدات محتملة للتّفاعل التّعاونيّ الّذي يجري بينهما، وعليه يمكن توظيف عدد من استراتيجيّات، مثل: استراتيجيّات السّؤال Question، والتّحوط أو الملتّف Hedge، هذا ويعرّف الباحثان B&W التّحوطات أو الملتفات على أنّها حروف، أو كلمات، أو جمل تسعى إلى تعديل درجة عضويّة المسند في المجموعة¹، فلهذه التّحوطات القدرة على تحديد درجة العضويّة في المجموعة، وإما أن تكون العضويّة جزئية، أو حقيقية تتفق مع المجموعة في بعض النّواحي، أو أنّها عضويّة صحيحة وفاعلة، وهي التي تعتبر الأكثر اكتمالًا مما قد يكون متوقّعًا منها، ويلجأ المتكلّم غالبًا إلى التّحوط في خطابه عندما يرغب في تقليل المخاطر، أو تعويض قوة التّهديدات الخطابية الّتي يتعرّض لها وجه المتلقّي السّلبيّ، ولعلّنا نوضح ذلك عندما نقارن بين هذين المثالين: (أنا شاهدة محمّدًا قادمًا إلى المنزل)، عن (أنا أفترض أو أظن أو أعتقد أنّ محمّدًا قادمًا إلى المنزل)، ونلاحظ أنّ العبارة واحدة فيهما إلا أنّ درجة قوة الفعل المنسوبة إلى المسند هي التي تتفاوت بين فعل مشاهدة المتكلّم لقدوم محمّد، وبين افتراض واعتقاد قدوم محمّد.

ويجدر بنا أن نشير إلى أنّ المبادئ الّتي تقوم عليها المحادثة تعتبر المصدر القوي والأساسي للافتراضات، وذلك لما تتضمنه من إشارات متعلّقة بالعلاقة بين الطّرفين المتخاطبين توضح حجم التّعاون والصّدق والوضوح بينهما، وتبيّن الأسباب الدّافعة إلى تلطيف الأعمال، ومن هنا تتأكّد أهمية هذه التّحوطات والملتفات باعتبارها أداة فورية تمكّن المتلقّي من التقاط هذه الإشارات. ولعلّ من أهمّ الوسائل اللّغويّة التي تعين المتكلّم على إشباع رغبات المتلقّي هي عدم الافتراض والّتي تقوم على فكرة التّقليل من إجراء افتراضات كبيرة حول رغبات المتلقّي، وفي هذا الحال لن يخالف فعل المتلقّي توقعات المتكلّم، وغالبًا ما تحذف التّحوطات والملتفات مع قوّة الفعل المنجز نتيجة لعدم تناسب حال المتلقّي لحجم الخطر الّذي يداهمه، وخصوصًا

¹ Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p131.

في حال التحذير والإنذار من خطر مباشر يقع على المتلقي، كالذي يحدث عندما يتم تحذير أحدهم بحدوث حريق فيقال له: (أحمد حريق).

ويمكن أن تكون هذه التحركات أو الملطفات لغوية -كما بيناه-، وقد تكون غير لغوية والتي تظهر في حال تحفظ المتكلم عن رأيه فلا يفصح عنه بالألفاظ، وإنما يعبر عنه ببعض الإيماءات الجسدية التي توحى برفضه وعدم موافقته والتي تظهر في تحريك الشفتين، وتقطيب الحاجبين، وهز القدمين.

3- الاستراتيجية الثالثة وقوامها (لا تكره المتلقي وتجبره على القيام بالفعل)، يمكن توظيف هذه الطريقة لمعالجة الرغبة السلبية التي تهدد وجه المتلقي، وخاصة عندما يستخدم المتكلم فعلاً تهديدياً معيناً يترتب عليه توقع إنجاز المتلقي لفعل معين، ويستبين ذلك عندما يرغب المتكلم في الحصول على مساعدة متلقيه لإنجاز أمر ما، أو في حال تقديم المتكلم لمتلقيه طعاماً يتطلب منه قبوله. ونتيجة لما قد يقع على عاتق المتلقي من إكراهات الاستجابة لتلك الطلبات أو العروض فعلى المتكلم أن يستخدم التعويضات كوسيلة تمنح المتلقي الخيار في قبول تقديم المساعدة من عدمها، ويمكن أن يجريها المتكلم بطرائق ثلاث:

- استخدام الأسلوب غير المباشر في الطلب، فيوجه المتكلم طلبه بصورة عامة أمام متلقي واحد أمامه فيقول: (أعتقد بأنني في حاجة ماسة إلى المساعدة).

- اللجوء إلى فكرة قوامها (عدم افتراض قدرة المتلقي واستعداده للقيام بالعمل المراد منه إنجازَه رغم قدرته على ذلك)، وتظهر ذلك عند حاجة المتكلم إلى المساعدة، فيقول للمتلقي الشاب الذي تنطبق عليه مواصفات الطلب: (أعرف شاباً قوياً يساعدي على إصلاح السيارة؟).

- اللجوء إلى فكرة قوامها (انعدام رغبة المتلقي في إنجاز الطلب)، وتظهر هذه الطريقة بصورة جلية في استراتيجية (كن متشائمًا Be Pessimistic) فيعمد المتكلم إلى التشاؤم من تحقيق المتلقي لمعنى الطلب، الأمر الذي يدفعه إلى تسويق الأسباب والعلل التي تمكن المتلقي من رفض طلبه، ومثال ذلك: (لا أعتقد أن لديك وقتاً غداً لحضور الأمسية الثقافية التي سيقمها المعهد، ولكن حاول أن تحضر)، كما يمكن للمتكلم أن يستخدم بعض الكلمات التي يمتزج فيها الشك بالتشاؤم، ومثال ذلك قول أحدهم: (أحسب أنك مشغول اليوم، ولن أستاذ إن لم تستطع المجيء إلى منزلي مساءً).

- اللجوء إلى (تقليل التهديد Minimize Threat)، يبرز تقليل حجم التهديد وأثره في جعل قيم المسافة الاجتماعية بين الطرفين D، وسلطة المتكلم على الآخر P، ومنزلة العمل المهدد للوجه في ثقافة معينة R قيمة صريحة مع مراعاة تقليل حجم الفرض والتهديد الذي يقع على عاتق المتلقي، ويتمثل تقليل التهديد في استخدام كلمات ملطفة تقلل من حجم التهديد، مثل: (بعض، قليل، بضع، فقط)، ومثال ذلك قول إحداهن لوالدتها: (والدتي غاليتي، أريد أن أستعير مفاتيح سيارتك لنصف ساعة فقط). كما يمكن للمتكلم أن يلجأ إلى طريقة أخرى، وهي التقليل من فرض نفسه على متلقيه، ويمكن إنجاز ذلك عبر تحويل الفروض والأوامر والطلبات إلى مجرد معلومات ومعارف يريد المتكلم إدراكها عن المتلقي، فعوضاً عن قول الزوج لزوجته: (أريدك أن تصنعي لي كعكة البرتقال اللذيذة)، فإنه يقول: (أريد أن أعرف فقط إن كان بإمكانك أن تصنعي كعكة البرتقال اللذيذة؟).

وللمتكلم أن يقلل التهديد عبر ما يبديه من احترام وتقدير للمتلقي، ويمكنه إنجاز ذلك بطريقتين: الأولى: أن يقلل المتكلم من نفسه ويحقّر ذاته، والثانية: أن يعظم فيها المتكلم مخاطبه، وفي الحالتين يظهر لنا عنصر المسافة الاجتماعية P تصوراً مباشراً يشير إلى أن المتلقي يتمتع بمكانة اجتماعية تفوق مكانة المتكلم، مما يفرض على المتكلم أن يوظف عبارات تعبر عن الاحترام والتوقير والتعظيم لمتلقيه، ومثال ذلك: (معالي الوزير، سعادة الأستاذ، سيدتي الموقرة، حضرة الدكتور...)، ولهذا فإن ظاهرة الاحترام تعدّ من أبرز الظواهر وضوحاً وتجلياً في التبادل القولي، وهي جزء من أجزاء العوامل الاجتماعية المؤثرة في بنية اللغة؛ لأنها تشير إلى الحالة الاجتماعية النسبية بين الأطراف أو الأشخاص المشاركين في الحدث التواصلي.

4- الاستراتيجية الرابعة وقوامها (الحفاظ على حرمة المتلقي وخصوصيته)، وتحقق بطريقتين:

1-4 الأولى هي التبرير المباشر للانتهاك، فيستخدم المتكلم استراتيجية الاعتذار؛ لتلطيف العمل المهدد للوجه أو لتعويض المتلقي عما أحدثه العمل من انتهاكات وتجاوزات تعدت حدوده وخصوصياته، ويمكن للمتكلم أن يؤدي هذه الاستراتيجية بأربع وسائل:

أولاًها: (الاعتراف بالانتهاك)، فيعترف المتكلم بكل بساطة عن انتهاكه لخصوصياته متلقيه، فيقول له: (أعلم أنك مشغول اليوم، ولكن سيارتي لا تعمل وأحتاج مساعدتك في إصلاحها)، فالمتكلم في هذا المثال يدرك انشغال صاحبه، ويعترف له بذلك إلا أن حاجته إلى المساعدة دفعته إلى التصريح بالانتهاك، وقد يلجأ المتكلم إلى إذلال ذاته، والاستنقاص من قيمتها وجلالة قدرها أمام متلقيه، فيقول الابن لوالده: (أنا غبي جداً؛ لأنني لم أتبع نصائحك).

ثانيتهما: **(إظهار الحرج والتّردّد)**، يحاول المتكلّم التّأثير على المتلقّي عبر ما يبيديه له من حرج وتّردّد عند إنجاز العمل المهدّد للوجه، ومثال ذلك ما تقوله الصّديقة لصديقتها: (لا أرغب في التّطفل على خصوصياتك، ولكن ما سبب فصلك من المدرسة؟)، وغيرها من الأمثلة التي يستخدمها المتكلّم للدلالة على تردده، فهو عادة ما يلجأ إلى تضمين أقواله بالعبارات التالية: (عادة لا أسألك، لا أريد، أكره أن، أشعر بالحرج الشديد من الاعتراف، أتردد أن أضايقك)، أو قد يتخذ المتكلّم الاستدراك بـ(لكن) على سبيل المثال كوسيلة تمكّنه من نقض ما ذكره سابقاً.

ثالثتها: **(قدّم أسباباً قويّة ومقنعة)**، يُظهر المتكلّم اقتناعه بالأسباب التي تدفعه إلى إنجاز العمل المهدّد للوجه ممّا يدفع المتلقّي إلى قبول العمل نتيجة لشعوره بعدم وجود فرض أو تعدّد مباشر على وجهه، ومن الأمثلة على ذلك: (لا يمكنني أن أفكر بقدرة شخص ما على القيام بهذا العمل سواك)، و(لقد تهت وتحيرت في أمري وما لي سواك بعد الله).

أما الوسيلة الرّابعة والأخيرة: **(تكلف عذراً أو اطلب عفواً)**، يحاول المتكلّم أن يخلق الأعذار، أو يتعلّل بالموانع، أو يطلب العفو، أو يعبر عن اعتذاره جراء إنجاز العمل مهّد للوجه، وأمثلة ذلك عديدة، منها: (المعذرة، لكن..)، (أنا آسف على إزعاجك...)، (أرجو منك أن تسامحني على...)، وغيرها.

2-4 وتتمثل الطريقة الثّانية للحفاظ على حرمة المتلقّي وخصوصيته في رسم صورة تبعد كلا الطرفين عن فعل التّهديد، ويمكن أن تتحقّق بطرائق ثلاث:

أولاًها: أن يلجأ المتكلّم في حديثه إلى الخطاب غير المشخّص مما يعيق المتلقّي عن إدراك الفاعل المعني والمقصود بإنجاز الفعل، ويتمثّل ذلك عندما لا يفصح المتكلّم عن نفسه بشكل علني في الخطاب فيوظف ضمير المتكلّم (أنا)، ويتّعد عن الإشارة إلى المتلقّي المقصود بالخطاب بضمير المخاطب (أنت) في الآن ذاته، فهو حديث لا ينحصر في حدوده على متكلّم أو متلق معين، بل هو حديث قائم بينهما، ومن أمثلة ذلك قولنا: (علينا أن نفعل هذا الأمر)، و(يحتاج الأمر إلى تدخل عاجل)، و(من الضرورة المساهمة في دفع عجلة التنمية). وقد يوظّف المتكلّم صيغة الفعل المبني للمجهول، فيكون حذف الفاعل هنا وسيلة لتجنب الإشارة إلى الأشخاص المشاركين في العمل المهدّد للوجه، ومثال ذلك: (نقدّر مساعدتك)، (يتوقّع لطفك)، (يُستحال ألا يُنجز العمل).

- يمكن للمتكلّم أن ينأى عن استخدام ضمائر المتكلّم والمخاطب ليعبّر بكلمات أخرى عن وقوع الفعل على فاعل بشكل عام ومن دون تعيين أو تخصيص، ومثال ذلك قولنا: (لا ينبغي للمرء أن يخالف القانون)، عوضًا عن (لا ينبغي لك أن تخالف القانون).

- يستطيع المتكلّم أن يجمع ذاته بالآخر معبرًا عنهما بضمير (نحن)، فيقول: (علينا أن نساهم في رفعة الوطن)، و(شكرًا على تعاونكم معنا يا أستاذ)، ومتى أشير بالضمير (نحن) إلى متلق واحد، فيفهم أن المتكلّم يقصد المحافظة على المسافة الاجتماعية بينه وبين متلقيه D، أو أنه يحترم عامل السلطة والمكانة العالية التي يتحلّى بها المتلقّي P، وعادة ما يلطف المتكلّم طلبه عندما يبتعد عن ضمير المخاطب (أنت) لما يحمله الضمير من فظاظة أو لكونها كلمة ملفتة للانتباه، فبدلًا من أن نقول: (أنت ساعدني على حمل أمتعتي)، أو (يا صاحب القبعة الزرقاء ساعدني)، يمكننا أن نقول: (المعذرة سيدي، هل يمكنك أن تساعدني على حمل أمتعتي؟)، أو (من لطفك يا سيد، ساعدني على حمل الأمتعة).

ثانيتهما: جعل العمل المهدّد للوجه في صورة قاعدة عامة، تظهر رغبة المتكلّم في التّواصل مع المتلقّي من دون أن يسيء إليه أو يتدخّل في خصوصياته، ولكن الظروف هي التي تجبره على القيام بها، ومن الأمثلة على ذلك بعض القواعد الاجتماعية العامة، أو قواعد التنظيم والالتزام التي توجّه إلى الطرف الآخر بصورة ادّعاءات لا يفرضها المتكلّم عليه، وإنما ينبهه على وجودها فقط، ومن الصّيع المستخدمة: (لا ندخن هنا)، (يمنع جلوس الرّجال في هذه الناحية)، (هذه منطقة محظورة).

ثالثتها: التّسمية **Nominalize**، يبتعد المتكلّم في هذه الاستراتيجية عن توظيف الأفعال إلى الأسماء والمصادر سعيًا منه إلى الارتقاء بمقاطع الجملة وجعلها أكثر جدية ورسمية، ولتوضيح ذلك نقارن بين هذين المثالين: (تقديمك للامتحان بهذه الهيئة، أمر سيء جدًّا)، (التّقدّم لأداء الامتحان بهذه الهيئة، أمر سيء جدًّا)، ففي المثال الأول تظهر رغبة المتكلّم في توجيه الفعل المهدّد للوجه بصورة مباشرة إلى المتلقّي، وأمّا المثال الآخر فإن المتكلّم يبتعد عن التّوجيه المباشر مستخدمًا مصدر الفعل (التّقدّم).

5- الاستراتيجية الخامسة وقوامها (تعويض رغبات المتلقي الأخرى) وتتجلى بتعبير المتكلم عن لطفه بإجراء عدد من التعويضات الجزئية عن الأعمال المهددة للوجه والتي عرض فيها وجهه متلقيه للانتهاك، وتتفرع من هذه الاستراتيجية استراتيجيتان يوظفهما المتكلم سعياً منه في الإفصاح عن رغباته بكل ثقة واطمئنان.

5-1 تقوم الاستراتيجية الأولى على (المصارحة بالاحترام والعرفان)، فيحاول المتكلم إبداء شكره، وتقديره للمتلقي بشكل علني وصريح، فيقول: (أكون لك شاكرًا إن استطعت تأجيل موعد الامتحان إلى يوم غد)، و(سأكون ممتن لك طوال حياتي إذا تمكنت من مساعدتي في التحضير لهذا الامتحان).

5-2 في حين تقوم الاستراتيجية الثانية على (تخليص المتلقي من الديون التي قد تقع على عاتقه، جراء قيام المتكلم بعمل مهدد لوجهه)، ومثال ذلك: (لن أتمكن من حضور حفلة زفافك، ولكن لا تقلقي، سأرسل لك هدية الزفاف). كما يمكن للمتلقي أن يلجأ إلى (استراتيجية تلطيف العمل اللغوي المهدد للوجه)، للتقليل من حدة العمل، والتّهوين من ثقل الطلب، ومن الأمثلة على ذلك استخدام بعض العبارات مثل: (بعد إذنك، من فضلك، إن سمحت)، فالمتكلم هنا لا يهون من خطب العباء الملقى على كاهل السامع فحسب، وإنما يدفع السامع إلى الامتنال للطلب المراد منه تحقيقه.

-الاستراتيجيات المراوغة وانتهاك المعاني الغرائسية

قد يبلغ العمل المهدّد للوجه شأؤًا كبيرًا فيلجأ المتكلّم إلى إنجاز العمل المهدّد للوجه بصورة خفية Off-the-Record Strategies نتيجة إدراكه لدرجة خطورة إنجاز العمل المهدّد على نحو صريح، ويمكنه أن يبدي رأيه ويفصح عن مقصده بطريقتين: طريقة يعبر فيها المتكلّم عن مقصده بصورة عامة من دون تخصيص وتحديد، ويتمثّل ذلك عندما يرغب أحدهم في إغلاق نوافذ الغرفة فيقول: (إغلاق النوافذ في الجو البارد أمر يقي من الإصابة بنزلات البرد)، فضلًا عن إظهار رغبته الصريحة والمباشرة بغلق النوافذ.

وأما الطريقة الثانية، فهي قائمة على المراوغة وتتمثّل في ابتعاد المتكلّم عن مقصده إلى مقاصد أخرى، تاركًا موضوع التأويل للمتلقّي، سالكًا مسلك الإشارة والتلميح والكناية والإيهام، ومثال ذلك: (لو كان محمد في الغرفة لأغلق النوافذ من شدة البرد). ومن المفيد أن نشير إلى أنّ الفعل التّواصليّ غير مباشر عادة ما يتم توظيفه عندما لا تكون النية في الاتصال والرغبة في التفاعل موجودتان، فيلجأ المتكلّم إلى التعبير عن قصده بطريقة خفية تمكّن المتلقّي من تفسير تلك العلامات والإشارات التي يتضمنها قوله، وكأنّه في منأى بعيد عنها.

هذا وقد تتأثر درجة فهم الآخر للمقصود من الخطاب بعوامل عديدة، منها: ضعف المعرفة المتبادلة بين الطرفين، فمن الصّعوبة بمكان معرفة ما يفكر به المنجز وما يضمّره من النّيات، إضافة إلى عدم قابلية استرداد القرائن الحركية التي تصدر عن المتكلّم وتوحي بأمر قد يعنيه المتكلّم، أو لا يعنيه ولا يقصده بتاتًا. كما يمكن أن تؤثر في فهم المقصود مجموعة من القرائن المشتقة من طريقة بناء المحادثة، وتسلسل أفعالها الإنجازية بالاعتماد على السياق. ويذكر المؤلفان B & W طريقة لاختبار وجود مقاصد خفية وغير مباشرة في السياق، وهي طرح هذا التساؤل: هل هناك استجابة للعمل المهدّد للوجه ممكن تطبيقها على السياق التّواصليّ الذي تم فيه الخطاب¹؟

¹ Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p212.

تقسّم الاستراتيجيات الغامضة والمراوغة قسمين، يقوم القسم الأول على الاستدلال التّداولي، فيسعى المتلقّي إلى استدعاء المعاني المتضمّنة في القول؛ ليدرك المعنى المقصود أو المعنى القريب منه، مستحضراً في ذلك المعنى الغريسيّ للتّواصل الفعّال الذي تمّ انتهاكه، وموجّهاً إلى نفسه تساؤلاً مؤداه: ما هي الأسباب التي دفعت المتكلّم إلى استخدام هذا الأسلوب دون غيره؟، وفي الغالب ما يجعل فهمنا واضحاً وتفسيرنا دقيقاً هي المعاني المتضمّنة في القول والتي يتم استنتاجها عند العودة إلى السياق، ويتفرّع من هذا القسم أربع استخدامات ينتهك فيها المتكلّم القواعد الغريسيّة، وهي كالآتي:

أولاً: الاستخدام الذي ينتهك قاعدة الملاءمة، يسعى المتكلّم فيه إلى قول شيء غير ذي صلة صراحة بقصده، فهو يدعو المتلقّي إلى البحث والتحليل ليتمكّن من فهم صلة ما قاله بما يريده حقيقة، ومن أبرز الاستراتيجيات التي تنتهك فيها قاعدة الملاءمة هي استراتيجية التلميح، فيبين المتكلّم بعض الدّوافع التي تشير إلى رغبته في فعل أمر معين، أو الظروف التي أوجبت عليه طلب ذلك الفعل، أو الأدلة التي تؤكد ارتباط التلميح بالفعل بناء على المعرفة المتبادلة بين الطرفين، مع سعيه الحثيث إلى تبسيطه، وتصغيره، وتحفيزه عند امتثاله للطلب، ومن أمثلة ذلك على الترتيب: (الجو حار أحتاج إلى عصير بارد)، أو (لم أجد عصيراً بارداً في الثلاجة فالجو حار لا يطاق)، أو (كأن في هذا الجو الحار ينقصنا شيء ما؟).

ويمكن للمتكلّم أن يجعل كلامه اقتضائياً¹ Presuppose مبهمًا ومسكوتًا عنه، فيكون ظاهر المقول مراعيًا لقاعدة الملاءمة وثيق الصلة بالسياق، وفي الآن ذاته يكون منتهكًا لقاعدة الملاءمة ومبدأ الصلة بالنظر إلى الافتراضات السابقة التي بني عليها هذا المقول، ومما يوضح ذلك قول الأخت الكبرى لأختها الصّغرى: (لقد غسلت الأواني مرّة أخرى)، على افتراض أن المتفق عليه بين الأختين أن يكون دور الصّغرى في هذا الأسبوع، فإن عبارة (مرة أخرى) تستدعي من المتلقّي استحضار الموقف والاتفاق الذي بني عليه هذا المقول.

¹ إن من أهم ما يختص به العمل الاقتضائي هو تناسبه مع حقائق يفترض منجز القول علم المتلقّي ومعرفته بها، كأن تكون بديهيات مشتركة أو وقائع خاصة ترجع لمعارف سابقة تمكنه من بناء معان جديدة لمنطوقاته. ينظر: شارودو باتريك، دومينيك منغو، معجم تحليل الخطاب، بالاشتراك مع عدد من المؤلفين، ص 455.

ثانيًا: الاستخدام الذي ينتهك قاعدة الكم، يحاول المتلقي أن يقدم الاستنتاجات معتمدًا على علامات تتعلق بحجم المقول كمًا وعددًا والتي توحى إليه بقصد المتكلم، ومن بين هذه الطرق:

- أن يعتمد المتكلم إلى التقليل من الوظيفة التعبيرية في كلامه، فلا يفصح عن كافة المعلومات التي يحتاجها المتلقي، وتتعدد أسباب اللجوء إلى التقليل الكمي في الكلام بين المتخاطبين، فقد يكون ذلك نتيجة للضغوط الاجتماعية، أو الاستهانة بالآخرين وتحقيرًا لهم. ومن الأمثلة على ذلك سؤال الزميل لزميله في العمل عن مدى اجتهاد الموظف الجديد، فيقول له: (إنه موظف لا يجلس)، وهنا يحاول المتكلم أن يبتعد عن الوصف الحقيقي للموظف بأنه شخص كسول يطيل الجلوس على مكتبه من دون إنجاز عملي، فيذكر صفة مغايرة عن الصفات التي يتحلّى بها ذلك الموظف، حتى يستنتج زميله المقصود من عبارة (لا يجلس).

- يلجأ المتكلم إلى الاستطراد والمبالغة في وصف طلباته ورغباته للآخر بصورة تضاعف من حجمها وأهميتها سعيًا منه في إقناعه متلقيه، ومن الأمثلة على ذلك: رغبة الشاب في السفر إلى أحد الدول فيقول لوالده: (الأندلس من أفضل دول العالم مناخًا في هذا الوقت، وأجملها طبيعة وخضرة، إنها من عجائب الدنيا السبع)، أو ما يقال للموظف المتأخر عن حضور الاجتماع: (في الاجتماع ألف شخص)، أو ما يقال لمن لا يجيب عن الاتصالات: (هاتفك مئات المرات).

- استعمال المتكلم لألفاظ وعبارات تعد حشواً¹ Tautology، وتبرز في صورة تكرار معنى الألفاظ والتي تدفع بدورها المتلقي إلى الكشف عن أسرار تلك المعاني الزائدة، ومن الأمثلة على ذلك (الحرب حرب) فـالمتكلم يستخدم التكرار كوسيلة تعبر عن رفضه التأم لأي طلب يدعو إلى التهاون في مهاجمة العدو.

ثالثًا: الاستخدام الذي ينتهك قاعدة الكيف، وفحواه (قل الحقيقة، وكن مخلصًا)، ويتجلى هذا الاستخدام في طرق متعددة، منها:

- التناقضات والمقابلات والمفارقات التي يوظفها المتكلم في خطابه لمتلقيه في صورة تستدعي منه البحث عن نقطة الصلة بينها وبين ما يعنيه، ومن نماذج هذا الاستعمال، ما يستخدمه المتكلم للإجابة عن السؤال التالي: (هل أنت منزوع من عدم اعتماد التقرير حتى الآن؟)،

¹ يترجم حاتم عبيد مصطلح Tautology على أنه: "تحصيل الحاصل"، وهو يعني أن المتلقي يسعى إلى استنباط معلومة مفيدة وجديدة من ملفوظ يعدّ من لغو الكلام، ينظر: عبيد حاتم، نظرية التأديب في اللسانيات التداولية، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 43، يوليو-سبتمبر 2014م، ص143.

فيقول: (بصراحة أنا منزعج وغير منزعج)، وتنقل مثل هذه الردود إشارات يُستدل بها على وجود استياء أو نقد مضمّر في نفسه.

- يمكن للمتكلّم أن يصرّح بخلاف ما يعنيه، مستعملًا استراتيجية كن ساخرًا Be Irony، فيتكلّف المتلقّي الابتسامة على ما قيل له، أو يجيب المتكلّم عن أمر ما بصورة توحى إلى المتلقّي بأنّ المعنى على خلاف ما صرّح به، ومن صور ذلك قولنا: (جمال عبقرى حقًا) بعد أن كرر عليه والده الطّلب عشرين مرة، و(الجو ربيع اليوم) بعد رؤية ساعي البريد وهو في حالة رثّة نتيجة فيضان عارم في المدينة. وقد يوظّف المتكلّم التّصريح بصورة مكبوتة وخفية، كأن يقول: (أعتقد أنّ جمال قد يحمل في جمجمته عقلًا)، و(هذه ليست بالضّبط فكرتي التي أردت إيصالها لك عن العملات الرقمية).

- توظيف الاستعارة¹ Use Metaphors ذات المقاصد الخفية المتضمنة في قوله، فقد يستخدم الأفراد بعض الاستعارات المباشرة والمتداولة بينهم، فيقال للفتاة الجميلة: (مريم قمر)، وللفتى النّحيف: (محمد مسواك)، ولكن ما يريده الباحثان B & W هي الاستعارة غير المباشرة والتيّ تحمل العديد من المعاني الضّمنيّة بناء على السّياق، ومن ذلك قولنا: (سارة كالإوزة)، فلا رابط حقيقي بين سارة والإوزة، ولكن يمكن أن تفيد هذه الاستعارة معنى البياض الذي خلقت به سارة، أو الكسل وقلة الحركة، أو بيان عشقها للسّباحة في البرك.

- استخدام المجاز كوسيلة استبدال مجازيّ Metaphorical Substitution، فيعتمد المتكلّم فيها إلى تغيير الألقاب النّابية، والعبارات غير اللاتئة أخلاقيًا أو اجتماعيًا بأخرى ملطفة ومتقبّلة، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها (عامل النظافة بدلًا من عامل القمامة)، و(مدبرة شؤون المنزل بدلًا من الخادمة)، ولكن تنبع الإساءة عندما يُستخدم الاستبدال المجازي بشكل عكسي، ولا سيما عندما يلقب الإنسان بأوصاف حيوانيّة لا تليق به.

¹ يشير ابن سينا في شرحه لأفكار أرسطو إلى أن توظيف الاستعارة، واللّجوء إلى تبديل الألفاظ والعبارات يضفي رونقًا في الخطاب لما يحدثه من استغراب وتعجب، وما يتبعه من هيبة واستعظام وروعة، منوهاً بأن الاستعارة ليست الأصل؛ لأنها تروّج الشيء وتحاول أن تقنع من يندفع وينغش بالتخييل، هذا وقد وضع شروطاً للاستعارة فذكر ألا تقع بلفظ مشهور جدًا ولا غريب، بل لذيق، ويعني بالذيق المستولي المذكور، فلا تكون الحروف مستشّعة في انفرادها أو في تركيبها، كما ينبغي استعمال ما يليق بالألفاظ الموضوعة وهي المطابقة، والمتغيرة المستعارة، وأن يقايس بين اللفظ وضده ليعلم اختصاص معناه، وأن يأخذ الاستعارة من جنس مناسب لجنسها، وأن يحاكي معناها، فلا يكون بعيدًا منه، ولا خارجًا عنه، ومن الأمثلة على ذلك القول لمن سرق المال من والدته تخفيًا وتلطّفًا بأنه أخذ مالها، بينما يقال لسارق المال من أحد البنوك بأنه لص منتهب للمال. ينظر: ابن سينا، الشّفاء، ج4، ص 203-207.

- انعدام شرط الصدق عند المتكلم فيكون كلامه ممزوجاً بالسخرية والتقليل من شأن الآخر، ومن أمثلة ذلك ما يوظفه المتكلم من أسئلة بلاغية لا يريد منها الحصول على إجابة، ومن الأمثلة على ذلك (كيف لي أن أعرف المواقيت من دون لافتة توضّح ذلك؟)، وعند النقد فيقال: (كم مرة عليّ أن أجيب عن الأسئلة نفسها؟)، وكذلك ما تقوله الفتاة لصديقتها المعجبة بألوان ملابسها غير المتناسقة: (ماذا عساي أن أقول؟).

رابعاً: الاستخدام الذي ينتهك قاعدة الصيغة، ويتضمّن مختلف التفاعلات القولية التي يشوبها شيء من الغموض Vague or Ambiguous، فيلجأ المتكلم إلى اختيار الأسلوب غير المباشر للوصول إلى غايته ومقاصده، ومن الصعوبة تحديد مقصده بصورة دقيقة رغم وجود قرائن التي تساعد على فهمها، فعندما تذكر إحداهن صديقتها فتقول: (مريم فتاة رشيقة وذكية)، فإمّا أن تقصد مجاملة صديقتها مريم، وإمّا أن تقصد الإساءة إليها وإهانتها أمام صديقاتها بإظهار خلاف ما تتصف به مريم من السمن والغباء.

وللمتكلم أن يستعمل الغموض في أعماله اللغوية كوسيلة تعينه على إنجاز العمل المهدّد للوجه بطرق خفية، ويتمثّل ذلك عندما يدّعي المتكلم أن الشكوك تساوره والظنون تغلب عليه اتجاه الموضوع الذي سينتبهك من أجله وجه الآخر، فيمكن أن ينجز المتكلم قوله بنقد تصرفات الآخر على سبيل المثال فيقول: (يبدو أن شخصاً ما تطّّل على شؤون غيره)، أو (ربما ارتكب أحدهم فعلاً يخالف القانون).

وقد يجعل المتكلم حديثه حديثاً واسعاً موعلاً في العموميات Over-Generalize تاركاً فهم مقصده للمتلقّي، ويتّضح ذلك عندما يلجأ المتكلم إلى تضمين الأمثال، أو القواعد العامة المتعارف عليها كوسيلة خفية لإنجاز عمله عوضاً عن استخدام الأسلوب المباشر، ومثال ذلك عندما يجيب أحدهم السائل عن جاره فيقول: "ما عنده خل ولا خمر"¹ ويعني أن الخير لا يرجى من عنده، وكذلك عندما يغلب أحدهم خصمه في بداية مناظرته فيقول له: (من يضحك أخيراً يضحك طويلاً)، أو ما تقوله الأم لبناتها: (الفتيات الكبار يساعدن أمهاتهن في أعمال المنزل). ويتبيّن لنا مما سبق أنّ تضمين الأمثال أو القواعد العامة يخلق جوّاً من الغموض ممّا يمنح المتلقّي الخيار في الإقرار بفهمه لتلك المقاصد والرغبات من عدمها.

¹ البغدادي، القاسم بن سلام، الأمثال، تحقيق: عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، ط1، 1980م، ج1، ص 306.

ويمكن للمتكلّم أن يكون غامضًا في مقاصده عندما يبتعد عن تعيين الشّخص الذي يراود منه تحقيق العمل المطلوب على وجه الخصوص، فالمتكلّم هنا يزيح المتلقّي عن إنجاز العمل المهدّد للوجه بصورة خفيّة وغير مباشرة، ويتّضح ذلك عندما (يحتاج أحد الموظفين إلى دفتر الملاحظات، ويكون ذلك الدفتر على مقربة من المدير، فيبتعد عن طلبه بشكل مباشر منه، ويتوجه إلى طلبه من أي زميل آخر، وإن لم يكن على مقربة كبيرة منه)، وللمدير في هذه الحال الخيار في فهم المقصود والعمل على مناولة الموظف الدفتر الذي يريده، أو تجاهل الأمر وتمريه.

كما يعتبر اللّجوء إلى الحذف والإضمار وسيلة فاعلة لإخفاء المقاصد في السّياق، فينجز المتكلّم جزءًا من العمل المهدّد للوجه تاركًا إكمال تفسير الجزء المتضمّن منه على المتلقّي بناء على ما يوحيه إليه قوله من إشارات وعلامات تفهم من السّياق، ومن الأمثلة على ذلك تعبير أحدهم: (إني أعاني من التعب والإعياء، لم أستطع الذهاب إلى العمل، إن الصّداق ملازمي منذ الصّباح)، فالمتكلّم هنا لا يباشر في طلبه بل يذكر الأسباب التي تسوّغ له إنجاز العمل المهدّد للوجه، وتدفع الآخر إلى التّعاون والتّعاطف معه، فينجح في تحقيق مراده المتمثّل في الحصول على إجازة مرضيّة من الطّبيب بصورة خفيّة وغير مباشرة. ولقد آل بنا استعراض الاستراتيجيّات التّلقّفيّة بجانبها الإيجابيّ والسّلبيّ إلى وجود تداخل وغموض بين الاستراتيجيّات، ولعلّ هذا الدّافع الذي يسوّغ لنا اقتراح بعض السّبل المعينة على الارتقاء بنموذج براون وليفنسون.

سبل الارتقاء بالنموذج المقدم

اعتبرت نظرية التلطف لبراون ولفنسن أنموذجاً خصباً ألهمت العديد من الدراسات اللاحقة، فنوقشت نقاش تعديل ونقاش تطوير، ولعل أبرز ما نوقشت به النظرية:

1- نقد قاعدة النظرية المبنية على التصور السلبي:

إن قيام النظرية على تصور يعرف التلطف بوصفه بذل الجهد في الابتعاد عن مصادر التهديد، واعتبار سائر التبادلات القولية أعمالاً مهددة للوجه يدفعنا إلى التساؤل عن مدى صحة إطلاق هذا التصور وتعميمه، وهل يمكن للتفاعلات الاجتماعية أن تسلب روح الألفة، وعناصر متعة اللقاء؟، والحال أن التفاعلات في الحياة الاجتماعية لا تخلو من أعمال تحترم الطرف الآخر وتقدره، ولذلك جاءت اللسانية الفرنسية أوركينيوي Catherine Kerbrat-Orecchioni بأعمال الملاحظة أو الأعمال التثمينية (FFA) Face Flattering Acts¹ والتي اعتبرت معادلاً إيجابياً للأعمال المهددة للوجه²، وعليه فإننا نجد في مبطلات الأعمال المهددة للوجه Anti-FTA مجال بحث مقنع، إذ توجد أعمال تثمينية كالتهنئة والشكر والثناء، وعلى هذا الأساس اعتُرض على الجدول الخماسي (الاستراتيجيات التلطفية الخمس) نتيجة اعتبار التلطف الإيجابي إنجازاً مفتوحاً للأعمال المهددة للوجه.

2- نقد التعريف:

لم يقدم الباحثان تعريفاً واضحاً دقيقاً للنظرية، فتنزلت في إطار يكتنفه الغموض، مما أوقع القارئ في إشكالية تقارب المفهوم المرتكز لديه مع المفهوم الذي قصده الباحثان، مما ترتب عليه نقص كبير في تأسيس مفهوم التلطف، فكيف يمكن بناء نظرية على مفهوم لم يتم تعريفه صراحة من قبل المؤلفين؟، فمن الصعب إن لم يكن من المستحيل، بناء نظرية شاملة عن التلطف.

¹ Orecchioni Kerbrat, La notion d'interaction en linguistique: origine, apports, bilan. Langue française 117: 51-67. DOI: 10.3406/lfr.1998.6241.

² شارودو باتريك، دومينيك منغو، بالاشتراك مع عدد من المؤلفين، معجم تحليل الخطاب، ص 430.

3-إعادة التعريف:

يمكن إعادة تعريف مفهوم (الوجه الإيجابي والوجه السلبي) واعتبار التلطف السلبي ذا بعد غيابي de type abstentionniste متمثل في اجتناب FTA، وفي أحسن الحالات تلافي الأعمال المهددة للوجه بالتراجع عنها، وتداركها إن وقعت، في حين يمكن اعتبار التلطف الإيجابي متمثلاً في الإقبال على FFA، وإنجاز الأعمال المثمنة للوجه، ومحاولة الالتزام بها أثناء التفاعل القولي.

4-مسألة تصنيف الأعمال الكلامية:

إنّ تصنيف بعض الأعمال الكلامية كأعمال مهددة للوجه مجال بحث ونظر، حيث إن أعمال الشكر والتّهنة والإطراء والاعتذار يصعب اعتبارها أعمالاً مهددة للوجه، وإذا صحّ ذلك، فهل هي أعمال مهددة للوجه السلبي أو الإيجابي؟، لنوضح هذه الإشكالية عندما نتأمل فعل الاعتذار Apology فإننا نجد أن B & L قد أدخلوا فعل الاعتذار ضمن استراتيجيات التلطف السلبي¹، في حين اعتبر ليتش Leech الاعتذار استراتيجية تلطف إيجابي²، وأما هولمز فقد رأت أن الاعتذارات تدخل ضمن استراتيجيات التلطف الإيجابي والسلبي³. ومن هنا تأتي ضرورة وصل التلطف بالسياق والمقام، ومراعاة ما جاء قبل الكلام وبعده، وتحديد الكلمات المنطوقة مكانياً ولغوياً، مع اعتبار الجانب الموازي للغة المتمثل في معرفة النغمة، والتّبر، وأنماط الأصوات في الكلام.

5-نقد تصنيف الاستراتيجيات:

إنّ تصنيف الاستراتيجيات التلطفية غامض واعتباطي، ومن الصعب بمكان تحديد العمل المنجز وتصنيفه على وجه من الدقة، كما أنّ سائر التصنيفات المقترحة تكاد أن تكون مرنة ومفتوحة نتيجة لعسر الفصل وعمق التداخل المتأّت من استعمال المصطلحين (سلبي وإيجابي)، علاوة على أنّ إدراج الأعمال القولية ضمن مستويات عدة أضعف من قوّة الاستراتيجية وتماسكها، ويمكن أن نتبين ذلك في مثال (الاعتراف بالحب): يمثل إنجاز هذا العمل القولي إلى حدّ ما تنميّاً Anti-FTA لوجه المعترف إليه لما فيه من إشعار له بأنه شخص محبوب، ولكنه في الآن نفسه يمثل

¹ Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, P131.

² Leech, Geoffrey, Principle of Pragmatics, Longman linguistics library, eleventh impression, 1997, P 115-133.

³ Holmes Janet, Sex Differences in Apologies: One Aspect of Communicative Competence, Victoria University of Wellington, Applied Linguistics, Oxford University Press 1989 Vol.10, No.2, p 194-211.

تهديدًا لوجه المحبّ FTA فالتّهديدات ثلاثيّة: أولها: تهديد لوجه المتكلّم السّلبّي الخاضع لسلطان الحبّ، وثانيها: تهديد لوجه المحبوب السّلبّي ذلك أنّ الحبّ اختراق لحرمة، ودخول في عالمه، ورغبة في تحوّل العلاقة الرسميّة بينهما إلى علاقة تكتنفها معاني الحب والألفة والمودة، وثالثها: ما يعترض وجه المتكلّم الإيجابي من تهديد نتيجة اعترافه بالحب، حيث إنّ الإفصاح عن عميق المشاعر يولّد لدى صاحبه شعور دفين بالضعف والمهانة أمام محبوبه، وذلك لعدم إدراكه ما إذا كان الآخر يبادلّه الشّعور ذاته أم سيرفضه.

وكذلك عندما ننظر في مثال (الهدايا)، فعلى الرغم مما يمثّله تقديم الهدية من تثمين لوجه المُهدي الإيجابي، وكشف عن ثرائه وكرمه، إلّا أنّه يعتبر تهديدًا لوجهه السّلبّي نتيجة ما يترتب عليه شراء هذه الهدية من تكاليف ماليّة تقلّ من حجم ممتلكاته الشّخصيّة. كما أنّها مزدوجة التأثير في المُهدى له، فقد تمثّل الهدية منفعة له واعترافًا بقدره واستحقاقه لتلك الهدية، ولكنها في الآن نفسه تمثّل تهديدًا لوجهه السّلبّي FTA، وذلك لأنّها توسّع من سلطة المُهدي، وتكلفه ردّ الجميل، أو تدفعه إلى التّنازل عن بعض حقوقه، وتوقعه في دائرة تفضّل الآخر عليه، فيعيش المُهدى له في حالة اضطراب وضغط كبير إلى أن يتحرّر من ذلك الفضل أو يهدي بدوره هدية أثمن من التي قدّمت إليه.

6- اختلاف معايير التّلطف اللّغويّ في المجتمع الواحد

توجد اختلافات بيّنة في معايير التّلطف اللّغويّ داخل المجتمع الواحد، ففي المملكة المتحدة، تختلف معايير التّلطف بين الشمال والجنوب، وكذلك بين الطبقات العاملة والطبقات الوسطى، الأمر الذي يدفعهم إلى تفسير بعض الأعمال على أنها أعمال مهذّدة للوجه FTA في مقابل الفئة الأخرى التي لا ترى في إنجازها شيئًا يدعو إلى التّهديد.

7- ادّعاء العالمية أو الكونيّة:

بدا التّحيز الغربيّ نحو النّمودج النّقافيّ الأنجلو سكسونيّ المهتم بالفلسفة العقلائيّة للفردانيّة واضحًا عندما تمثّلت نظريّة B & L في صورة أفراد يسعى كلّ منهم إلى إشباع حقوقهم الفرديّة، وتحسين صورتهم الذاتيّة أمام الآخرين، وإنّ قيام النّظريّة على لغات ثلاث (الإنجليزيّة، والتّزلتال، والتّاميل) أمر غير كافٍ للمطالبة بالعالميّة، إذ تشير عديد الدّراسات إلى أنّ استخدام اللّغة المباشرة هو استخدام مهذب بشكل مناسب، وأنّ النّصريح سمة لغويّة غير مسيئة في جوهرها في عديد اللّغات

(الفرنسيّة (Held 1989)، والصينيّة (Lee-Wong 1994)، والفارسيّة (Eslamirasekh 1993)، والإسبانيّة (Mir 1993)، والبولنديّة (Wierzbicka 1985)). كما أنّ للأحكام الشرعيّة، والمرجعيات الثقافيّة والفكريّة دورًا كبيرًا في التأثير على سلوك الأفراد في مختلف المجتمعات، ونتبيّن ذلك عندما يعتبر تقبيل الطّفل لرأس والده مهانة وذلاً في فرنسا، في حين أنّ المجتمع العربيّ يقدّره ويعتبره من أسمى معاني برّ الوالدين. ومما سبق، تتجلى لنا الحاجة الفعلية إلى إجراء المزيد من الأبحاث في مجال الدّراسات المقارنة بين الثقافات لمراعاة معايير التّلطف اللّغويّ قبل أن يتمّ طرح نموذج مقنع لعالميّة أفعال الكلام.

8-مزالق منهجيّة أخرى:

رغم ما قدّمه الباحثان من أسس نظريّة وقواعد تفصيليّة لتوضيح نظريّة التّلطف إلّا أنّهما وقعا في مزالق منهجيّة عديدة، منها:

- اختلاف حدّة الفعل المهدّد للوجه باختلاف الثقافات والمقامات، فإنّ (إصدار الأوامر) على سبيل المثال موصول بالعلاقة بين المتفاعلين، فقد يشكّل إزعاجاً وتعدياً على وجه المتلقّي عندما ينجزه شخص غير معروف بالنّسبة إليه، في حين فعل الأمر ذاته قد يكون مقبولا في حال صدوره من شخص يعرفه، وترابطهما علاقة منسجمة ومتناغمة.

- اقتصار النّظريّة على شواهد وأمثلة تطبيقية قصيرة ومعزولة عن سياقاتها، والتّخلي عن تحليل النّصوص الطّويلة وفقاً للسياق الذي تشكّلت فيه، والحال أنّ تحليل النّصوص المطوّلة يسهم في فهم نظريّة التّلطف بشكل أدق، علاوة على الأهمية التي يضيفها تحليل النّصوص من فهم عميق للاستخدام اللّغويّ المناسب دون غيره، مما يؤكّد خصوصيّة كلّ لغة وتميّزها عن غيرها.

- ادّعاء وجود علاقة خطيّة غير مبررة بين التّلطف والفعل الكلامي غير المباشر، فاعتبر الباحثان لجوء المتكلّم إلى توظيف الأفعال الكلاميّة غير مباشرة دلالة على الوعي بطرق التّلطف، والامتثال بقواعد النّظريّة، إلّا أنّ الأمر ليس كذلك في عمومها، فقد أشارت إحدى الباحثات إلى وجود اختلافات جوهريّة في قبول (فعل الأمر) بين الأفراد وفقاً لمرجعياتهم المعرفيّة وخلفياتهم الفكريّة، موضحة بأنّ الرّوسيّ قد يتقبّل تلقي أفعال الأمر من دون أن يعتبرها فرضاً أو إلزاماً يقيد حريته أو يتعدّى

على حقوقه الشخصية، في حين أن الفرد الذي تشكل في خلفية الأنجلو سكسونية لا يمكنه قبول ذلك¹.

- إهمال البحث في موضوع (غياب التلطف أو انعدامه) Impoliteness، وهو اتجاه بحثي أصبح اليوم يستقطب اهتمام الباحثين من زوايا متنوعة تدرس العنف اللفظي، والسلوك اللغوي غير الأخلاقي، ويقوم على مجموعة من التساؤلات المعرفية، لعل من أبرزها: (هل هناك أسباب دافعة إلى دراسة غياب التلطف؟، وعلام يقوم مفهوم غياب التلطف؟، وما الأسس التي تبنى عليها نظرية غياب التلطف؟)².

- اختزال مفهوم التلطف (الإيجابي والسلبي) على إنجاز الأعمال المهددة للوجه FTA، باعتباره الأصل الداعي إلى القيام بالأعمال التصحيحية أو الإجراءات التعويضية، دفع أركيوني إلى العمل على تعديل مفهوم التلطف الإيجابي، فجعلته ذا طبيعة خصبة ومنتجة (à caractère productif)، يتمثل في تامين الآخر، وذلك بإطرائه وتملقه أعمال الإطراء (FFA)، وأما مفهوم التلطف السلبي فقد جعلته قائما على طبيعة امتناعية- غيابية، تتمثل في عدم إنجاز الفعل المهدد، أو طبيعة استدرائية- تعويضية تسعى إلى التلطيف من حدته في حال وقوعه (politesse de nature abstentionniste ou à défaut compensatoire)³ كما أنجزت تحليلاً دقيقاً لمستويات السلوك اللفظي وغير اللفظي المتغير بتغير الثقافات، ووضعت تصنيفاً أو صنافاً تصل التغيير بسائر المستويات السلوكية اللفظية، والموازية للفظ، وغير اللفظية، ووزعت الأدوار في المحادثات، وبيّنت أنظمة الإرسال والتوجيه، وحددت العلاقة بين الدوات المتخاطبة، ولعل من أهم إضافاتها: (مضادات التهديدات Des Anti-Menaces)⁴. ولتوضيح هذه المضادات نورد الأمثلة التالية: شعور أحدهم بتردد منجز القول يدفعه إلى عرض خدماته عليه، أو المبادرة بتحقيق المطلوب قبل أن يقوم بالتصريح به (مضاد التهديد)، وكذلك الحال عندما يثني أحد المخاطبين على ذوق

¹ Ogiermann, E. Politeness and in-directness across cultures: A comparison of English, German, Polish and Russian requests. Journal of Politeness Research, 2009, 5(2), P:192.

² Culpeper, Jonathan Impoliteness: Questions and answers. In: Denis Jamet and Manuel Jobert (eds.) Aspects of Impoliteness. Newcastle: Cambridge Scholars Publishing, 2013, P: 2-15.

³ Kerbrat Orecchioni, La conversation. Paris : Seuil C. 1996, P54-58.

⁴ Kerbrat Orecchioni, Pragmática Sociocultural (Journal): (Im)politesse et gestion des faces dans deux types de situations communicatives: petits commerces et débats électoraux ,Vol 2, Issue 2, De Gruyter,2013, p296.

صاحبه، ويبيدي موافقته على اختياره (مضاد التّهديد) عندما يشعر بتردد صاحبه في اختيار اللّون الّذي يناسبه، كأن يقول له: (اختيارك موفّق، اللّون يبعث الحياة في النفس)، وكذلك عندما يوجّه أحدهم إلى الآخر نقدًا قاسيًا FTA، فإنّ دفاعه عن نفسه، وبيان وجهة نظره يعتبر (مضادًا للتّهديد) بدلًا من الاضطراب والارتباك والشك في قدراته الشخصيّة.

- خاتمة الفصل:

تبين لنا أنّ النّظريّة التي دعا إليها الباحثان B & L تظلّ هي الأكثر اتساقاً وانسجاماً وثراءً رغم الانتقادات التي وجهت إليها، من قبيل اقتصارها على تصوّر سلبي يركز على مصادر التهديد في التفاعلات القوليّة، وتصنيف غالبيّة الأفعال الكلاميّة على أنّها أفعال مهدّدة للوجه، (كالمدح، والهبة، والهدية، والثناء، والشكر)، ووجود اختلافات بينة في معايير التّلطف اللّغويّ داخل المجتمع الواحد، علاوة على ما شاب مفهوم النّظريّة والاستراتيجيّات التي قامت عليها من غموض وإلباس، وتحيّز غربي بدا واضحاً نحو الفلسفة العقلانيّة للفردانيّة عند ادّعاء عالميّة النّظريّة وكونيّتها، إضافة إلى الوقوع في مزالق منهجيّة عديدة إلّا أنّ هذه الانتقادات لا تقلّل من قيمة هذه النّظريّة وأهميّتها، فقد سارت على نهج علميّ يمكن المتلقّي من تفسير بعض الظواهر الاجتماعيّة بناء على البنى اللّغويّة.

ولعلّ تراثنا العربيّ الزّاهر بالإشارات التي تدعو إلى تحيّر الألفاظ، ومراعاة الآداب العامّة في الخطاب، دفعنا إلى وصل هذه النّظريّة الغربيّة بما يتضمّنه مفهوم التّلطف من معاني الرّفق واللين والكياسة، ولاعتباره الأفق الدّلاليّ الواسع الذي يتجلّى في الأقوال والسلوكيات والأفعال، ولقد أفضت بنا طبيعة الظروف الاجتماعيّة والنّفسيّة التي تتحكّم في منجز الخطاب إلى دراسة الأعمال المهدّدة للوجه، وعرض الاستراتيجيّات التي تمكّن المتكلّم من تجنّب التهديد أو التّخفيف من وطأته في حال وقوعه أو التّصريح به مع الوعي التّام بضرورة احترام الطّرف الآخر، وصيانة وجهه من كلّ ما يمكن أن يشكّل تهديداً عليه. كما سعينا إلى تأصيل النّظريّة في التّراث العربيّ من خلال الاستشهاد بالأمثال العربيّة لتوضيح بعض الاستراتيجيّات التي يتضمّنها سلّم التّلطف، ابتداءً من الاستراتيجية الأكثر تلطّفاً وتهذباً وهي استراتيجية الصّمت، تتبعها استراتيجيّات التّلميح، فاستراتيجيّات التّلطف السّلبّي، فاستراتيجيّات التّلطف الإيجابّي، وصولاً إلى الاستراتيجية التّصريحية.

وقد أظهر وقوفنا على استراتيجيّات التّلطف الإيجابّي والسّلبّي إلى إمكانيّة تصنيف غالبيّة الأنواع التي تشتمل عليها استراتيجيّة التّلطف الإيجابّي تحت مصطلح (التّقرب) والذي يتجلّى في سعي المتكلّم إلى وصل سلوكه الفعليّ المتمثّل في إظهار الاهتمام بالآخر والعناية به بما يُجزّه من أفعال لغويّة تؤكد ذلك للحصول على تأييده، وتحقيقاً لغايات المتكلّم ومقاصده الكامنة، في حين أنّ غالبيّة استراتيجيّات التّلطف السّلبّي يمكن تصنيفها تحت مصطلح (التّجنّب) الذي أشار إليه دوركهام ليكون فحوى الاستراتيجية المركزي قائماً على تجايف كلّ ما من شأنه التّحكّم في سلوك المتكلّم اللّغويّ أو تقييد حرية المتلقّي في التفاعل القوليّ.

ولا غرو أنّ وقوفنا على هذه النظرية دفعنا إلى الاستعانة بها في إضاءة المدونة، من دون أن يكون تحليلنا استدلالاً بالنص على صحة ما اشتملت عليه النظرية.

**الفصل الثاني: السّؤال المهدّد للوجه وطرائق اتقاء التهديد في
الليلة السادسة من الإمتاع والمؤانسة
(المفاضلة بين العرب والعجم أنموذجاً):**

1. سياق السّؤال المهدّد وعوامل تقييم الخطر (Wx)

2. المخاطرة بالوجوه وطرائق التّوحيديّ في الاتقاء

- تهديد الوزير لوجه التّوحيديّ.
- طرائق التّوحيديّ في اتقاء التهديد.
- الإقذاع في الحديث عن الجبهاني.

الفصل الثاني: السؤال المهدّد للوجه وطرائق اتقاء التهديد في الليلة السادسة من الإمتاع والمؤانسة (المفاضلة بين العرب والعجم أنموذجاً):

أُفتتحت الليلة السادسة من ليالي السّمر في مجلس الوزير أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان¹ بسؤال مورّط يوجّهه الوزير إلى أبي حيان التّوحّيديّ، يقول فيه: "أَتَقْضِلُ العرب على العجم أم العجم على العرب؟"². ولعلّ ما يشكّله السؤال من تهديد وإثارة هو الأمر الذي يدفعنا إلى النّظر في السؤال بالرجوع إلى سياق التّفاعل القوليّ Verbal Interaction³ الذي تشكّلت فيه أحداث هذه الليلة، وتحدّدت فيه العلاقة بين الطّرفين المتحاورين.

سياق السؤال المهدّد وعوامل تقييم الخطر (Wx)

يتحدّد مقام التّواصل في هذه المحاورّة في صيغ ثلاث تمثّل رموزاً لمتحوّلات التّواصل، وهي: "أنا، هنا، الآن"⁴، ينهض محور التّلفّظ، وهو (الأنا) على طرف المشاركين في الحدث التّواصلي، ويتنزل في هذه المحاورّة بين طرفين غير متكافئين في المكانة الاجتماعيّة، فأحدهما له سلطة سياسيّة ذات نفوذ، وهو الوزير الفارسيّ أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان، وزير صمام الدّولة البويهّيّ، وأمّا الآخر فهو أبو حيان التّوحّيديّ⁵ راوي أحداث الليلة، وهو الأديب

¹ أبو عبد الله العارض، الحسين بن أحمد بن سعدان، يرجح محققا الإمتاع أنّه وزير صمام الدولة البويهّيّ بناء على ما جاء في كتب التاريخ، ولعلّ ما يثبت ذلك ما ورد في شأنه في كتابي تجارب الأمم، والكامل، ينظر: التّوحّيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه أحمد أمين، وأحمد الزين، دار الذخائر، المكتبة العصرية، بيروت، ج1، 2004م، ص هـ، وينظر أيضاً: مسكويه، أحمد بن محمد، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: أبو القاسم إمامي، سروش، طهران، ج2، 2000 م، ج7، ص 107، وينظر أيضاً: ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1997م، ج7، ص 404.

² التّوحّيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 70.

³ يعرف التّفاعل القوليّ بأنّه شبكة من التّأثيرات المتبادلة التي يمارسها طرف على آخر أثناء التّبادل التواصلي القائم على أساس الكلام، ويخضع لإكراهات يحددها السياق ومقام التّواصل، ينظر: القاضي محمد، ومجموعة من المؤلّفين، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010م، ص 107.

⁴ البستاني، بشرى، ومجموعة من الباحثين، التداولية في البحث اللغوي والنقدي، مؤسسة السياب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، لندن، ط1، 2012م، ص 99.

⁵ علي بن محمد بن العباس البغدادي، الصوفي، نسب نفسه إلى التوحيد، له تصانيف في الأدب والفلسفة، قيل عنه في كتاب الخريدة والفريدة: أنّه كان كذاباً، كما نعت بقلّة الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان، إضافة إلى تعرضه لأمر جسام من القدر في الشريعة، وقد اختلف في وفاته فقيل توفي في حدود الثمانين والثلاث مائة أو ما بعد الثمانين. ينظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء،

والفيلسوف العربيّ الذي يسامر الوزير في مجلسه، مستعرضًا أفكاره ومبادئه في صورة مجموعة من المحاورات التي تدور بينه وبين الوزير في مختلف القضايا التي شغلت القرن الرابع الهجري. تتميز شخصية التّوحيديّ بغزارة العلم، والإدراك العميق لمختلف الخصائص الثقافيّة وتحولاتها، فهي على اتصال وثيق بالعصر الذي تنتمي إليه. ورغم ما كشفه تراث التّوحيديّ الأدبي، وأكدته الدّراسات التي أجريت في شأنه من معاناته النفسيّة والهامشيّة في الحياة، إلّا أنّه استطاع أن ينظر في تناقضات عصره¹، ويعبّر عنها بأسلوبه الخاص، فقد دوّن لنا في كتابه الإمتاع والمؤانسة أبرز ما جرى بينه وبين الوزير ابن سعدان بناءً على طلب صيغ على صورة استجواب² من صديقه أبو الوفاء المهندس، وهو محمد بن محمد بن يحيى البوّرجانيّ³ الذي أوصله إلى بلاط الوزير أبو عبد الله العارض (ابن سعدان).

ونتيجة لما يمثّله السّياق الخارجيّ من جملة الملابس والأحوال والظّروف القائمة في الإطار الزّمنيّ والمكانيّ لعملية التّخاطب، وما يصاحبها من معلومات واقعة بينهما تتجاوز حدود الحدث اللّغويّ⁴، فمن المفيد أن نقف على الإطار الزّمنيّ والمكانيّ الذي تشكلت فيه أحداث هذه اللّيلة التي جرت في مجلس الوزير (ابن سعدان)، وبالتّحديد في عصر الدّولة البهويّة⁵ في القرن الرابع

=دار الحديث، القاهرة، ط1، 2006م، ج12، ص 547-548. وينظر أيضًا: الصفدي، خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التّراث، بيروت، 2000م، ج22، ص 27-28.

¹ يقطين سعيد، المجلس، الكلام، الخطاب (مدخل إلى ليالي التّوحيديّ)، فصول مجلة النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج2، المجلد 14، العدد 4، 1996م، ص 193.

² يظهر أبو الوفاء رغبته في الطلب كحق شرعيّ يجبر فيه التّوحيديّ على الإفصاح عن رأيه، وبيان منطلقاته الفكرية، وهو في الوقت نفسه يشعر التّوحيديّ بالذنب نتيجة نكران المعروف المتمثّل في إيصاله إلى بلاط الوزير، وتأكيد تقصيره الشخصي في حقه والذي يستوجب منه الاعتذار عن ذلك. وهنا تظهر لنا استراتيجية إشعار الآخر بالضعف والنقص، مما سمح للمتكلّم أن يستخدم سلطته عليه، وأن يتحكم فيه، ويوجهه كيفما يشاء. ينظر: خصاونة سهيل محمد، وبنيان محمد علي، فن الاستجواب في مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، ع1، السنة 11، 2019م، ص174.

³ محمد بن محمد بن يحيى البوّرجاني، من كبار البارعين في معرفة الهندسة، ولهُ فيها تصانيف مهذبة. لُقّب بالبوّرجاني نسبة إلى قرية من نيسابور، وافته المنية في سنة سبع وثمانين وثلاث مائة للهجرة، ينظر: الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م، ج8، ص 626. وينظر أيضًا: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج12، ص 428.

⁴ الغويل المهدي، السّياق وأثره في المعنى، أكاديمية الفكر الجماهيري، دار الكتب الوطنية، بنغازي- ليبيا، ط1، 2011م، ص15، وينظر أيضًا: البستاني، بشرى، ومجموعة من الباحثين، التداولية في البحث اللغوي والنقدي، ص 102.

⁵ بدأ قيام الدولة البهوية (320-932م) مع أول ملك منهم، وهو عماد الدولة أبو الحسن علي بن بويه فناخسرو الديلمي الذي اشتغل في أول أمره في صيد السمك، وتم تملكه لشجاعته وإقدامه في جيش أولاد الناصر للحقّ العلوي، وبعد زوال دولتهم، تولى أبنائهم ولاية مماليك بلاد الديلم، وهم كالتالي: عماد الدولة علي الذي حكم فارس وثبت ملكه في شيراز، وركن الدولة حسن الذي تولى حكم الرس وهمذان وأصفهان وطبرستان، ومعر الدولة أحمد الذي تولى حكم العراق، والأهواز، وكرمان، وواسط، ووصلوا إلى قمة المجد والسلطان =والنفوذ على أملاك الدولة العباسية، وأخذ سلطانهم بالأفول بعد وفاة عضد الدولة بن ركن الدولة، نتيجة الحروب التي وقعت بين أبنائه الثلاثة، واقتحام السلاجقة لديارهم. ينظر: الدواداري عبد الله بن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، ط1،

الهجري الذي تميز بكثرة الفتن والمجادلات الحزبية والدينية، الأمر الذي انعكس على طبيعة المؤلفات الأدبية في ذلك العصر¹، وبالأستناد إلى السياق الموقفي أو التداولي² المتحكم في إنجاز الأقوال وردود الأفعال، نسعى إلى الوقوف على السؤال باعتباره فعلاً تهديداً بالاستناد إلى الصيغة الجامعة لعناصر تقييم مستوى خطورة إنجاز العمل المهدد للوجه (Wx).

ومن الطريف أن نشير إلى أن مستوى تقييم ثقل العمل المهدد وحدته إنما يقاس بحجم التهديد الذي تتعرض له الوجوه إثر إنجازه، فإن (سؤال تعيين الأفضلية) على سبيل المثال قد شكل تهديداً على وجهي التوحيدي الإيجابي والسلبي، من نواح عدة لعلنا نبينها فيما يلي:

- **تهديد وجه التوحيدي الإيجابي:** يجد التوحيدي نفسه بين أمرين:

1. التصريح بأفضلية العرب على العجم، وفيه تهديد على وجهه الإيجابي نتيجة ما يترتب عليه هذا الاعتراف من ردود فعل قد تعرض صورته الإيجابية إلى التهديد، وتظهر تحيز التوحيدي إلى العرب دون بقية الأمم.

2. الإحجام عن الرد، فيظهر التوحيدي بصورة الجاهل لأمر كان من المتوقع أن يعرفه، سعياً منه في الحفاظ على العلاقة مع الوزير، ورغبة منه في أن ينال الحظوة والإكرام والاعتراف بفضلته أمام الحضور.

- **تهديد وجه التوحيدي السلبي:** فقد يشكّل التهديد ضغطاً كبيراً على وجه التوحيدي السلبي لما فيه من تقييد وإعاقة لحريته في التفاعل، وعلى الرغم من مساعي التوحيدي في الامتناع عن الإجابة إلا أنه في موضع لا يتيح له ذلك.

= 1992م، ج5، ص 388، وينظر أيضاً: العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر 1417 هـ/ 96 - 97 م، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 1996م، ج1، ص 229.

يتضح لم تأمل المحاورات التي جرت بين التوحيدي والوزير أنها تجري على غير العادة الجارية في مجلس الوزراء والأمراء في القرن الرابع الهجري، وذلك نتيجة لاتفاق مسبق بينهما جاء في أول لقاء بينهما والذي استأذن فيه التوحيدي أن يستخدم كاف المخاطبة، وتاء المواجهة؛ ليغير سيرورة التفاعل القولي بينهما منذ البداية، ويكون هو المتحكم بصورة غير مباشرة في تقدم الموضوع، وتطور مستوى أحداثه، ينظر: فصيح مقران، أسلوبية المحادثة الأدبية وقوانين الخطاب في أدب أبي حيان التوحيدي 420 هـ، حوليات جامعة قلمة للغات والآداب، ع 15، يونيو 2016م، ص 159-174، وينظر أيضاً: التوحيدي، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 20-21، و211.

¹ ينظر: مبارك زكي، النشر الفني في القرن الرابع، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط2، دت، ص 126-131.

² يقوم مفهوم السياق الموقفي على طبيعة الموقف كوسيط ثقافي اجتماعي لا فيزيقي خالص، يتضمن الغاية أو مجموع الغايات المشكلة للموقف، كما أنه يشتمل على المعنى الملازم الذي تنقاسمه الشخصيات المنتمية إلى الثقافة نفسها، ينظر: أومينكو فرانسو، المقاربة التداولية، ص 48.

ومن الجدير بالذكر أنّ التّهديد لا يخلو من أن يخلق الضّرر بمُنجزه وهو الوزير نتيجة لعدم التزامه بمفهومي صيانة الوجه Face as wants وبذلها Face given للمتلقي، فالسؤال المهدّد الذي أراد الوزير توريث التّوحيديّ بالإجابة عنه لا يفتأ أن يشعره بالتّوتر والارتباك نتيجة إصراره على تقييد حرية التّوحيديّ وإلزامه بأمر لا يرغب في إنجازه والتّصريح به أمام الحضور.

وحَتّى نتَمكّن من دراسة السّؤال في إطار الخطورة التي يمثّلها، فإننا نخضعه لعوامل تقييم مستوى خطورة العمل المهدّد للوجه $(D,P,R)^1$ ، وهي كالتالي:

1. المسافة الاجتماعيّة الفاصلة بين المتخاطبين (D) Social Distance

يمكن تقدير المسافة الاجتماعيّة الفاصلة بين التّوحيديّ والوزير بطبيعة العلاقة المتوتّرة بينهما، فالوزير في حاجة إلى علم التّوحيديّ إلّا أنّه لا يسع إلى استمالته وكسب وده، وفي الجهة المقابلة له، ترتسم شخصيّة التّوحيديّ في صورة يغلب عليها التّحوّط في تعاملها مع الوزير رغم ما تتعرّض له من ضغوط تدفعها إلى المباشرة في التّصريح -في بعض المواقف- تعبيرا عن آرائها ووجهات نظرها.

إذن يمكننا القول إنّ العلاقة التي يغلب على أحد طرفيها عدم الاكتراث بمتلقّيه، ويقابله الآخر بسلسلة من وسائل التّحوّط، وطرائق الانقاء لا يمكن وصفها بأنها علاقة متماسكة بل هي أقرب ما تكون إلى الضّعيفة والمفكّكة منها.

2. القوّة النسبيّة للمتخاطبين (P) Relative power

تتمثّل القوّة النسبيّة للمتخاطبين بعامل السّلطة، وتظهر بتفوّق الوزير على التّوحيديّ في مكانته الاجتماعيّة، ورتبته السّياسيّة على الرغم من عمق علم التّوحيديّ وسعة معارفه، فتتجلّى لنا على إثر تباين القوّة النسبيّة بينهما ممّا يؤكّد العلاقة غير المماثلة بين طرفي التّفاعل.

¹ يعتبر الباحثان هذه العوامل بمثابة صلاحيات معرفية تتيح لمنجز القول مجموعة واسعة من الوسائل والطرق التي تمكنه من استغلال متلقّيه. ينظر: Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p81.

3. منزلة العمل المهّد بالنسبة لثقافة معينة (R) Absolute Rank

إن إثارة التساؤلات -في اللغة العربيّة- تعتبر طريقة ناجحة في جذب انتباه الطرف الآخر، كما أنّها تعتبر وسيلة (تحوّط) موفّقة تمكّن المتكلّم من تقليل حجم التّهديدات، والابتعاد عن سوء الظّنون والتّوقعات التي لا صحة لها في المتلقّي، ولكنها قد تكون علامة تفضح الدّوافع الخفيّة التي يبطنها المتكلّم، وهذا ما بدا واضحاً عندما أثار الوزير السّؤال وأبدى إصراراً على معرفة الإجابة عن السّؤال المهّد والمتمثّل في تعيين أفضلية العرب على العجم.

ومن المثير أن نحاول تطبيق تلك العناصر على المعادلة الرّياضيّة التي صاغها الباحثان B & L لتقييم ثقل العمل المهّد للوجه والتي كانت كالآتي:

$$(Wx = D(S,H) + P(H,S) + Rx)$$

وتجيء محاولتنا على النحو الآتي:

قياس ثقل العمل المهّد بإثارة السّؤال = (المسافة الاجتماعيّة = (الوزير + التّوحيدي)) + (السلطة (التّوحيدي + الوزير)) + (منزلة السّؤال المهّد في الثقافة العربيّة))¹.

وبناء على ما سبق، تتجلى لنا إمكانية تصنيف السّؤال كفعل إنجازي مهّد للوجه نتيجة لأمر عدّة خاضعة لاستنتاجات عوامل تقييم مستوى خطورة العمل فطبيعة العلاقة الضّعيفة والمفكّكة التي تربط التّوحيدي بالوزير، إضافة إلى العلاقة غير المماثلة في القوّة النسبيّة وغير المتكافئة في المنزلة الاجتماعيّة، فأحدهما يحتل سلطة سياسية والآخر أديب أدت إلى تفوق الوزير على التّوحيدي، علاوة على المقاصد الخفيّة التي تضمنها السّؤال ممّا أدى إلى تضافر كلّ تلك المقاصد لتشكّل دافعاً يسهم في خروج صيغة الاستفهام عن معناها الحقيقي الساعي إلى الحصول على

¹ قامت عوامل تحديد مستوى ثقل العمل المهّد للوجه على المتغيرات الاجتماعيّة Sociological Variables وهي نسب P R D، وافترض الباحثان قياس كل من هذه العوامل بقياس من 1 إلى N على اعتبار N رمزاً يمثّل قيمة عددية صغيرة، وفي هامش الملاحظات العامة للمبحث بيّنّا أن التقسيم قد يكون من 1 إلى 7 مشيرين إلى أن هذا التقسيم يعمل كنموذج للمقاييس النسبية، وليس كنموذج للقيم المطلقة من نوع ما، ولعلّ خضوع هذه العوامل للأبعاد الاجتماعيّة والمعايير الشخصية جعل تصنيفها وتحديد قيمتها عددية معينة أمراً عسيراً، وقد يكون هو السبب الرئيس في ابتعادها عن تحديد إجرائي وتطبيق عملي يفصل تقسيم هذه نسب العوامل وفقاً لحجم التّهديد وقيمتها، ولذلك فقد أثّرنا تطبيق تلك العوامل المعادلة المقترحة بالاعتماد على مستوى العلاقات (متكافئة، غير متماثلة...) التي تربط الأطراف المتحاور؛ لتلافي تعيين قيمة عددية اعتباطية من جهة، ولتأكيد دور العلاقات الاجتماعيّة في التأثير على العوامل من جهة أخرى. ينظر:

Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p74-76, 287.

إجابة إلى معان أخرى من شأنها تهديد الطرف الآخر والإساءة إليه، وممارسة أشكال الضَّغط عليه.

ونتيجة لطبيعة العلاقات المضطربة بين الطرفين المتخاطبين، كان من المهم أن نستبين أثر المخاطرة بالوجوه ومضاعفة حجم التهديدات في بناء المواقف وتحديد ردود الأفعال، ولعلنا نتساءل: كيف تمكّن التّوحيديّ من التخلّص من مآزق التعامل ومزالق التّفاعل؟

المخاطرة بالوجوه وطرائق التّوحيديّ في الاتقاء

- تهديد الوزير لوجه التّوحيديّ

يتعيّن علينا إعادة النّظر في طبيعة السّؤال الّذي وجهه الوزير إلى التّوحيديّ؛ لنكشف عن منازع العلاقة التّخاطبيّة، ونضبط حدود عناية الطّرفين المتخاطبين باختيار الأسلوب المناسب، ونستشف جملة الوسائل المعينة على تحقيق المقاصد والغايات، ولعلّ هذا الأمر يدعونا إلى البحث عن الأسباب الّتي دفعت الوزير إلى الشّروع بالسّؤال، والفائدة المترتبة عن المخاطرة بالوجوه، في حين أن صيانة الوجوه وبذلها للآخرين من شأنها أن تقلّل من حجم التّهديد، وتخفّف من مقدار الألم المترتب على إنجازها.

ومن هذا المنطلق يتسنى لنا البحث في السّبل والاستراتيجيّات الّتي لجأ إليها الوزير رغبة منه في مخادعة التّوحيديّ وتوريطه رغم وعيه بما تتجم عنه المخاطرة الكبيرة بالوجوه من أضرار ومكاره عديدة تنتهك وجه متلقّيها، ونجملها على النّحو الآتي:

1. فرض الحصول على إجابة

لاريب في أحقية الوزير الكاملة في اختيار موضوع المحاورّة بل وفرضه على التّوحيديّ بالتّعويل على عامل السّلطة، فتفوّق الوزير على التّوحيديّ في مكانته الاجتماعيّة وسلطته السياسيّة تسوغان له ذلك، فالوزير هو سيد المجلس بينما التّوحيديّ إنّما هو ضيف زائر يرتاد مجلسه بأمر منه ممّا يوجب عليه الالتزام بأداب المجلس، والامتثال لأوامر الوزير، ولكن ما يدعونا إلى تصنيف السّؤال كفعل تهديديّ ألحق الضّرر بوجه التّوحيديّ السّلبيّ إنّما هو كائن في إصرار الوزير على طلب الإجابة، وتعيين أفضلية العجم على العرب والّتي عبر عنها بقوله: "إنما أريد بهذا الفرس"¹.

إن تجلّي رغبة الوزير العميقة وإلحاحه الشديد في المعرفة بشكل صريح ومباشر، أسهم في تغيير مجرى الحوار في المحاورّة من مفهوم قائم على احترام القيم الأخلاقيّة، والسعي إلى صيانة وجه الآخر من التّهديد Face Wants إلى مفهوم قائم على التستر والمراوغة في بيان المقاصد الكامنة، والغايات الدّفينة رغم مساعي التّوحيديّ في انقاء تلك التّهديدات.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص70.

2. فرض عدم الاكتفاء والحث على طلب المزيد

يحرّض الوزير التّوحيديّ على إخراج ما في جعبته من أخبار مسموعة، ومواعظ مستتبطة بعد الخبر الّذي رواه التّوحيديّ عن ابن المقفع والّذي شغل ما يقارب ستة وثلاثين سطرًا، وكأنّه في حال المتعطّش الّذي يطلب المزيد، وهذا ما عبّر عنه قوله:

"ما أحسن ما قاله ابن المقفع!، وما أحسن ما قصصته وما أتيت به! هات الآن ما عندك من مسموع ومستتب¹".

ويحاول التّوحيديّ من جهته أن يظهر اكتفاءه بما أورده مشيرًا إلى الصّفات الّتي يتميّز بها ابن المقفع، فهو بارع في أدبه، ومقدّم بعقله، مؤكّدًا أن كلّ زيادة على ما قال ابن المقفع فضل يستغنى عنه، وكلّ ما يعقبه من كلام يشبهه فهو حشو لا فائدة منه، وبذلك يحاول التّوحيديّ إغلاق باب الزيادة في الحديث عن الموضوع، لتقطنه في المهالك والمزالق الّتي يمكن أن يقع فيها نتيجة بسط الكلام في موضوع، وهذا ما عبّر عنه قوله:

"إن كان ما قال هذا الرجل البارّع في أدبه المقدّم بعقله كافيًا، فالزيادة عليه فضلٌ مستغنى عنه، وإعقابُه بما هو مثله لا فائدة فيه"².

لكن مع إصرار الوزير المتزايد، وحثّه على ذكر تفاصيل المسألة، رغم وعيه بأنها مسألة إشكالية تدافع فيها الناس، ولم يصلوا فيها إلى صلح واتفاق، الأمر الّذي دفع التّوحيديّ إلى إنزال الوزير لمنزلة المتعلّم الّذي يحتاج إلى شرح وتوضيح من معلّمه، وهذا ما شفّ عنه قول التّوحيديّ:

"بالواجب ما وقع هذا، فإنّ الفارسيّ ليس في فطرته ولا عادته ولا منشئه أن يعترف بفضل العربيّ، ولا في جبلّة العربيّ ودَيْنِه أن يقر فضل الفارسي. وكذلك الهندي والرومي والتركي والديلمي. وبعد، فاعتبار الفضل والشرف موقوف على شيئين: أحدهما ما خُصّ به قوم دون قوم في أيام النشأة بالاختيار الجيّد والرّديء، والرّأي الصائب والفائل، والنّظر في الأول والآخر. وإذا وقف الأمر على هذا فلكلّ أمة فضائل ورذائل، ولكلّ قوم محاسن ومساوٍ، ولكلّ طائفة من الناس في صناعتها وحلّها وعقدها كمال وتقصير. وهذا يقضي بأن الخيرات والفضائل والشّرو والنقائص مُقاصّة على جميع الخلق، مفوضة بين كلّهم..."³.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص73.

² المصدر نفسه، ج1، ص73.

³ المصدر نفسه، ج1، ص73.

وبناء على ما سبق، فإنّ المضاعفة من حجم التّهديدات التي يجابهها التّوحيديّ كلّفته ركوب الأمواج العاتية، والخوض في دروب ملتوية سالكا مسلك الاحتراس والانتقاء أكّدتها جملة الطّرائق التي لجأ إليها مخافة ومحاذرة مما يترتب عليه التّصريح في إنجاز بعض الأعمال القولية.

– طرائق التّوحيديّ في اتّقاء التّهديد

اعتمد التّوحيديّ مجموعة من الطّرائق التي تخلصه من التّهديد المترتب عن التّصريح المباشر بآرائه، ومن هذه الطّرق لجوئه إلى التّحوط عن الإجابة بالتّقديم والتّأخير إدراكاً منه بالأهمية التي ينطوي عليها تصدير الكلام والذي يمثّل موضع الحدث الإنشائي المسيطر على العناصر الإحالية في الجملة كلّها¹، وقد تجلّى ذلك في أول إجابة له والتي خصها بسرد أنواع الأمم والتي عبر عنها بقوله:

"الأمم عند العلماء أربع: الروم، والعرب، وفارس، والهند؛ وثلاث من هؤلاء عجم، وصعب أن يقال: العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة، مع جوامع ما لها، وتفاريق ما عندها"².

ومما سبق، تبرز لنا مساعي التّوحيديّ في التّمنع عن الإجابة بصورة صريحة ومباشرة، موضعاً بأنّ موضوع تعيين الأفضلية يتسم بالصّعوبة، ونتيجة لوعي التّوحيديّ بما تمثّله الإجابة عن هذا السّؤال من انتهاك وتعدّي لإجباره على التّصريح بآرائه الشّخصية اتجاه موضوع مفخّخ قد يوقعه في مزالق عديدة مع الوزير، الأمر الذي يؤكّد لنا براعة التّوحيديّ في توظيف الدّعوات الوقائية Pre-emptive invitation بصورة مسبقة رغبة منه في صيانة وجهه من كلّ تهديد قد يواجهه في الزّمن الحالي، أو التّقليل من حجم التّهديد الذي قد يتعرّض إليه في المستقبل.

ويتخذ التّوحيديّ التعميم وسيلة للتّستر، والتّحفظ عن إبداء آرائه، والإجابة عن سؤال الوزير بصورة مباشرة، وهي طريقة فاعلة تمكن عبرها من توظيف استراتيجية من استراتيجيات التّلطّف الإيجابي القائمة على (تعاون المتخاطبين في إنجاز الخطاب)، ورغم ما تقوم عليه هذه الاستراتيجية من شرط يوجب التّفاعل المتبادل بين الطّرفين إلا أن التّوحيديّ لم يعدّه أمراً يعيق سعيه في إقناع الوزير بآرائه، فشرع في إيراد الحجج، والشواهد التي تؤيد أقواله، وتمكّنه من التّصريح بها بصورة خفية، وحينئذ استطاع التّوحيديّ أن يتخفف من الضّغط الذي يواجهه، ودلّلنا على ذلك استمراره

¹ المبخوت، شكري، دائرة الأعمال اللغوية- مراجعات ومقترحات، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010م، بيروت- لبنان، ص60-61.

² التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص70.

في سرد خبر ابن المقفع¹ دون أن يقاطعه الوزير، إضافة إلى تقبّل الوزير وإعجابه بالخبر وطلبه الاستزادة في توضيح المعاني المتضمنة، وقد ظهر في قوله:

"ما أحسن ما قال ابن المقفع! وما أحسن ما قصصته وما أتيت به! هات الآن ما عندك من مسموع ومستنبط"².

ويجدر بنا أن نقف على الأسباب التي دفعت التّوحيديّ للاستشهاد بقصة يرويها عن الأديب الفارسي ابن المقفع دون غيره، موظفًا في ذلك استراتيجيّات التّلطّف الإيجابي، ولعلّنا نلخصها في الأمور التالية:

1. الخلفية المشتركة التي تربط ابن المقفع والوزير فكلاهما ينتميان إلى بلاد فارس، الأمر الذي يميّن التّوحيديّ من إظهار حياديّته وعدالته في الحكم على موضوع المفاضلة بحديث يرويّه على لسانه.

2. المبالغة في الإطار على ابن المقفع وتأكيد محاسنه وفضائله، فأشار التّوحيديّ إلى عراقته في العجم، وبيّن أفضليّته بين أهل الفضل، وأضاف بأنّه صاحب كتاب اليتيمة الذي لم يترك إلا القليل من الكلام لأصحاب الرسائل والكتب بعد كتابه هذا³، علاوة على ما أكده من براعة الرّجل في أدبه مشيرًا إلى أنّه مقدّم بعقله، فالزيادة عليه فضلٌ مستغنى عنه، وإعقابه بما هو مثله أمر لا فائدة فيه.

3. سعي التّوحيديّ إلى الظهور في شخصية مسالمة تتجنب الخلافات متخذة من شخصية ابن المقفع رمزًا تتيح إليه الاستمرار في التّفاعل القوليّ وعرض آرائه بكلّ أريحية.

¹ ابن المقفع، هو عبد الله زادويه (وقيل زادويه في اللسان) بن المقفع، أحد بلغاء وفصحاء عصره، يعدّ من مجوس فارس، اختلف في تاريخ ولادته فمنهم من رجح ولادته في عام تسع ومائة كعمر كحالة، ومنهم قال: إنه ولد في عام ست ومائة، ورغم هذا الاختلاف إلا أن معظم التراجم اتفقت على أنه عاش ست وثلاثين سنة، وأسلم على يد الأمير عيسى بن علي عم السفاح المنصور، واختص بالكتابة والإنشاء، وهو الذي ساهم في ترجمة كتاب كليله ودمنة، تميّز بقنطته وسعة علمه رغم طيشه، واتهم بالزندقة، توفي في سنة خمس وأربعين ومائة عند صاحب السير ومعجم المؤلفين، بينما عند الزركلي فإن وفاته كانت في عام اثنتان وأربعين ومائة للهجرة، ينظر: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج6، ص332، وينظر أيضًا: كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث، بيروت، دط، دت، ج15، ص247، وينظر أيضًا: الزركلي، محمود بن محمد، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، ج4، ص140، وينظر أيضًا: العسقلاني، أحمد بن علي، لسان الميزان، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط1، 2002م، ج5، ص21.

² التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص73.

³ المصدر نفسه، ج1، ص70-73، وينظر أيضًا: ما قاله الأصمعي عن (الدرة اليتيمة): "ما صنّف مثلها"، بيانًا لما بلغه هذا الكتاب من شهرة وحظوة في ذلك العصر، وينظر أيضًا: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج6، ص332.

وفي انتقال المستوى السردى في هذه المحاور من القصة الإطارية المتمثلة في حديث متبادل بين التّوحيديّ والوزير إلى قصة مضمّنة يسرد التّوحيديّ فيها خبراً يرويه شبيب بن شَبّة¹، عن مجموعة من الأشراف، وجماعة من الناس في عرصة المَرَبْد²، يقوم ابن المقفع بتوجيههم للذهاب إلى دار ابن برثن، دليل على براعة التّوحيديّ في إدارة المحاور بالصورة الّتي تتيح له التدرج في عرض آرائه³؛ كما أنها محاولة جيدة تسعف التّوحيديّ في خلق خلفية مشتركة بينه وبين الوزير قبل أن يشرع في التّصريح بالإجابة.

يورد التّوحيديّ السّؤال الّذي أراد ابن المقفع به توريط الجماعة والمتمثّل في: "أيّ الأمم أعقل؟"⁴. ونتيجة لما تميّز به ابن المقفع من هيبة وحسن طّلة استطاع أن يؤثر على صورته الإيجابية عند الجماعة مما دفعهم إلى الاعتراف بفضلته والتأثر بمكانته والّذي ظهر في سعي الجماعة إلى مجاملته، ورغبتهم في مدهنته، والتصنع لإرضائه، على الرغم ممّا يفرضه ذلك من قيود تهدد وجه الجماعة السّلبى والّتي تتمثّل في الاستمرار بالمجاملة والتملق على حساب الحق والصواب، وهذا ما شفّ عنه قولهم:

"فظننا أنه يريد الفرس فقلنا: فارس أعقل الأمم، نقصد مقاربتة ونتوخّى مصانعتة. فقال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها، هم قوم علّموا فتعلّموا، ومثّل لهم فامتثلوا واقتدوا، وبُدُّوا بأمر فصاروا إلى اتّباعه، ليس لهم استنباط ولا استخراج. فقلنا له: الروم. فقال: ليس ذلك عندها، بل لهم أبدان وثيقة، وهم أصحاب بناء وهندسة، لا يعرفون سواهما، ولا يحسنون غيرهما"⁵.

¹ شبيب بن (شَبّة وقيل شَيْبَة) بن عبد الله التميمي المنقري، كنيته أبو معمر، لم تعرف سنة ولادته، كان خطيباً فصيحاً شريفاً من أهل البصرة، ينادم خلفاء بني أمية ويفزع إليه أهل بلده لقضاء حوائجهم، وافته المنية في سنة سبعين ومائة للهجرة. ينظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، 1900م، ج2، ص 458، وينظر أيضاً: الزركلي، محمود بن محمد، الأعلام، ج3، ص 156.

² عرصة المريد هو مكان تقاد فيه الإبل ومحسبها، ينظر: مصطفى إبراهيم، الزيات أحمد، عبد القادر حامد، النجار محمد، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، ج1، ص 322.

³ بينت إحدى الدراسات أن الخطة المنظمة في بناء الليلة السادسة قامت على ثلاث آليات: الأولى: آلية عملية الإيهام والّتي تمثّلت في الأسئلة المطروحة، والحقيقة الّتي يصمم التّوحيديّ على إثباتها، إضافة إلى عمليات التحايل في وضع الأسئلة وصياغتها، وجعل الإجابة عنها استدراجاً لطرح السؤال المقصود بطريقة تظهر عدم انتساب هذا الرأي أو الحقيقة إليه؛ لتنتقل بذلك الخطة إلى الآلية الثانية وهي: آلية الاستدراج الّتي تحققت في إجابة التّوحيديّ في بداية المحاور، وإجابة العرب الأشراف؛ لينجح ابن المقفع في إبراز نواقص الأمم تمهيداً للحكم النهائي القاطع بأفضلية العرب المطلقة، وأخيراً آلية المراوغة الّتي استند إليها التّوحيديّ وتوارى خلفها؛ ليصل إلى درجة إعجاب الوزير بقول ابن المقفع. ينظر: الروبي، ألغت كمال، محاورات التّوحيديّ وتعدد الأصوات، مجلة النقد الأدبي فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، م14، ع 4، 1996م، ج 2، ص 152.

⁴ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 71.

⁵ المصدر نفسه، ج1، ص 71.

ولئن قامت المتفاعلات على خاصيتي الوجه والعقلانية، فإن تعقيب ابن المقفع على إجابة الجماعة يكشف لنا عن غاياته، ومقاصده الخفية التي تستهدف الفرس والتي تمثلت في الأمور التالية: استخدام أسلوب النفي لصرف نسبة العقل إليهم، وإبعادهم عن مزية الاستنباط، وحسن الاستخراج، كما وظّف الأفعال المبنية للمجهول والتي تمثلت في قوله: "عَلِّمُوا فَتَعَلَّمُوا، مِثْلَ لِهْم فَاَمْتَلُوا وَاقْتَدُوا، وَبُدُّنَا بِأَمْرٍ فَصَارُوا إِلَى اتِّبَاعِهِ"¹

ومما سبق، تتضح لنا رغبة ابن المقفع في تأكيد بُعد هذه الأمة عن صنوف المحاسن، وتمركزها حول المساوئ، فهي أمة غائبة، ومتبعة لغيرها، ولا يمكن أن تقوم بذاتها، ولعل ما يؤكد قولنا تقديم ذكر الفرس على بقية الأمم سعيًا منه إلى نفي الأفضلية عن هذه الأمة بصورة خاصة ومقدمًا على غيرها من الأمم، إضافة إلى امتداد الوصف، فقد شغل سرد مساوئ الفرس قرابة ثلاثة أسطر، مقارنة بأوصاف باقي الأمم.

وتتطور العلاقة بين المتخاطبين، بتحول العلاقة بينهما من علاقة تفاعلية قائمة على تبادل الأفعال الكلامية إلى علاقة فعلية² يكون ابن المقفع فيها هو الطرف المسيطر، في مقابل ذلك تكتفي الجماعة بتوظيف استراتيجية الصمت Opting Out على إنجاز العمل اللغوي، فهي لا ترغب في إبداء رأيها في هذا الموضوع بصورة مباشرة، حفاظًا على علاقتها بهذا العالم الجليل، واحترامًا لهيبته ومكانته الاجتماعية التي تفرض عليها الالتزام بالصمت عوضًا عن الكلام، في حين أنها لم تتمكن من إخفاء إيماءاتها التي بدت واضحة كالملاحظة بالعينين، والتّهامس الخفي.

ويواصل التّوحيديّ تسيير هذه الشخصية وفقًا لمقاصده وغاياته، فألبسها شيئًا من توقعاته وظنونه بالوزير، مما دفعه إلى السير في مسلك التعليل والتبرير على لسان ابن المقفع رغم أن الجماعة لم تنبس ببنت شفه، وما هي إلا حركات وأفعال غير لغوية قامت بها تعبيرًا عما تخفيه من أقوال، إلا أنها أحدثت في نفس ابن المقفع شيئًا تجلّى في انتقاله من حال يغلب عليها الاستقرار والروية والهدود إلى حال يغلب عليها الاضطراب والهيجان والثوران والذي تمثل في قوله:

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 71.

² يميز سعيد يقطين بين العلاقات الناطمة بين طرفي المجلس الرئيسين، وهما المتكلم والسامع، اعتمادًا على طبيعة التفاعل بين الطرفين، فإن كان الحوار مدارًا بين متكلم ومتلق يتولد بينهما الأفعال الكلامية فهي علاقة تفاعلية، بينما الحوار الذي يتحكم المتكلم فيه مولدًا أفعاله الكلامية بصورة فردية مع مشاركات ضمنية من قبل الطرف الآخر وهو المتلقّي، فهي علاقة فعلية يسهم المتلقّي في صيرورة الكلام الذي ينتجه المتكلم. ينظر: يقطين سعيد، المجلس، الكلام، الخطاب (مدخل إلى ليالي التّوحيديّ)، فصول مجلة النقد الأدبي، ص 195.

"كأنكم تظنون فيّ مقاربتكم، فو الله لوددت أنّ الأمر ليس لكم ولا فيكم ولكن كرهت إن فاتني الأمر أن يفوتني الصواب، ولكن لا أدعكم حتّى أبين لكم لم قلت ذلك، لأخرج من ظنّة المداراة، وتوهم المصانعة"¹.

وبدا انتهاك ابن المقفع لوجه الجماعة الإيجابي واضحاً عندما وظّف أسلوب القسم، رغبة منه في تأكيد صدقه، ونفي صفتي التملق والمجارة عنه على حساب الحق والصواب، وفي هذا تذكير للجماعة بتقطن ابن المقفع لأفعالها المشوبة بهاتين الصفتين، ومن جهة أخرى، فقد شرع ابن المقفع في بيان الحجج التي دفعته إلى نسبة الأفضليّة إلى العرب دون بقية الأمم، والتي جاءت بشكل معلومات بدهية، وأخبار ثابتة ومعروفة تثبت أحقية تفضيل العرب، الأمر الذي أكده حضور الأفعال الماضية، مثل: (احتاج، علموا، سموا، نسبوه، عرفوا، نظروا، جعلوه، وسلخوا)؛ ليخلص إلى نتيجة مؤداها أن للعرب محاسن خصّت بهم في كلّ مجال وصنعة، فهم أهل الفكر والعلم والفتنة بالفطرة².

هذا وقد أدى إصرار الوزير على تغليب أفضلية أمة على بقية الأمم، واحتجابه بإشكالية هذه المسألة نظراً لاختلاف دلائل الوصف في التزيين والتقبيح على ما يعتقد صوابه وخطؤه إلى تحوّل العلاقة التي تجمع التّوحيديّ بالوزير من علاقة قائمة على المحاذرة والانتقاء، إلى علاقة متوتّرة تتسم بالجرأة في الطرح، فيجازف التّوحيديّ في استعراض آرائه موظفاً الاستراتيجية التّصريحية Bald On-Record Strategies، ولعلّ هذا ما كشف عنه تعقيب التّوحيديّ على الوزير الذي تضمّن تصريحاً مباشراً بالاعتراض والمخالفة:

"بالواجب ما وقع هذا، فإنّ الفارسيّ ليس في فطرته ولا عادته ولا منشئه أن يعترف بفضل العربيّ، ولا في جبلة العربيّ ودينه أن يقرّ بفضل الفارسيّ...، فاعتبار الفضل والشرف موقوف على شيئين: أحدهما ما خص به قوم دون قوم في أيام النشأة بالاختيار للجيد والريء، والرأي الصائب والفائل، والنظر في الأوّل والآخر. وإذا وقف الأمر على هذا فلكلّ أمة فضائل وريائل ولكلّ قوم محاسن ومساو، ولكلّ طائفة من الناس في صناعتها وحلّها وعقدها كمال وتقدير، وهذا يقضي بأنّ الخيرات والفضائل والشُّرور والنقائص مفاضة على جميع الخلق، مفضوزة بين كلّهم"³.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص71.

² المصدر نفسه، ج1، ص72-73.

³ المصدر نفسه، ج1، ص73.

ويؤثر التّوحيديّ التحوط والاتقاء فيسلك مسلك التبرير؛ ليبين أن سبب نفيه إنما هو موصول بأمرين:

فأما الأمر الأول فهو قائم على موضوع (نفي الاعتراف بالأفضليّة)، فعلى الرغم مما خلفه تصريح التّوحيديّ باستحالة اعتراف الفارسي بأفضلية العربيّ من تهديد أضرب بوجه الوزير الإيجابيّ إلا أن التّوحيديّ قد احتاط -على هذا الاعتراف- بالإشارة إلى أن العربيّ في خلقته وعادته ما يمنعه كذلك من الاعتراف بفضل الفارسي، ورغم المقارنة الواضحة واختصاص هذين الأمرين دون غيرهما من الأمم بهذا البيان، ينتقل الأديب إلى سرد بقية الأمم بصورة عامة فيورد الهند، والروم، والترك، والدليم؛ ليستنتج القاعدة التي يقف عليها اعتبار الفضل والشرف في أمة من الأمم، والتي تتركز على ما تميزت به تلك الأمة عند نشأتها، فهناك أمة اختصت بحسن اختيار الجيد عن الرديء، والقدرة على التفريق بين الرأي الصائب عن الخاطئ، والأخذ بما أورده القدماء والمحدثون، موضعاً بأن نشأة كلّ أمة، تقتضي وجود المحاسن والفضائل، ولا تمنع من وجود المساوي والردائل.

ومن صلب هذا الموضوع يتولد سبب ثانٍ موصول به يجري في نطاقه وهو موضوع (فضائل الأمم ونقائصها)، فقد تجلّت مساعي التّوحيديّ في إظهار انصافه، وميله للحق عندما شرع في نسبة الفضائل إلى الأمم، حيث قدّم فضائل الفرس على من سواها من الأمم فقال:

"لفلّرس السياسة والآداب والحدود والرسوم، وللّروم العلم والحكمة، وللّهند الفكر والرويّة والخفّة والسّحر والأناة، وللّترك الشجاعة والإقدام، وللّزنج الصبر والكّد والفرح، وللّعرب النّجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذّمّام والخطابة والبيان"¹.

ولعلّ دافع إحصاء تلك الفضائل يكشف لنا عن مقاصد التّوحيديّ الخفيّة، فقد نسب إلى العرب ثمانية أوصاف جامعة، وهو مجموع ما نسبته إلى الفرس (أربع صفات)، والروم (صفتان)، والترك (صفتان)، أو هو مجموع ما تمتاز به الهند (خمس صفات) والزنج (ثلاث) لتتأكد بهذه النسبة أنّ الأفضليّة حق أصيل ينسب إلى العرب دون سائر الأمم².

ويسعى التّوحيديّ إلى استعراض عدد من الحجج التي تتجلّى في صورة وقائع تاريخية، أو أخبار مسموعة رغبة منه في إقناع الوزير بآرائه التي يؤكد فيها أن لكلّ أمة زمان تكون لها الغلبة فيه على عدوها، وتأييداً لرأيه، فقد لجأ التّوحيديّ إلى توظيف الاستراتيجية الثالثة عشرة من استراتيجيّات التّلطّف الإيجابي، وقوامها (قدّم حججاً مؤكدة لما تقول واسأل عن الأسباب)، ونتيجة لما ينطوي

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص74.

² البهلول، عبد الله، في بلاغة الخطاب الأدبي بحث في سياسة القول في نصوص من الأدب العربي القديم، قرطاج للنشر والتوزيع، ط1، 2007م، ص 65-66.

عليه التصريح من ضغوط كبيرة تهدد وجه الوزير فإن توظيف هذه الاستراتيجية تعدّ طريقة فاعلة تمكّن التّوحيديّ من عرض آرائه من دون أن يشعر الوزير بأيّ ضغط يهدّد وجهه السّلبّي.

واعتمادًا على ما سلف بيانه، شرع التّوحيديّ في استعراض بعض الوقائع التاريخية موضحًا الأثر الّذي خلفته الغلبة السّياسيّة لدولة اليونان، وإسكندر، وفارس في عهد الملك كسرى أنو شروان¹ على أهل هذه الدول، واستند في ذلك إلى ما قاله أبي مسلم صاحب الدّولة عندما سئل: "أيّ الناس وجدتهم أشجع؟ فقال: كلّ قوم في إقبال دولتهم شجعان"²

ويأتي تعقيب التّوحيديّ على قول أبي مسلم صاحب الدّولة بتأييد صريح، وتصديق محقّق عبّر عنه بقوله:

"وقد صدق، وعلى هذا كلّ أمة في مبدأ سعادتها أفضل وأنجد وأشجع وأمجد وأسخى وأجود وأخطب وأنطق وأراى وأصدق، ... وهذا التحوّل من أمة إلى أمة، يشير إلى فيض جود الله تعالى على جميع برّيته وخليقته بحسب استجابتهم لقبوله، واستعدادهم على تطاول الدهر في نيل ذلك من فضله"³.

واستنادًا إلى ما سبق، يكشف التّوحيديّ عن حقيقة لا خلاف فيها متمثلة في أن تحقيق الغلبة سبب في الحصول على السّعادة ونسبة الفضائل إليها، مشيرًا إلى أنّ تحوّل الأمم من حال غلبة إلى حال ضعف إنما هو مرهون بمقدار إقبالهم واستجابتهم لأقدار الله في الخليقة، واستعدادهم لنيل أفضاله، مبيّنًا أنّ الوصول إلى هذه المنزلة الّتي تمكّن الفرد من إدراك تلك الحقائق، وإبصار الحق وتأييده إنما هي منزلة رفيعة لا يمكن أن يصل إليها من اتبع هواه، وتعبّص لرأيه، وجادل في غير الحق، ونازع في الحق والصواب، وهذا ما عبّر عنه قول التّوحيديّ:

"ومن رقي إلى هذه الرّبوّة بعين لا قذى بها، أبصر الحقّ عيانا بلا مريّة، وأخبر عنه بلا فريّة، ومتى صدق نظرك في مبادئ الأحوال وأوائل الأمور وضح لك هذا كلّّه كالنهار إذا متع، واستتار كالقمر إذا طلع، ولم يبق حينئذ ريب في عرفان الحقّ وحصول الصواب، إلّا ما يلتاث بالهوى، ويسمج بالتعصّب، ويجلب اللّجاج، ويخرج إلى المحك، فهناك يطيح المعنى ويضلّ المراد"⁴.

¹ كسرى أنو شروان، ملك الفرس، لم نجد ترجمة أفردت إليه، ولكننا اهتمنا إلى وجود شذرات متفرقة التي تورد عنه بعض الأخبار، فقد ورد ذكره في ترجمة الملك سيف بن يزن، ويظهر للمتأمل مستوى الغلبة والقوة والسيطرة التي بلغت بلاد فارس، حيث استطاع سيف بن يزن أن يستعيد ملك اليمن بمساعدة جيش مأمور من جيوش الفرس، ينظر: الزركلي، محمود بن محمد، الأعلام، ج3، ص149.

² التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص75.

³ المصدر نفسه، ج1، ص75.

⁴ المصدر نفسه، ج1، ص75.

ومن المفيد أن نشير إلى براعة التّوحيديّ في تخفيف حدة العمل المهدّد للوجه والتمثّل في توجيه الوزير المباشر والصريح إلى ضرورة الإذعان إلى الحق من دون نقاش أو جدال بعمل تصحيحي تجلّى في توظيف فعل الشّرط (آثرت) كعمل لغوي غير مباشر لغاية تخوّل له الاستمرار في إيراد الحجج والبراهين الّتي تؤيد مقاصده والّذي عبر عنه بقوله:

"فإذا آثرت أن تعرف صحة هذا الحكم وصواب هذا الرّأي، فاسمع ما أرويه"¹.

ويباشر التّوحيديّ بسرد خبر آخر، من دون أن يتلقّى أيّة إشارة لفظيّة أو غير لفظيّة تسوّغ له الشّروع في سرد الخبر، فقد اعتبر التّوحيديّ صمت الوزير إقرارًا يتيح له المواصلّة، فأخذ يسرد الخبر الّذي يرويه إسحاق بن إبراهيم الموصلي² عن العباس مرّداً السّلميّ³ عندما انصرف من مكة، وجاء إلى قومه محدثاً عما رآه عند العرب، فقال:

"يا بني سليم، إنّّي رأيت أمراً، وسيكون خيراً، رأيت بني عبد المطلب كأنّ قودهم الرّماح الرّدينيّة، وكأنّ وجوههم بدور الدّجّة وكأنّ عمائمهم فوق الرجال ألوية، وكأنّ منطقهم مطر الوبل على المحل، وإنّ الله إذا أراد ثمرًا غرس له غرسًا، وإنّ أولئك غرس الله، فترقّبوا ثمرته وتوكّفوا غيظه، وتقيّنوا ظلاله، واستبشروا بنعمة الله عليكم به"⁴، والحق أنّ شهادة الشّاعر الفارسي السّلميّ تعكس الاعتراف الصّريح، والتأييد الواضح على أصالة العرب وأفضليّتهم على بقيّة الأمم، وذلك بشهادة بني جلدتهم.

ولم يقف التّوحيديّ عند هذا الحد بل عمد إلى التّوسّع في تأكيد استحقاق العرب لهذه الأفضليّة، فلم يترك شاردًا ولا واردًا من خير وفضل إلّا وقد نسبة إلى العرب، فقد وظّف خمسة عشر مركّبًا إضافيًا وأشار إلى أنّ ما يُنسب إلى العرب بالتّسليم والوفرة والعرف أضعاف ما أورده، كما صرح بأربع عشرة فضيلة خصّ بها العرب في الجاهلية قبل الإسلام، وتأتي كلّ تلك المساعي رغبة من التّوحيديّ في دفع كافة الشبهات، وقطع كافة السبل الّتي قد يتعلّل بها الوزير جحودًا ومكابرة عن

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 76.

² أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن بهمن بن نسك التميمي، المشهور بابن النديم الموصلي، عالم فارس في اللغة والغريب وأخبار الشعراء وأيام الناس، لقّب بالموصلي لانتقاله من الكوفة إلى الموصل طلبًا للغناء، وكان من ندماء الخلفاء، توفي في سنة خمس وثلاثين ومائتين للهجرة، ينظر: القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط1، 1982م، ج1، ص 250-251، وينظر أيضًا: ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1، د.ط، 1900م، ص 202-205.

³ العباس بن مرداس السلمي، شاعر فارس المخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، والدته الشاعرة الخنساء، وقد كان بدويًا قحًا، وسيّدًا في قومه، كما كان يدعي فارس العبّيد نسبة إلى فرسه. توفي في السنة الثامنة عشرة للهجرة، ينظر: درنيّة، محمد أحمد، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، تقديم: ياسين الأيوبي، دار ومكتبة الهلال، ط1، ج1، ص 198. وينظر أيضًا: يموت بشير، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، ط1، 1934م، ج1، ص 125.

⁴ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 76.

الاعتراف بفضل العرب على الأمم، ولعلّ النتيجة التي توصل إليها التّوحيديّ بعد مسح شامل وبحث في لغات أمم كثيرة خير دليل يثبت استحقاقية العرب لتلك الأفضلية فهي لغة الفصاحة والبلاغة والبيان، وهذا ما عبّر عنه قوله:

"مما لا سبيل إلى دفعه وجحوده، والبهت فيه، والمكابرة عليه، وقد سمعنا لغات كثيرة - وإن لم نستوعبها - من جميع الأمم، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقلاب وأندلس والزنج، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربيّة،...، وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول، وصحة هذا الحكم، فالحظ عرض اللغات الذي هو بين أشدها تلابساً وتداخلاً، وترادفاً وتعاضلاً وتعسراً وتعوّصاً، وإلى ما بعدها مما هو أسلس حروفاً، وأرقّ لفظاً،...، إلى أن تنزل إلى لغة بعد لغة، ثم تنتهي إلى العربيّة، فإنك تحكم بأن المبدأ الذي أشرنا إليه في العوائص والأغماض، سرى قليلاً قليلاً حتّى وقف على العربيّة في الإفصاح والإيماض"¹.

وبعد أن حشد التّوحيديّ حججاً عديدة ومتنوعة قصد إلى تكون كافية وشفافية لغاية إقناع الوزير بأفضلية العرب، فقد عمد إلى تنبيه الوزير بأن في إنكار هذه الحجج -على وفرتها وقوتها- ما يكشف عن تعصّب وعناد، بل وعلة في نفس صاحبها تأبى عليه التّسليم بالحق إذا انكشف وبان، وهذا ما دل عليه قول التّوحيديّ: "وإنّي لأعجب كثيراً ممّن يرجع إلى فضل واسع، وعلم جامع، وعقل سديد، وأدب كثير، إذا أبى هذا الذي وصفته، وأنكر ما ذكرته"²، ولتكون بذلك حجة تسوّغ له الإقذاع في الحديث عن الجيهاني من دون أن ينكر عليه أحد.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 77 - 78.

² المصدر نفسه، ج1، ص 78.

-الإقذاع في الحديث عن الجيهاني

يورد التّوحيدي أخبارًا متعددة من كتاب¹ ألفه الوزير الجيهاني² الذي وجّه فيه سهام نقده اللاذع إلى العرب، فقد نسب أشنع الصفات إلى أهلها، كتناول ما لا تطيقه الطبيعة البشرية السوية، من اليرابيع والصّباب³ والجُرذان والحيات، ومن أخلاق ذميمة كذِكْر عورة الآخر، والهجاء الفاحش، وانقضاض بعضهم على البعض، وقد بلغ في تعدّيه على العرب أن شبّه حالهم نتيجة تجرّدهم من فضائل بني البشر بمن استبدلت جلود الخنزير بجلودهم، وفي ذلك مساواة للعرب بأخبث الحيوانات وأقذرها، ونفي لنسبة الفضائل البشرية إلى العرب.

¹ يمكن تفسير عدم التصريح باسم الكتاب لسببين، فأما الأول فيرجع إلى عدم رغبة التّوحيدي في ذكر اسم الكتاب، وتعيين مؤلفه نظرًا إلى شيوعه وانتشاره الكبير في ذلك العصر، وأما الثاني: فيعود إلى وجود مقصد خفي، ورغبة دفيئة لدى الأديب في إخفاء عنوان الكتاب، وعدم تعيين اسم مؤلفه الكامل؛ لأنها أسلم طريقة تمكنه من توجيه نقده إلى هذه الشخصية بصورة مباشرة، وتمنحه السعة في هجائه والاقتباس من أقواله والزيادة عليها من دون أن يتسلط عليه أحد فيما يريد أن يفصح عنه للوزير ابن سعدان بشكل خاص، وإني لأميل إلى ترجيح السبب الثاني، وذلك لأن اختيار التّوحيدي لشخصية الجيهاني لم يكن اعتباطيًا، بل لغاية دفيئة في توظيف هذه الشخصية الواقعية في المحاوره بشكل رمزي، الأمر الذي يتيح إليه الحرية في النقد والإقذاع.

² أشار محققا كتاب الإمتاع والمؤانسة إلى شهرة اثنين بهذه النسبة، فأما الأول فهو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن نصر، وأما الثاني فهو محمد بن أحمد، وقد أوضحنا بأن ابن النديم قد صنف محمد بن أحمد من رؤساء المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة، ويصنفون في نصره الأثينية، ولكن عندما رجعت إلى الفهرست لابن النديم، وجدت أنه قد ألحق الشاعر الجيهاني في ذلك الصنف، وليس الجيهاني، هذا وقد بحثت عن وجود بلدة أو قبيلة (الجيهان) فوجدت كتابًا ذُكرت فيه هذه القبيلة وبيّن فيه أنهم من أهل المريدسية وفيهم من أهل بريدة في المملكة العربية السعودية، وأستبعد أن يكون القصد بالجيهاني قبيلة جيهان في المملكة العربية السعودية؛ لأن القبيلة المعنية بالبحث مدارها مدينة الجيهان بفارس وليست جيهان. وفي موضع آخر يروي ابن النديم أن أبي علي محمد بن أحمد الجيهاني كان ثوبًا، ووزير نصر بن أحمد الساماني، وله كتاب المسالك والممالك، رغم أنني لم أجد ما يشير إلى فضله وشرفه.

هذا وقد أضاف صاحب معجم المؤلفين أن أبي عبد الله أحمد الجيهاني وأبي عبد الله محمد الجيهاني كانا أدبيين، ولكن الأول تولى الوزارة بخراسان، وأما الآخر فتولى وزارة السامانية ببخارى، ونسب إليهما كتاب المسالك والممالك، كما ذكر الصفدي أن أحمد الجيهاني كان أديبًا فاضلاً، وأما الحموي وكحالة فقد أكدا أن محمد الجيهاني هو الذي تولى التدبير في عصر نصر بن أحمد، وكان مبتلى بالمذهب. ورغم تشابه الأدلة وتعلق القرائن التي تمكننا من الاهتداء إلى الشخصية التي قصدها التّوحيدي، إلا أنني أجد ميلاً إلى أن المقصود هو أبي علي محمد بن أحمد الجيهاني بناء على ما أشرت إليه أعلاه، وما ورد في ترجمة الأعلام، فقد ذكر أغلب من ترجم لأبي عبد الله أحمد الجيهاني أنه كان صاحب أدب فاضل، وهذه شهادة تجعلني أحذر من نسبة الكتاب إليه، في حين أنني أجد أن من الصفات التي ذكرت عن محمد بن أحمد الجيهاني من تدخل في شؤون الآخرين، ورميهم بالكفر، إضافة إلى طبيعة الشخصية التي يظهرها لنا الخبر، فالجيهاني شخصية مزاجية تقيم الأفراد بحسب ما تهوى وتشتهي، متناسية جهود الآخرين، وقد يصل بها الغرور والاعتداد بالنفس إلى حرمان الآخرين من حقوقهم عندما تخالف رغباتهم ما تطرب إليه نفسه.

ينظر: ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت - لبنان، ط2، 1997م، ج1، ص 170، 411. ينظر أيضًا: العبودي، محمد بن ناصر، معجم أسر بريدة، دار الوثائق للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، 2010م، ج3، ص 191-192. وينظر أيضًا: الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م، ج1، ص 445، ص 247، وهامش ج5، ص 2317. وينظر أيضًا: الصفدي، خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، ج2، ص 58-59، وج8، ص 36-37. وينظر أيضًا: كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، ج2، ص 165.

³ جمع ضباب، والضَّبُّ من دواب الأرض، وسميت بذلك لِتَجْمَعِ خَلْقُهَا وَلَحْمُهَا، ينظر: الرازي، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م، ج3، ص 358.

ولم يكتف الجيهاني بما أورده من حجج فقد سعى إلى التقليل من شأن السلطة السياسية العربية في عصر ملك الفرس وهو كسرى الذي كان بلغ في استهزائه واستخفافه بالعرب أن يلقب ملك العرب بسكان شاه، ويقصد به ملك الكلاب. ويظهر وعي التوحيدى بأهمية صيانة الوجوه والابتعاد عن إيراد سيء الأقوال لما في ذلك من تهديد وإساءة إلى وجهه، ولعلّ دليلنا على ذلك ما أشار إليه التوحيدى من ترفع عن المتابعة في سرد أقوال الجيهاني والذي عبر عنه بقوله: "وكلاماً كثيراً من هذا الصواب أرفع قدره عن مثله، وإن كان يضع من نفسه بفضل قوله"¹.

ومن الطريف الإشارة إلى أن التوحيدى قد اتخذ شخصية الجيهاني وسيلة رمزية تمكّنه من التعبير عما في نفسه من حمية للعرب، فشرع في إيراد الحجج المتنوعة التي تغند كلّ الحجج والادعاءات الباطلة التي سعى الجيهاني في إيرادها للاستتقاص من العرب، منها: حجة تناول العربي لليرابيع والضّباب والجُرذان، فقد وظّف التوحيدى الاستقهام الإنكاري كعمل لغوي غير مباشر للتعبير عن استهجانه والذي عبر عنها بقوله:

"أتراه لا يعلم لو نزل ذلك القفر وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوي وتلك الفيافي والموامي²، كلّ كسرى كان في الفرس، ... ما كانوا يعدون هذه الأحوال، لأنّ من جاع أكلّ ما وجد، وطعم ما لحق، وشرب ما قدر عليه"³ لغاية التعبير عن استهجانه للحجة التي جاء بها الجيهاني فقد بين التوحيدى أن لو نزل ملوك الأمم وأمرأوها وقياصرها ابتداءً من كسرى الفرس، في فيافي الجزيرة العربية ومواميها لما تعجبوا من تناول اليرابيع والضّباب والجُرذان والحيات نظراً لطبيعة الظروف البيئية التي تفرض على من انتمى إلى تلك الأراضي أن يتكيف معها، طمعاً منه في الحياة، وطلباً للبقاء، وخوفاً من الموت والفناء.

وأضاف التوحيدى تساؤلاً آخرًا استهدف فيه الملك الفارسي ليؤكد أن من قاسى المرارة، وواجه المصاعب، لن يتعجب من تناول كلّ ما حمض ومرّ، وخبث وضرّ، مشيراً إلى جهل وظلم وجور من ينكر هذا الواقع، وهذا ما عبر عنه التوحيدى بقوله:

"أترى أنوشروان إذا وقع إلى فيافي بني أسد وبرّ (وبار) وسفوح طيبة، ورمل يبرين وساحة هبير، وجاع وعطش وعري، أما كان يأكلّ اليربوع والجُرذان، وما كان يشرب بول الجمل وماء البئر، وما أسن في تلك الوهّات؟ أو ما كان يلبس البرجد والخميصة والسّم من الثياب وما هو دونه وأخشن؟

¹ التوحيدى، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص79.

² جمع المؤمأة، وهي المقاوز ويعني الصحراء، ينظر: الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط4، 1987م، ج6، ص2499.

³ الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص79.

بلى والله، ويأكل حشرات الأرض ونبات الجبال، وكل ما حمض ومرّ، وخبث وضرّ، هذا جهل من قائله، وحيف من منتحله"¹.

وتجلّت مساعي التّوحيديّ في إبطال ما جاء به الجيهاني عبر ما أورده من بيان تفصيلي أثبت فيه أفضلية العرب على بقية الأمم مشيرًا أن تحسن مستوى عيش الأمة إنما هو أمر يكون فيه الاعتماد على ما يغدقه المولى عليها من النعم، كما تبيّنت كثافة الأفعال الماضية في هذا المقطع ونهوضها بوظائف عديدة منها: عرض واقع العرب، وسرد تاريخهم، وبيان صفاتهم، وإثبات فضائلهم في جاهليّتهم الأولى والثّانية، وصولًا إلى الدعوة المحمدية، وانتشار الإسلام في ديارهم الّذي كان له الأثر البالغ في تخصيص العرب وتمييزها ممن دونها من الأمم باختيار النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين أشرف الناس نسبًا، وأكملهم خلقًا، وخُلُقًا، وهذا ما عبّر عنه التّوحيديّ بقوله:

"على أن العرب- رحمك الله- أحسن الناس حالًا وعيشًا إذا جادتهم السماء،...، وتنافسوا في أفعال المعروف، هذا وهم في مساقط رؤوسهم، بين جبالهم ورمالهم، ومناشئ آبائهم وأجدادهم،...، على جاهليّتهم الأولى والثّانية، وقد رأيت حين هبّت ريحهم وأشرقّت دولتهم بالدعوة، وانتشرت دعوتهم بالملّة، وعزّت ملّتهم بالنبوّ، وغلبت نبوتهم بالشّريعة، ورسخت شريعتهم بالخلافة، ونصّرت خلافتهم بالسياسة الدّينيّة والدّنيويّة، كيف تحوّلت جميع محاسن الأمم إليهم وكيف وقعت فضائل الأجيال عليهم من غير أن طلبوها وكدحوا في حيازتها أو تعبوا في نيلها، بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر، وهذه النوادر من المآثر عفوًّا، وقطنت بين أطناب بيوتهم سهوًا رهوًا، وهكذا يكون كلّ شيء تولّاه الله بتوقيفه، وساقه إلى أهله بتأييده، وحلّى مستحقّيه باختياره، ولا غالب لأمر الله، ولا مبدّل لحكم الله."²

ويدلّف التّوحيديّ من هذا الحديث إلى توضيح يؤكّد فيه أن العرب أمة تولّاها المولى بتوقيفه فهي أمة مسددة، قد ساق إلى أهلها تأييده، واجتنبى مستحقّها من الولاة والخلفاء باختيارهم للسلطة في أحسن الأمم وأفضلها، كما سعى إلى تعضيد رأيه، وتقويه حججه بالاستشهاد من القرآن الكريم، فأورد قوله جلّ في علاه: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كلّ شيء قدير} ³.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص80.

² المصدر نفسه، ج1، ص80-81.

³ القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 26.

ومن هذا المنظور، فقد تجلّى حرص التّوحيديّ على جذب انتباه الوزير، فاتخذ من تنويع الفنون النثرية طريقة تمكنه من تحقيق مقاصده الإقناعية الخفية فلجأ إلى تضمين حديث الليلة بخطبة، اشتملت على مقدمة قصيرة مهّدت له الولوج في عرض آرائه وبيانها بعد أن افتتحها بقوله: "عزّ إلهاً معبوداً، وجلّ ربّاً محموداً مقصوداً، وبعد،..."¹. ولعلنا نورد أبرز الطرائق التي اتخذها التّوحيديّ رغبة منه في التّشفي لأمة العرب وانصافها بذكر فضائلها والتّصريح بمحاسنها، ومن تلك الطرائق:

1. لجوء التّوحيديّ إلى توظيف أسلوب النفي لجعل الفكرة من قبيل الحقائق التي لا يرقى إليها الشك والتي كشف عنها قوله:

"فالذي لا شك فيه من وصف العرب، ولا جاد له من حالها، أنّه ليس على وجه الأرض جيلٌ من النّاس ينزلون القفر، ...، ويستبدّون في مصالحهم بكلّ ما عزّ وهان، وبكلّ ما قلّ وكثر، وبكلّ ما سهل وعسر، ...، ما للعرب فيما قدّمنا وصفه، وكّررنا شرحه من علمهم بالخصب والجذب، واللين والقسوة، والحرّ والبرد،"².

2. الانتقال من الضمير المتكلم للمفرد إلى الضمير المتكلم للجمع لغاية تلطيف العمل المهّد للوجه، والتقليل من أثر فرض التّهديد على الوزير، وهذا ما تقوم عليه الاستراتيجية الرابعة من استراتيجيات التّلطّف السّلبّي وقوامها (الحفاظ على حرمة المتلقّي وخصوصيته) والتي عبّر عنها التّوحيديّ بقوله: "ما للعرب فيما قدّمنا وصفه، كّررنا شرحه..."³.

فقد بيّن التّوحيديّ أنّ تفضيل العرب على غيرها من الأمم إنما جاء نتيجة ما اجتمع لها من أحسن عادات أهل الحضرة، وأظهر أخلاق البادية، وهي بذلك قد جمعت بين الحسنيين، موضحاً بأن انعدام المعاني الحسنة والفاضلة عند غيرهم إنما هو عائد لأسباب عدة، منها: غلبة أرذل الصّفات، وتملكهم أشنع الخصال، إضافة إلى سوء معاملاتهم، والكذب في أخبارهم، والخلف في وعودهم.

3. يقوم التّكرار في بيان فضائل العرب المتمثلة في علمهم "بالخصب، والجذب، واللين والقسوة، والحر والبرد، والرّياح المختلفة والسّحاب الكاذبة، والمخايل الصادقة، والأنواء المحمودة والمذمومة، والأسباب الغريبة العجيبة"⁴ على غاية تؤكّد نسبة هذه الفضائل إلى العرب، وتدفع الشكوك التي قد تساور نفس الوزير إزاءها.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 82.

² المصدر نفسه، ج1، ص 82.

³ المصدر نفسه، ج1، ص 82.

⁴ المصدر نفسه، ج1، ص 82.

4. ينهض الشاهد الشعري بوظيفة تأثيرية في الوزير عبر ما أثبتته التوحيدى للعرب من تجاوز في مفهوم الضيافة حد حسن الإكرام بالطعام والشراب إلى حد مسامرة الضيف، وتبادل الأحاديث معه حتى تطيب نفسه، وتطمئن روحه، فإن غلبه النعاس تركه ليرتاح¹ وهذا تفسير الشاهد الذي أورده التوحيدى والمتمثل في: "أحدثه إن الحديث من القرى ... وتعلم نفسي أنه سوف يهجع"².

5. يتجلى فخر العربي بحسبه ونسبه رغم معاناته، وقساوة معيشته بالخبر الذي أورده التوحيدى وفحواه أن رجلاً لقي عربياً يرتدي ملابس رثة وبالية في يوم شديد البرودة، فقال له: "أما تجد البرد يا أبا العرب؟ فقال: أمشي الخيزلي ويكفيني حسبي"³. وفي ذلك بيان أن نسب العربي يكفيه برد الشتاء، ويهون عليه حرارة الصيف.

ويعقب التوحيدى على الخبر بقوله:

"والفارسي لا يحسن هذا النمط، ولا يذوق هذا المعنى ولا يحلم بهذه اللطيفة، وكذلك الرومي والهندي وغيرهما من جميع العجم"⁴.

فقد أعرب التوحيدى عن موقفه من هذا الخبر معتمداً أربع طرائق: أولاً: الابتداء بالفرس، وتقديمها على بقية الأمم مما يزيد من تخصيص وتعيين المعنى المراد، وثانياً: تكرار أسلوب النفي في مواضع ثلاثة (لا يحسن، لا يذوق، لا يحلم) يزيد من تأكيد نفي وجود هذه الصفات لدى الفرس بشكل كلي، وثالثاً: التدرج في نفي الأفعال المضارعة عن الفرس، فبدأ الخطيب بنفي صفة الاستحسان، ومن ثم التذوق، وختمها بالحلم، وفي ذلك إشارة إلى صعوبة إدراك الفارسي لتلك الأخبار، وتذوق المعاني التي تنطوي عليها، لانعدام وجود هذه الصفات فيهم سواء في الحاضر

¹ الحسن، أحمد بن محمد، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2003 م، ج1، ص 1206.

² "لحافي لحاف الضيف والبيت بيته ... ولم يلهني عنه غزال مقنع أحدثه إن الحديث من القرى ... وتعلم نفسي أنه سوف يهجع". ضمن أبو تمام الشاهد في باب الأضياف والمديح من ديوان الحماسة، ونسبها إلى عتبة بن جبير، بيد أن صاحب المثل السائر، وخزانة الأدب قد نسباً هذه الأبيات إلى مسكين الذرامي، ينظر: الطائي، حبيب بن أوس، ديوان الحماسة، ضم شرح العلامة التبريزي بشكل مختصر، طبعه: محمد عبد القادر الرفاعي، مطبعة التوفيق، مصر، 1904، ج2، ص 266. وينظر أيضاً: البغدادى، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997م، ج4، ص 251 و252. وينظر أيضاً: الشيباني، محمد بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، 1982م، ج1، ص 361.

³ وفي نسخة أخرى من كتاب الإمتاع، فإن الرجل قال له: "أمشي الخيزلي ويكفيني حسبي"، ينظر: التوحيدى، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003م، ج1، ص 76.

⁴ التوحيدى، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، دار الذخائر، المكتبة العصرية، بيروت، ج1، ص 83.

أو المستقبل، ورابعتها: تكرار استخدام (هذا)، وهو اسم إشارة للقريب، فيه دلالة على أن هذه الصفات قريبة من العرب معروفة لديهم بخلاف الفرس.

6. يتدرج التّوحيديّ في ذكر فضائل العرب إلى تعيين الأسباب والبحث في العلل التي جعلت العرب أمة متألفة في الحالين، وقد عزاه إلى قيام الأسواق في الجاهلية، مثل دومة الجندل¹، وسوق هجر وهو المشقر² وغيرها من الأسواق كالتّي في عُمان واليمن، إضافة إلى كثرة الأسفار طلباً للزرق والتجارة التي مكنت العربيّ من تعلّم أصول البيع والشراء، وفنون الأخذ والعطاء. هذا ولم يغفل التّوحيديّ عن تأكيد وصول العرب إلى السيادة والرئاسة، وامتلاكهم القصور والدور والأنهار والمعادن وغيرها من الخيرات مع الإشارة إلى تمكّن العربيّ من اللحاق بركب من سبقه بآلاف السنين.

7. يتنزل إنجاز الأفعال المهددة لوجهي الجيهاني الإيجابي والسلبي عبر الاستراتيجية التصريحية التي اتخذها التّوحيديّ كوسيلتي توجيه وتحذير، فأما التّوجيه فقد كان لبيان ضرورة اهتداء الجيهاني إلى الحق، والبعد عن الجور والظلم، والترفع عما يعيب عقله ويشوّهه، وأما التحذير فكان لثلاثة أمور:

أولها: استثارة التّوحيديّ بالقول، فيكون ذلك مدعاة إلى انتهاك عرض الجيهاني، وتشويه وجهه بلسانه.

ثانيها: معارضة أقوال التّوحيديّ التي ستعرضه لتحمل مر الجواب.

ثالثها: طلب الاستزادة من التّوحيديّ لغاية الانتصار إلى عصبيته، وتأييد الباطل على الحق، وهذا ما عبّر عنه التّوحيديّ بقوله: "ليستحي الجيهاني بعد هذا البيان والكشف والإيضاح، بالإنصاف من القذع والسّفه اللّذين حشا بهما كتابه، وليرفع نفسه عما يشين العقل، ...؛ لا يسلط خصمه على عرضه بلسانه، ولا يستدعي مرّ الجواب بتعرضه ويرضى بالميسور في غالب أمره، فإنّ العصبية في الحق ربّما خذلت صاحبها وأسلمته، وأبدت عورته، واجتلبت مساءته، فكيف إذا كانت في

¹ دومة الجند هو حصن وقرى بين الشام والمدينة، قرب جبلي طيء، كانت به بنو كنانة من كلب، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى حصنها الذي بني بالجندل، ينظر: الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م، ج2، ص487.

² المشقر هو حصن بين نجران والبحرين، وقال بعضهم: إنه حصن بالبحرين عظيم لعبد القيس، ينظر: المصدر نفسه، ج5، ص134.

الباطل ونعوذ بالله أن نكون لفضل أمة من الأمم جاحدين، كما نعوذ به أن نكون بنقص أمة من الأمم جاهلين"¹.

ويتضح لنا مما سبق رغبة الأديب في أن يكون متلقّيه كالإمعة، لا يستثيره بقول، ولا يعارضه بشأن، فيكون هو سيد هذا المجلس بأقواله وأفعاله ووجهات نظره، وعلى جميع الحضور التسليم بها، وعدم مناقشته فيها.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن خطة التّوحيديّ في الردّ على افتراءات الجيهاني في حق العرب قامت على التّصريح المباشر بالأعمال المهدّدة للوجه FTAS فأخذ يورد أقوال الجيهاني المستفزة، ويعقّب عليها برد مفحم يتجاوز في الكم طولاً، ويتعداه في الببان انتهاكاً لحرمة الطّرف الآخر ولعلنا نبينها على النّحو الآتي:

1- نسبة شقاء العرب إلى الحرمان الإلهي والذّي دلّ عليه قول الجيهاني التالي:

"مما يدل على شرفنا وتقدّمنا وعزّنا وعلوّ مكاننا، أنّ الله أفاض علينا النّعم، ووسّع لدينا القسم وبوّأنا الجنان والأرياف، ونعمنا وأترفنا. ولم يفعل هذا بالعرب، بل أشقاهم وعذبهم، وضيق عليهم وحرّمهم، وجمعهم في جزيرة حرجة، ورقعة صغيرة، وسقاهم بأرنق ضاح، وبهذا يُعلّم أنّ المخصوص بالنعمة والمقصود بالكرامة فوق المقصود بالإهانة"².

يرمى التّوحيديّ الجيهاني بالإطّباب في بيان شقاء العرب مشيراً إلى أنّه قد حشى كتابه بحديث لا فائدة منه متوهماً الحصول على علة ومنقصة تنسب إلى العرب لا جواب عنها ولا نظير لها، كما أوضح التّوحيديّ بأنّ الأمر لو كان كما زعم "لما خفي على غيره وتجلّى له"³، فهو في مرتبة دونيّة لا ترقى إلى اكتشاف حقائق الأمور مما اتخذها التّوحيديّ وسيلة تمكّنه من قذف الجيهاني بالجهل بالنعمة والغفلة عن إدراك الحكمة من التدبير الإلهي.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 85-86.

² المصدر نفسه، ج1، ص 86-87.

³ المصدر نفسه، ج1، ص 87.

وقد ظهر الاستهزاء بالجهاني وبأسلوبه عندما بين التّوحيديّ فساد عقله وسوء منطقته الذي يرى فيه أنّ الفقر أمر معيب، يبعد المرء عن الشرف، مبيّنًا أن الأمر لو كان كما يعتقد هو، لكان البصير أشرف حالًا من الأعمى، والغني أفضل من الفقير. كما استعرض التّوحيديّ أنواع النعم التي من الله بها على العباد، فبين أنّ منها ما كانت عامة بلا استحقاق عدلًا وحكمة منه سبحانه، ومنها ما كانت جزاء وثوبًا خاصًا للمستحق على عمله واجتهاده، وفي النوع الثاني يكمن القصد الذي أراد التّوحيديّ والمتمثل في أنّ العرب هي الأمة الموقّعة والطّائفة التي استحققت هذا التّفضيل وتلك الخصوصية على من سواها من الأمم المصنفة في النوع الأوّل نتيجة جدّها واجتهادها وسعيها الدؤوب في الارتقاء بنفسها.

وينزل التّوحيديّ الجيهاني منزلة الطّائش الهائج الذي هو في حاجة إلى النّصح والتّوجيه بضرورة تهدئة نفسه من اضطرابها، ودعوته إلى الانصرف عن الجهالة والخفة، مبيّنًا أن النّاظر إلى الأمر بعين الإنصاف، لن يتوانى عن الاعتراف بهذا الفضل، وتسليمه لأهله، مشيرًا إلى أن التّواضع للحق والصّواب لا يزيد المرء إلّا عزًّا وشرّفًا، ولا يزيده الوقوف مع الباطل إلّا ذلّة ومهانة، وفي قوله هذا تضمين لحديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو، إلّا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله»¹.

ويختم التّوحيديّ ردّه على حجة الجيهاني المشار إليها أعلاه بالاستناد إلى خلاصة بينها أبي سليمان وفحواها أن العزّ حينما تعذر كمال نسبته إلى العرب لما فيها من نقائص تدخلها في زمرة الذين امتزجت فضائلهم بالنواقص فهو لا محالة منتف النسبة عما سواها من الأمم.

¹ تخريج الحديث بإسناد صحيح، حدثنا يحيى بن أيوب، وقتيبة، وابن حجر، قالوا: حدثنا إسماعيل وهو ابن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو، إلّا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله»، ينظر: القشيري، مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربي - بيروت، دت، ج4، ص 2001.

2- افتقار العرب للكتب في مجالات متنوعة. يتابع الأديب استهداف الجيهاني الذي يقول: "ليس للعرب كتاب إقليدس¹ ولا المجسطي² ولا الموسيقى ولا كتاب الفلاحة، ولا الطب ولا العلاج، ولا ما يجري في مصالح الأبدان، ويدخل في خواص الأنفس"³.

ولتفنيد هذه الحجة، ينزع النص منزعا تعليميا مباشرا وصريحا يحل فيه التوحيد الجيهاني محل المتعلم ليكشف عن أخطائه ويبين له الصواب، فأخذ التوحيدي في بيان الفرق بين النوع الإلهي والبشري، وهما الطباعي والصناعي، موضحا أن الكتب التي ذكرها الجيهاني قد يعتبرها أصحابها أنها كتب إلهية، بينما يعتبرها آخرون أنها كتب امتزج فيها الإلهي بما هو بشري لما دخلها من تحريف وتزييف، كما يمكن أن تكون من وضع البشر، ولكن يقدسها آخرون ويعتبرونها كتباً إلهية، وعلى إثر ذلك، فقد اعتبر التوحيدي القضية إذن قضية ذوقية اعتبارية، تخضع لمذهب الشخص وذوقه، ومرجعياته الدينية والفكرية والثقافية.

¹ اعتمد التوحيدي قول ابن عباد مبيّناً أن إقليدس اسم كتاب، وغلط الصيغاني قول ابن عباد في وجهين: الأول: أن إقليدس اسم لمؤلف الكتاب، والثاني: أنه أوقليدس بزيادة الواو، وهو القول الذي مال إليه الفيروز آبادي، كما ناقش صاحب تاج العروس القولين، مستعرضاً رأي اللغوي محمد بن الطيب الفاسي الذي يقول فيه: إن من المشهور إطلاق اسم المؤلف على كتاب، وقلما من يميز بين اسم الكتاب ومؤلفه، فهو يعذر ابن عباد في إعراضه عن ذكر اسم الكتاب، والاكتفاء بنسبته إلى مؤلفه مظهراً لأخلاق العلماء والفضلاء في بيان آرائهم الشخصية مع الحفاظ على قدر الآخرين، واحترام مكانتهم العلمية، والتماس الأعذار إليهم، وفي المقابل فقد بين الزبيدي القبح في عدم تمييز أحد أبرز أئمة اللغة، وهو ابن عباد، بين اسم الكتاب ومصنّفه، مشيراً إلى أنه لم يحسن الجواب، وسواء أكان اسم مؤلف الكتاب إقليدس، أو أوقليدس، أو أفليدس، فإن الكتاب الذي صنّفه هو كتاب الأسطوسات والذي جمع فيه أصول الهندسة. ورغم الاختلاف وتباين الأقوال، فإني أميل إلى رأي الصيغاني، والفيروز آبادي في أن انتشار صيت العالم، وذويع اسمه مدعاة إلى إغفال أسماء مصنّفاته، ونسبة أشهرها إليه، وهذا ما ظهر في مصنّفات كثيرة منها ما أورده الخوارزمي عند تعريفه بكتاب الأسطوسات.

ينظر: بن عباد إسماعيل، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد آل ياسين، عالم الكتب، ط1، 1994م، ج6، ص 84. وينظر أيضاً: الصغاني الحسن بن محمد، العباب الزاخر واللباب الفاخر، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق - بغداد، ط1، 1987م، حرف السين، ج1، ص 359. وينظر أيضاً: الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط8، 2005م، ج1، ص 567. وينظر أيضاً: الزبيدي محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ومصطفى حجازي، دار الهداية، 1965م، ج16، ص 390-391، 114. وينظر أيضاً: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تحقيق: محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب - القاهرة مصر، ط1، 2004م، ج1، ص 144. وينظر أيضاً: الخوارزمي محمد بن أحمد، مفاتيح العلوم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط2، دت، ج1، ص 225.

² المجسطي، بفتح الميم والجيم، وقيل المجسطي بكسر: الميم والجيم؛ وتخفيف الباء، كما أورد صاحب تكملة المعاجم المجسطي، وضعه بطليموس الفلوزي الحكيم، في علم الهيئة، وصار حجة في علمي الهندسة والفلك، عزبه حنين بن إسحاق في زمن المأمون إلى اللغة العربية، ينظر المصدر نفسه: الزبيدي محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، ج20، ص 91. وينظر أيضاً: مصطفى إبراهيم، الزيات أحمد، عبد القادر حامد، النجار محمد، المعجم الوسيط، ج2، ص 855. وينظر أيضاً: عبد الله مصطفى، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الحاج خليفة، مكتبة المثنى - بغداد، 1941م، ج2، ص 1594. وينظر أيضاً: دوزي رينهاردت بيتر، أن، =تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط1، 2000م، ج10، ص 20.

³ التوحيدي، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 89.

هذا ويستخف التّوحيديّ من قدر الجيهاني، ويهوي به من المكانة العالية التي رسمها لنفسه، إلى مكانة تسوغ للتّوحيديّ الشروع في قذفه بالجور والظلم والنقص والمكابرة والادعاء، مشيرًا إلى أن الجيهاني يظلم نفسه بالاستناد إلى هذه الحجة الواهنة التي تكشف عن نقص في علمه وسوء في خلقه، موضحًا أنّ من العار أن يعيب المرء أخاه لعب فيه، فلا يكاد ينسب أي كتاب من تلك الكتب التي بينّها الجيهاني على تنوع فنونها إلى الفرس مما يقطع الحجة عليه مؤكّدًا هوانها.

ولم يكتف التّوحيديّ بما سبق، بل لجأ إلى التّلاعب في الأدوار، فأخذ يسرد الحجج على لسان الجيهانيّ ويسعى إلى دحضها، منها قوله:

"فإن قال: هو لليونان، ويونان من العجم، والفرس من العجم، فأنا أخرج هذه الفضيلة من العجم إلى العجم فهذا منه حيف على نفسه، وشهادة على نقصه، لأنّه لو فاخر يونان لم يستطع أن يدّعي هذا للفرس، ولا يمكنه أن يقول: نحن أيضًا عجم، وفضيلتكم في هذه الكتب والصناعة متّصلة بنا، وراجعة إلينا. ومتى قال جُبه بالمكروه وقوبل بالقذع، وقيل له: صه، كما يقال للجاهل- إن لم تقل له: «اخشأ» كما يقال- في كلّ الأحاديث، وإن أغفلته ظلمت نفسي، ومن حابي خصمه غلب"¹.

ومن هذه الزاوية، تتضح لنا رغبة التّوحيديّ في إيصال رسالة تحذيرية إلى الجيهاني مفادها الابتعاد عن نسبة فضائل اليونان وما صنفته من كتب إلى الفرس بحجة الانتماء إلى أصل واحد وهو العجم، مشيرًا إلى ما سيترتب على الجيهاني نتيجة عدم الالتزام بذلك من المواجهة بما يكره، والمقابلة بالكلام الفاحش القبيح، ومساواته بالجاهل إسكاتًا وذلاً في كلّ حديث، موضحًا أنّ ظلم النفس مُتحقق في حال الغفلة عن مواجهة هذا المدّعي، وأن نصرة الخصم على حساب الحق والصّواب لا تورث لصاحبها إلّا الذلّ المتمثّل في غلبة الآخر عليه.

ولعلّ من صفوة القول الإشارة إلى إن المحاورّة في هذه الليلة قد مالت نحو تحقيق الغلبة ونصرة القومية العربيّة أكثر من ميلها نحو إقناع الآخر الأمر الذي يدفعنا إلى إثارة التساؤل الآتي: هل التجأ التّوحيديّ إلى المغالطة كما يفعل أصحاب الغلبة أم أن قوله صواب وحججه قوية مقنعة؟

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 89-90.

لقد حشد التّوحيديّ عدداً من الانتهاكات التي تهدّد وجه الجيهاني السّليبيّ وذلك عبر استشهادهم بالأخبار والمرويات التي تعضد رأيه وتثبت صحة ما جاء به من نفي استحقاق الفرس لأنّ تنتسب الفضائل إليها، فنجده يستشهد بأحاديث القاضي صاحب الرئاسة والسّلطة القانونية أبي حامد المروزي¹ والتي شغلت ما يقارب أربعة وخمسين سطراً؛ ليثبت خساسة أفعال الفرس وتجردهم من الفكرة السليمة، وإقبالهم على ارتكاب المحرمات مما يحقّ عنهم نسبة أي فضيلة، وهو ما عبّر عنه المروزي بقوله:

"لو كانت الفضائل كلّها بعقدها وسمطها، ونظمها ونثرها، مجموعة للفرس، ومصبوبة على رؤسهم، ومعلّقة بأذانهم، وطالعة من جباههم، لكان لا ينبغي أن يذكروا شأنها، وأن يخرسوا عن دقّها وجلّها، مع نيكهم الأمهات والأخوات والبنات فإنّ هذا شيء كرهه بالطباع، وضعيف بالسّماع، ومردود عند كلّ ذي فطرة سليمة، ومستبشع في نفس كلّ من له جبلة معتدلة"².

هذا ويسعى التّوحيديّ إلى خنق الحوار³ بتوظيف معجم دلالي لرصد أسوء خصال الفرس وأقبحها والتي تمثّلت في الطغيان والبهتان والكذب والافتراء وخبث الطباع واستحسان قبيح العادات، وتجلّى ذلك بخاصة عندما استعرض عدداً من الحجج التي تثبت أنّ زرادشت⁴ لم يكن نبياً لما جاء به من مخالفات للحكمة الإلهية والعقلية والطبيعية نوضحها في الآتي:

أولها: الحجة الدينية التي تقوم على تحريم تناول الميتة، وخبث المطعومات، والترغيب في النكاح، وتحريم اللواط، واستشهادهم بحديث نبوي ضعيف، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: (سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب)⁵؛ ليبين حماقتهم في ادعاء نزول كتاب سماوي عليهم.

¹ أحمد بن بشر بن عامر، فقيه بصري شافعي، له منصفات عديدة منها: الجامع في المذهب، وشرح مختصر المزني، كان إماماً جليلاً أخذ عنه فقهاء البصرة، وافته المنية في سنة اثنتين وستين وثلاث مائة. الصفدي، خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، ج6، ص 165.

² التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 90.

³ يقمّ التّوحيديّ زرادشت الذي يعتبره بعض الفرس نبياً في المناظرة، وهذا ما عدّه العمري من انزلاقات الخطاب المؤدية التي خنق الحوار فقد سعى التّوحيديّ إلى إقحام مقدس في مقام خلافي، ينظر: العمري محمد، دائرة الحوار ومزالق العنف، أفريقيا الشرق، المغرب - بيروت، 2002، ص 15.

⁴ زرادشت الفارسي، هو من جدد دين المجوسية وأظهره، وزاد فيه، وله كتاب اعتقد فيه وجود إلهين النور والظلمة، وحرّم فيه إتيان النساء لما فيه من دعوة إلى الشهوة، وأباح اللواط لما فيه من انقطاع النسل، وأحلّ أكل الميتة، ينظر: الرّبيدي محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، ج16، ص 495، ج25، ص 418.

⁵ حديث ضعيف لم يصح عند المحدثين، وما ورد من تنمة هذا الحديث (غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم)، ينظر: الألباني محمد ناصر الدين، غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، المكتب الإسلامي - بيروت، ط3، 1985م، ج1، ص 45.

ثانيها: الحجة العقلية فإن العقل يأبى أن يتقبل فكرة أن الله جل في علاه أرسل نبياً يدعو إلى عبادة إلهين من دونه، مبيناً خلو الكتب السماوية السابقة كالتي نزلت على اليهود والنصارى من الإشارة إلى زرادشت، ونسبة النبوة إليه، موظفاً أسلوب الاستفهام الذي يخرج من معناه إلى معنى بلاغي آخر، وهو الإنكار، وذلك في قوله: "كيف يبعث الله نبياً يدعو إلى إلهين اثنين؟".

ثالثها: الحجة الطبيعية، فإن أصحاب الفطرة السوية يشمئزون من ارتكاب اللواط والزنا بالمحارم، منوهاً بأن البهائم تتأى عن ارتكاب هذا الفعل، فكيف بالإنسان الذي كرمه مولاه بالعقل، وجعل له سبيلاً حلالاً لإفراغ شهوته بالنكاح؟

وبناء على ما سبق، أكد التوحيدى ضرورة عدم الالتفات إلى الادعاءات الباطلة التي يدعو إليها زرادشت، فإن العقل يرفضها، والغيرة والحمية والأنفة تستنكرها، والنفس السوية تنقز منها، مستعرضاً ما يُستحال لزرادشت الإتيان به من خوارق الأمور، كنثر النجوم في السماء، وجعل الشمس تطلع من المغرب بدلاً من المشرق، وتفتت الجبال، وتقليل ماء البحار، وتسيير الكواكب على الأرض. كما استذكر التوحيدى موقف ملك الفرس السابق مع مزدك¹ مبدياً استحسانه بما صنعه ملكهم به من قتله وإبادته نتيجة دعوته إلى الإباحية، الأمر الذي يوحى برغبة التوحيدى وتحريضه على ضرورة تطبيق الحد ذاته على زرادشت.

ويظهر التناقض في أقوال المروروذي بشكل جلي عندما حاول اختلاق الأعذار للعرب، سعياً منه إلى تبرير موقفهم في حال تسليمهم بتلك الادعاءات الباطلة، والغريب في الأمر أنه يذكر في سياق هذا البيان، أنهم لم يسلموا بتلك الادعاءات؛ لصفات فاضلة عرفوا بها، فقد امتازت نفوسهم بالكرم، وطباعهم بالاعتدال، وحزمهم بالشدة، وأرواحهم وعاداتهم بالرضى، ولعل هذا يدعونا إلى أن نتساءل عن أسباب سعي المروروذي إلى التبرير للعرب واختلاق الأعذار والبناء على الظنون والشكوك والأوهام في حال عدم تسليمهم بتلك الادعاءات؟، وهل هو في مقام مفاضلة محضة يقارن فيها حال العرب بحال الفرس أم هو في مقام رد على كل مدّعٍ ومستخف بشأن العرب وفضائلهم؟

¹ مزدك صاحب مذهب الإباحة عند المجوس، يدعو إلى عدم التكليف، والتسلط على اتباع الشهوات، نبغ أيام قباذ والد أنو شروان، ودعا إلى مذهبه، فقبله الأخير، ولكنه عندما نظر في حاله قتله، ينظر: الصفدي، خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، ج10، ص 40-41.

لقد ظهرت مساعي المرورودي في الرد على كلّ من تسول له نفسه الاستنقاص من قدر العرب احتجاجاً بالعادة جاهلية التي حرّمها الإسلام وهي (وأد البنات)¹ موضعاً أنّ العرب لما خشيت العيب والعار والقبح الذي قد ينسب إليهم رغبت في سد تلك الذرائع، فلجأت إلى تلك العادة الجاهلية حتّى تبعد عنها كلّ ما يجلب لها العار، وتترفع عن كلّ ما يعد قبيحاً في ذلك العصر. هذا ولم يكتف التّوحيديّ بما أورده من حجج، فأخذ يستعرض أبرز ما قاله أبو الحسن الأنصاري² في شأن الفرس رغم ما تضمّنته أقواله من أعمال مهذّدة تسيء لأمة الفرس بشكل صريح ومباشر لعلنا نجملها في الآتي:

1. إسقاط الرموز الدينية لدى الفرس بازدراء من يعتقد الفرس بأنه نبي مرسل.
2. رمي عقول الفرس بالضعف في قبول الادعاءات المنافية للفطرة.
3. توظيف معجم دلالي يفيد استنقاص الفرس والتحقيق من شأنهم (جهل، ضعف، غافلون، لا يفطن).
4. استخدام أسلوب المقارنة، فقارن بين عقول الفرس وعقول العرب عن طريق الاستشهاد:

أ. بذكر حديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام: (اغتربوا لا تضوا)³، موضعاً النّهج الذي يسير عليه العرب عند نكاحهم من تفضيل الزّواج من الغرائب على القرائب؛ لأن في الزّواج من الغريبة التي لا تقرّبهم نسباً هو الأكثر نسلًا، والأقوى بنيةً، وعكس ذلك النكاح من الأهل والقرائب⁴، هذا وقد صرّح بحكم الصّوّى⁵ الشرعي في أنه مكروه، مظهرًا الخصوصية التي يتمتع بها العرب

¹ وأد بمعنى دفن، يعرض المرورودي عادة بعض الرجال في الجاهلية الذين إذا ولدت لها بنت دفنها خشية تعرضه للعار نتيجة ولادت زوجه لها، ينظر: الزبيدي محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، ج9، ص 246.

² لقبت أسماء كثيرة بأبي الحسن الأنصاري، ولكنها تبعد بشكل كبير زمنيًا عن أعلام القرن الرابع الهجري، ومن تلك الأعلام الملقبة بأبي الحسن الأنصاري: سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد الأنصاري الأندلسي، وهو محدث من أهل بلنسية الذي ولد في عام 523هـ، علي بن عبد الواحد بن محمد الأنصاري السجلماسي الجزائري، فقيه مالكي، المتوفى في عام 1057هـ، علي بن عتيق بن عيسى الأنصاري الخزرجي، من أهل قرطبة، كان بصيرًا بالقراءات ولد في عام 523هـ، ولعلي أنفق مع محققي الإمتاع في كونه أبي الحسن الأنطاكي، علي بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن بشر، ولد في أنطاكية في عام 279 هـ، وقد كان فقيهاً عالمًا، ورواية لأحاديث كثيرة عن أهل الشام والبصرة، وافته المنية في عام 377 هـ. ينظر: الزركلي، محمود بن محمد، الأعلام، ج3، ص 84، وج4، ص 309-310، وينظر أيضًا: القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج2، ص 308-309.

³ ضمن هذا الحديث في كتاب التّخريج، بعد قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تتكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويًا)، مبيّنًا قول ابن الصلاح في كونه حديثاً ليس له أصل معتمد، كما ذكر في غريب الحديث، والتّخريج من غير نسبة، ينظر: العراقي، وابن السبكي، والزيدي، تخرّيج أحاديث إحياء علوم الدين، استخراج: أبي عبد الله محمود بن محمد الحدّاد، دار العاصمة للنشر - الرياض، ط1، 1987م، ج2، ص 971. وينظر أيضًا: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، غريب الحديث، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني - بغداد، ط1، 1397م، ج3، ص 737.

⁴ الأزهرى محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، ج 12، ص 67.

⁵ الصّوّى هي دقة العظم، وقلة الجسم خُلقةً، ينظر: الزبيدي محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، ج38، ص 474.

نتيجة الطبيعة السليمة، والفطرة القويمة، والبديهة الحاضرة، والأصل المشرف، والعادة السوية، مستدرّكاً قوله ببيان عام يقذف فيه الفرس بصفات تقيد الجهل والغفلة مستثنياً منهم كلّ من تحلى بصفتي الذكاء، والإحاطة بجميع الأمور، وذلك لعدم إمكانية فوات هذه الأمور وإغفالها منه.

ب. إيراد شواهد شعرية تعضّد من رأيه، وتؤكد تفضيل العربيّ في نكاح الأبعاد¹، منها:
- ما يرويه الأصمعي² عن رجل يمدح صاحبه فيقول:
"فتى لم تلده بنت عمّ قريبة... فيضوى وقد يضى رديد الأقارب"³.

- الاستشهاد بقول أحد الشعراء:

"أنذرت من كان بعيد الهمّ ... تزويج أولاد بنات العمّ
ليس بناج من ضوى أو سقم ... وأنت إن أطعمته لا ينمي"⁴.

- الاستشهاد بقول الأسدي⁵:

"ولست بضايّ تموج عظامه ... ولادته في خالد بعد خالد
تردّد حتّى عمّه خال أمه ... إلى نسب أدنى من السر واحد"⁶

¹ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج 3، ص 173. وينظر أيضاً: الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، ج 14، ص 489.
² عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي، يكنى أبو سعيد الأصمعي، وأبا القُذَيْن، بصري المذهب، كان راوياً للأخبار، وإماماً في اللغة، قال عنه الشافعي: "ما عبر أحد عن العرب بمثل عبارة الأصمعي"، كما قال عنه ابن معين: "لم يكن يكذب وكان من أعلم الناس في فنه". ينظر: الصفدي، خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، ج 19، ص 126-129. وينظر أيضاً: الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ج 1، ص 738.

³ لم يُذكر هذا البيت في كتاب الأسمعيات، وقد ورد ذكره في سمط اللّالي، ولسان العرب، ومجمع الأمثال من دون نسبة، وجاءت كلمة "القرائب" بدلاً عن الأقارب في شطر البيت الثاني، ينظر: الأصمعي، عبد الملك بن قريب، الأسمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون، دار المعارف - مصر، ط 7، 1993م. وينظر أيضاً: البكري، عبد الله بن عبد العزيز، سمط اللّالي في شرح أمالي القالي، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1936م، ج 1، ص 871. وينظر أيضاً: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج 3، ص 173. وينظر أيضاً: الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، ج 2، ص 343.

⁴ لم نعثّر على هذين البيتين في الكتب التي اطلعنا عليها، ويبدو أنها أبيات مختلفة.

⁵ أبو المستهل، الكميت بن زيد بن خنيس (ورد في الأعلام بن خنس) بن قيس الأسدي، شاعر هاشمي كوفي المذهب، مطلع على أخبار العرب وآدابها، من كتبه: الهاشميات في مدح بني هاشم وأهل البيت. ينظر: كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، ج 8، ص 147، وينظر أيضاً: الزركلي، محمود بن محمد، الأعلام، ج 5، ص 233.

⁶ ورد هذان البيتان في موضعين، ونسبنا إلى الأسدي، على هذه الصيغة وبزيادة بيت واحد:

"ولست بضايّ تموج عظامه ... ولادته في خالد بعد خالد

تقارب من آيائه أمّهاته ... إلى نسب أدنى من الشّر واحد

وفي أخوات أنكوهّن إخوة ... مشاغة فالحى للحى والد".

ينظر: الجاحظ عمرو بن بحر، البرصان والعرجان والعميان والحولان، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1989م، ج 1، ص 44، 363.

ج. الاستشهاد بما تقوله العرب: "أضواه حَقَّه"¹، ويعني به أن الضعف والنقص صفتان لا يمكن إنكارهما في المرء الضَّاوي، وكذلك قولهم: "ليس أضوى من القرائب، ولا أنجب من الغرائب"² والذي يحدث على الزواج من الغرائب لكونه أكثر نسلًا. كما يورد الأنصاري قول أحدهم لولده: "والله لقد كفيتك الضَّؤولة، واخترت لك الخؤولة"³.

هذا ويختتم الأنصاري مشاركاته بقياس حجة طبيعية علمية على بني البشر فحواها أن الرياح عندما تجيء من جهات مختلفة، فإنها تحول التراب من أرض إلى أرض أخرى مما يزيد من خصوبتها، فينمو زرعها ويكثر، وكذلك الحال مع بني البشر الذين خلقوا من تراب، فهم يعودون إلى أصلهم الذي يقوى ويشد عندما يعدل المرء عن زواج القرائب إلى الأبعاد.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن كل تلك الاستشهادات السابقة ما هي إلا استدلالات تؤكد أفضلية العرب على من سواها من الأمم، وتعتبر استراتيجية فاعلة من استراتيجيات التلطف الإيجابي لما تضيفه على منجزها من أريحية في السرد، وسعة في طرح الأفكار وإبداء الآراء باستخدام الأسلوب غير المباشر رغم ما يشوبها من ضغوط تهدد وجه متلقيها.

وعندما بلغت المحاور غايتها، وتمكّن التّوحيديّ من تحقيق مقاصده الخفية وغاياته الدّفينة، يظهر تفاعل الوزير، بعد أن أثر الصّمت وحسن الإنصات على المشاركة المستمرة في الحوار؛ نتيجة لوعيه التام بما تتطوي عليه المشاركة من تهديدات ومشكلات تعرّض وجهه الإيجابي للتهديد، وفي الآن ذاته، نجد أنّ أسلوب التّوحيديّ الذي عمد فيه إلى تنويع الاستراتيجيات التلطفية قد مكّن الوزير من تقبل الحقائق، وتجاهل تلميحات التّوحيديّ وانتهاكاته، فيتفاعل الوزير معه بكلّ أريحية، ويسعى إلى إظهار توافقه مع ما قدّمه التّوحيديّ مبدئيًا إعجابه الشديد بما جاء به، وكأنّه في شدة اتساعه إلهام أوحى إليه⁴، واصفًا إياه بالسيد المعظم⁵.

¹ ينسب الأزهري هذا القول لأبي العباس عن ابن الأعرابي، ينظر: الأزهري محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، ج 12، ص 67.
² ورد في اللباب قولهم: (الغرائب أنجب والقرائب أضوى)، كما أفرد الميداني بابًا أسماه (النزاع لا الأقارب)، وذكر فيه قولهم: "الغرائب لا القرائب". ينظر: الميداني، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، ج 2، ص 343. وينظر أيضًا: السّراج محمد علي، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، مراجعة: خير الدين شمسي باشا، دار الفكر - دمشق، ط 1، 1983م، ج 1، ص 263.

³ لم نعثر على نسبة لهذا القول.

⁴ النفث هو الإلهام والإلقاء، ينظر: الرّبيديّ محمّد بن محمّد، تاج العروس من جواهر القاموس، ج 5، ص 373.

⁵ قال الوزير للأديب: لقد كنت قرمًا إلى هذا النوع من الكلام، والقرم من الرجال، هو السيد المعظم، ينظر: مصطفى إبراهيم، الزيات أحمد، عبد القادر حامد، النجار محمد، المعجم الوسيط، ج 2، ص 730.

هذا وقد وظّف الوزير عنصر السّلطة P؛ ليوجه إلى التّوحيديّ أمره بتفريغ نفسه لكتابة ما جرى في تلك الليلة، محدّدًا المقدار الذي يكتبه، فلا يتجاوز الجزء، مبيّنًا أن ما سيكتبه لن يمر مرور الكرام، بل سيخضع إلى تقييمه، فيستلذ بطيبه، ويستخلص خفي معانيه، وفي أسلوبه إشارة تحذيرية متضمنة ينبه فيها الوزير التّوحيديّ بضرورة التحلي بالأمانة العلمية في الكتابة والنقل والرواية.

وتظهر شخصية التّوحيديّ في صورة الحمل الوديع الذي لا يعارض، ولا يناقش، ولا يجادل، بل يبدي موافقته بكلّ تلطف وتأدب، موظفًا الفعل المضارع "أفعل سامعًا مطيعًا"¹، ليؤكد رغبته المتجددة والمستمرة في بقاءه على عهد السّمع والطّاعة مع الوزير، ما شاء له المولى ذلك، وبهذا يتحقق الغرض من هذه المناظرة والتي قصد فيها التّوحيديّ إلى المباهاة والمماراة، وتحقيق الغلبة، وإفحام الخصم، وإظهار الفضل والشرف الذي هو مدعاة إلى الكشف عما في نفسه من حميّة للعرب وإن كلّفه الأمر الإساءة للآخرين وقذفهم بأشنع الصّفات².

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 96.

² يشير الغزالي إلى أن حب الإفحام والغلبة في المناظرة، وطلب الجاه والمباهاة مدعاة إلى إضمار الخباثت في النفس، وهو وهيج لجميع الأخلاق المذمومة، ينظر: الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، بيروت- لبنان، دار ابن حزم، ط1، 2005م، ص 56.

- خاتمة الفصل:

خلصنا في آخر هذا الفصل إلى الأثر الذي خلفه عامل القوة النسبية (السلطة)، والمتمثل في صورة سؤال الوزير المهّد لوجه التّوحيديّ، من زعزعة في العلاقة التّخاطبيّة التي تجمعهما، فقد تحوّل مفهوم صيانة الوجه وحمايتها من كلّ تهديد إلى مفهوم يعمد إلى المخاطرة بالوجه تهديدًا وانتهاكًا، نتيجة لزيادة حجم التهديد الذي تعرّض له وجه التّوحيديّ السّلبّي، فقد قيّد الوزير حرية التّوحيديّ في التّفاعل القوليّ نتيجة إصراره في الحصول على إجابة شافية عن السّؤال المهّد، وطمعه في الاستزادة من الأخبار التي أوردها التّوحيديّ الأمر الذي شكّل ضغطًا كبيرًا عليه سعى في التّخلص منه عبر مجموعة من الطّرائق التي احتّمى بها مخافة ومحاذرة ممّا يترتب عليه التّصريح المباشر بآرائه ووجهات نظره من تهديدات سلبية تضر بوجهه الإيجابي.

ولعلّ أبرز ما توقفنا عليه من تلك الطّرائق ما اعتمده التّوحيديّ من التّحوط بالتّقديم والتّأخير، وتوظيفه للدّعوات الوقائيّة، واتخاذه التّعميم وسيلة تمكّنه من التّحقّظ عن إبداء آرائه بشكل مباشر، علاوة على الاستشهاد بخبر ابن المقفع؛ ليخلص إلى نتيجة مؤداها أنّ للعرب محاسنّ خصّت بهم في كلّ مجال وصناعة، فهم أهل الفكر والعلم والفتنة بالفطرة، ونزعت على إثر ذلك العلاقة من المحاذرة إلى المجازفة والمكاشفة نتيجة إصرار الوزير على تغليب أفضلية أمة على بقية الأمم الأمر الذي ضاعف من حجم التهديد على وجه الوزير والتّوحيديّ.

وترجّح موقف التّوحيديّ بين حالين الإقناع والإقذاع، فأما الإقناع فقد عمد التّوحيديّ إليه رغبة في إقناع الوزير بأفكاره فاستعرض مجموعة من الوقائع التاريخية والأخبار المسموعة التي تثبت صحة ما جاء به، وأما الإقذاع فقد تمثّل في نقد التّوحيديّ اللّاذع لما جاء به الجيهاني من ادّعاءات مسيئة للعرب موظفًا في ذلك العديد من الاستراتيجيّات، هذا ولم يتوان التّوحيديّ عن إقامة خطة محكمة سعى من خلالها إلى تنفيذ افتراءات الجيهاني والرّد على ادّعاءاته؛ لتنزع المناظرة منزعًا تعليميًا بشكل مباشر وصريح.

ولا شك في أنّ وقوفنا على تلك الطّرائق مكّننا من الكشف عن رغبات التّوحيديّ الدّفينة في الانتصار إلى العرب تحقيقًا للغلبة وإن دفعه ذلك إلى الوقوع في العديد من مآزق التّفاعل القوليّ.

الفصل الثالث: الاعتذار عامل تهديد ووسيلة تحريض للانتهاك (المناظرة بين متى والسّيرافي أنموذجًا)

1. المناظرة في سياق التّداخل الأجناسيّ

2. الاعتذار تهديدًا وتحريضًا

- انتهاكات السّيرافي لوجه متى

- طرائق الوزير في التحريض على الانتهاكات

3. تغييب موقف متى وتصريح السّيرافي بالانتهاكات

الفصل الثالث: الاعتذار عامل تهديد ووسيلة تحريض للانتهاك

(المناظرة بين متى والسيرافي أنموذجاً)

تقوم الليلة الثامنة من ليالي الإمتاع والمؤانسة على مناظرة شهيرة جرت بين عالم لغوي جليل وهو أبي سعيد السيرافي¹، وفيلسوف منطقي كبير وهو متى بن يونس القنائي² في حضرة مجلس الوزير ابن الفرات لتسلط الضوء على الصراع بين الفكر الوافد، وبين الفكر العربي الإسلامي.

المناظرة في سياق التداخل الأجناسي

يستعرض التوحيدي المناظرة في إطار تداخل أجناسي بين مقامات عدة تمثلت في مقام المشافهة الذي يدور بين التوحيدي والوزير ابن سعدان، والمقام الترسلّي الموجّه إلى أبي الوفاء المهندس، ومقام الكتابة الذي يعيد فيه التوحيدي صياغة المناظرة على تمامها. وقد تجلّى مقام المشافهة في الخبر الذي يرويّه الوزير ابن سعدان للتوحيدي بخصوص رسالة تلقّاها من وهب بن يعيش الرقيّ اليهودي يدعو فيها إلى إدراك أهمية علم الفلسفة؛ لأنّه السبيل الموصل إلى بلوغ الحكمة ونيل السعادة وتحصيل الفوز في العاقبة، مشيراً إلى وجود فئة أخرى قد سلكت مسلكاً مغايراً، وأخذت في تصعيب علم المنطق وتهويله لاتصافهم بالغش والبخل واللؤم، وبعدهم عن إرادة النصيحة، وقذفهم طالبي هذا العلم بالخيبة، ومقابلتهم بالاستياء والحسد لا لشغف في طلب الحكمة، ولا سعياً في إظهار الحقيقة بل طمعاً في اتخاذ علوم المنطق والهندسة وسيلة للتكسب.

ويعقّب التوحيدي على تلك الرسالة بإجابة يستعرض فيها مذهب ابن يعيش، ويشير إلى مخالفه، ولما أظهر التوحيدي الموضوعيّة والحياديّة بتوظيفه استراتيجية (انفع الآخر) وهي إحدى استراتيجيّات التلطّف الإيجابي شرع في تفصيل المعاني التي تضمنتها رسالة ابن يعيش بعد أن

¹ هو الحسن بن عبد الله بن المرزباني السيرافي النحوي، كان من أكابر الفضلاء، وأفاضل الأدباء لما تحلّى به من زهد وعفة ونزاهة وحسن خلق، وقد كان عالماً لا نظير له في علم العربية، وكان أبوه مجوسياً، وله صنف تصانيف عديدة أكبرها شرح كتاب سيبويه، وافته المنية ببغداد في يوم الاثنين سنة ثمان وستين وثلاثمائة. ينظر: الأنباري عبد الرحمن بن محمد، نزّهة الألباء في طبقات الأدباء تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، ط3، 1985م، ج1، ص 227-229.

² هو متى بن يونس القنائي شيخ كبير وحكيم عرف بتفهم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة، وقد اشتهر بشرح كتاب أرسطاطاليس في فن المنطق، وتعليمه لتلامذته في حلقاته، ينظر: ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج5، ط1، 1994م، ص 153-154.

أعرب الوزير عن تأييده واهتمامه موظفًا في ذلك استراتيجيتان من استراتيجيات التّلفّ الإيجابي الجامعة والتي تقوم على خلق خلفية مشتركة، فقد اشتمل قول الوزير:

"هات -على بركة الله- فإني أحب أن أسمع في هذا الخطب كلّ ما فيه وأكثر ما يتّصل به"¹ على استراتيجيتين وهما (ابد اهتمامك بالآخر)، و(بالغ في التعبير عن إعجابك بالآخر)؛ لتكون بذلك حجة تمكّن التّوحيديّ من تصوير ذاته والتعبير عنها بالاستناد إلى المفارقة التي أشار إليها ابن يعيش بين كثرة العلوم وقصر عمر الإنسان ممّا يحول دون تحقيق الكمال، فتقوم على إثر ذلك الرسالة مقام التّوحيديّ العالم صاحب الطّموح الكبير والأمنيات العظيمة الذي قدم إلى بلاط الوزير ليجود بعلمه رغبة فيما عنده إلّا أنّه حُرِم الإحسان وقُوبل بالبخل ومنع العطاء².

ويتداخل المقام التّرسليّ الموجه إلى صديق التّوحيديّ أبي الوفاء المهندس مع مقام المشافهة بشكل مباشر ومن دون أيّ تمهيد مسبق تنبيّه في قول التّوحيديّ:

"ثم إنّي أيّها الشيخ -أحيّاك الله لأهل العلم وأحيى بك طالبيه- ذكرت للوزير مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح (الفضل بن) جعفر بن الفرات بين أبي سعيد السّيرافيّ وأبي بشر متى واختصرتها"³.

وينقل التّوحيديّ بصورة سريعة إلى مقام الكتابة خاضعًا لسلطان الوزير، ومجيبًا لأوامره المتمثلة في كتابة أحداث المناظرة والتي عبّر عنها بقوله:

"اكتب هذه المناظرة على التّمام، فإنّ شيئًا يجري في ذلك المجلس النّبيه بين هذين الشّيخين بحضرة أولئك الأعلام ينبغي أن يُعتمّ سماعه، وتُوعى فوائده، ولا يُتْهَون بشيء منه"⁴.

ولعلّ هذا ما يكشف لنا عن وعي التّوحيديّ بأهمية السّياق وما يشتمل عليه من مقتضيات إبحائيّة تسهم في تأسيس النّص لما يقدّمه من تمهيد يحدّد فيه الإطار الزمانيّ الذي عقدت فيه المناظرة سنة ست وعشرين وثلاثمائة، والإطار المكانيّ الكائن في مجلس الوزير ابن الفرات بحضور أكابر العلماء وفيهم أبو سعيد السّيرافيّ.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 105.

² البهلول عبد الله، الحجاج الجدلي خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التّراث العربيّ واليوناني، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان، ط1، 2016م، ص 270.

³ الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 107.

⁴ المصدر نفسه، ص 107 - 108.

وتنهض المناظرة على سؤال يستثير فيه الوزير ابن الفرات الحضور لمناظرة متى بن يونس في علم المنطق، فيقول فيه:

"ألا ينتدب منكم إنسان لمناظرة متى في حديث المنطق، فإنه يقول: لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين، إلا بما حويناها من المنطق وملكاناه من القيام به واستقدناه من واضعه على مراتبه وحدوده، فاطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه"¹.

وقد تجلّى اعتداد متى بنفسه وتعظيمه لمذهبه عبر توظيفه لضمير جمع المتكلم (نحن)؛ ليصرّح بذلك عن رغبته في حصر سبيل إدراك الحق وتمييزه على الباطل فيما يمتلكه هو من علوم ومعارف وحقائق اكتسبها من علم المنطق، ويتبيّن أثر هذا الاعتداد على الجماعة عندما لجأت إلى توظيف استراتيجية من استراتيجيات التلطف المباشرة وهي استراتيجية الصمت (الكف) **Opting Out** والتي ظهرت في إحجام الجماعة عن الرد، وطأطأة رؤوسهم لغاية تجنّب كلّ ما يشكل تهديداً للوجوه فهي تسعى إلى الحفاظ على استمرار العلاقة التّخاطبيّة بينها وبين الوزير.

ومع إصرار الوزير "والله إن فيكم لمن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه، وإنّي لأعذّكم في العلم بحاراً، وللدّين وأهله أنصاراً وللحق وطلابه مناراً، فما هذا الترامز والتغامز اللذان تجلّون عنهما؟"² يمكننا أن نلمح أموراً عديدة، منها:

1. توظيف الوزير لأسلوب القسم فيه تأكيد على وجود شخص معني عليه أن يأخذ زمام المبادرة، ويشرع في مناظرة متى.
2. يحدد الوزير المقاصد المرجوة من مناظرة متى، والمتمثلة في أمرين: الإحاطة بالكلام وبلوغ التمام في مناظرته من جهة، ومخالفة المذهب الذي يتبعه متى من جهة أخرى.
3. يبرز اهتمام الوزير بوجه الجماعة الإيجابي عندما اعترف بفضلها، وقدر مكانتها الاجتماعية، وأحسن في إظهار عنايته فيها والذي تجلّى عند توظيف الوزير لأحد الأساليب البلاغية وهو التشبيه، فقد شبه العلماء في سعة علمهم بالبحر، كما شبه تميّزهم واقتداء الناس بهم بالمنارة التي تهتدي بها السفن.

¹ التّوحّديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 108.

² المصدر نفسه، ص 108.

4. يلجأ الوزير إلى تلطيف العمل المهدّد للوجه عبر استراتيجية السّؤال **Question** وهي مثال فرعي تطبيقي لاستراتيجية مركزية من استراتيجيات التّلفّ السّلبّي وقوامها (لا تفترض)، فالوزير يسعى إلى الحفاظ على خصوصية الطّرف الآخر، وتجنب وضع الافتراضات والظّنون رغم تنبّهه لكلّ ما يصدر عن الجماعة من أفعال لغويّة، وغير لغويّة وإن كانت في صورة إشارات متبادلة بينهم بالأعين أو بالأيدي.

ومن المفيد أن نشير إلى القيمة الّتي ينهض بها السّؤال في محاورات التّوحيديّ من تحفيز، وإثارة وتوريط، وتهديد، أو تخفيف من المحتوى القضوي الذي بدا واضحًا في تساؤل الوزير عن سبب الإيماءات الّتي صدرت عن الجماعة. ويتجلّى موقف السّيرافيّ برفع الرّأس والاعتذار عن بث العلم في المجلس متعللاً بما يوقعه في نفسه من هوان الهيبة، وغلبة الحياء. الأمر الّذي يكشف لنا عما يمثّله الاعتذار من صورة تهديدية ووسيلة تحريضية تدفع منجزها للشروع في الانتهاك.

الاعتذار تهديداً وتحريضاً

تنهض إشكالية هذا المبحث في التساؤل الآتي: كيف يكون الفعل الإنجازي الذي يوظفه المرء لإسقاط الملامة عليه¹ فعلاً تهديداً يسيء إلى الوجوه؟

ولعل هذا التساؤل يدعونا إلى الوقوف على فعل الاعتذار الذي وظّفه السيرافي بشكل موصول مع ما أشار إليه الباحثان B & L في أنّ الاعتذارات هي في الأساس تهديدات لوجه المتكلم²، سعياً منا في الكشف عن الآثار الناجمة عن إنجاز فعل الاعتذار على وجه منجز الفعل وملتقيّه.

فقد قدّم السيرافي اعتذاره وأبان أسباب تعدّره مستعرضاً التحدّيات التي ينجم عنها بث العلم ونشره عند حضرة أكابر العلماء من هيبة وحياء والذي عبّر عنه بقوله: "أعذر أيها الوزير، فإنّ العلم المصون في الصدر غير العلم المعروف في هذا المجلس على الأسماع المصيبة والعيون المحدقة والعقول الحادة والألباب الناقدة، لأنّ هذا يستصحب الهيبة والهيبة مكسرة، ويجتلب الحياء والحياء مغلبة، وليس البراز في معركة خاصة كالمصاع في بقعة عامة"³.

وبناء على تصوّر B & L السابق لفعل الاعتذار، يجدر بنا أن نوضّح الكيفية التي تمثّل فيها الاعتذار كعمل لغوي مهدّد لوجه منجزه وهو السيرافي:

- شكل الاعتذار تهديداً على وجه السيرافي الإيجابي نتيجة امتناعه عن ترشيح نفسه حفاظاً منه على صورته الإيجابية أمام الوزير وكبار العلماء في المجلس، فالسيرافي عالم جليل يبدي تواضعه، ويعترف بفضل أكابر العلماء من زوار المجلس الأمر الذي يدفعه إلى انتظار تكليف صادر عن الوزير، وفي التكليف إقرار بفضله وتعزيز لوجهه الإيجابي.

- كما شكل الاعتذار تهديداً على وجه السيرافي السلبي نتيجة لما يترتب عليه تقديم نفسه للمناظرة بالترشيح من فرض يقيد حريته، علاوة على ما قد يلقاه من اعتراض أو يواجهه من رفض واستنكار.

¹ يعرف الغُدر في أصله اللغوي على أنه ما أدلى به من حجة تُذهب بها إلى إسقاط الملامة. ينظر: ابن سيده علي بن إسماعيل، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1996م، ج4، ص 53.

² Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, p75.

³ التّوحيدي، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 108 - 109.

ومن جهة أخرى فقد شكل إلقاء السّيرافيّ فعل الاعتذار تهديدًا على وجه الوزير السّلبّي نتيجة للضّغط الكبير الّذي يتعرّض إليه والذي يدفعه إلى الثّناء على السّيرافيّ أمام الحضور، وتمييزه عن أكابر العلماء، إضافة إلى ما يترتب عليه قبول الوزير للاعتذار من إصدار قرار يعفي السّيرافيّ من المشاركة رغم وجود إشارة خفيّة، ورغبة دفيئة متبادلة بين الوزير والسّيرافيّ تخالف المعنى الظّاهر لفعل الاعتذار الّذي أبداه السّيرافيّ، ولعلّ ما يثبت صحة ما ندعو إليه استناد الوزير إلى استراتيجيّات التّلطف الإيجابيّ الّتي تسهم في إظهار عنايتها بالآخر فهي تمنح السّيرافيّ الثقة الكاملة لخوض المناظرة، والشّاهد على ذلك قول الوزير:

"أنت لها يا أبا سعيد، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك، والانتصار في نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك"¹.

فقد بنى الوزير قوله على عدد من استراتيجيّات التّلطف الإيجابيّ ليضمن تحقيق مقاصده من جهة، وليمكن السّيرافيّ من كسب تأييده، والحصول على التّكليف بخوض المناظرة من جهة أخرى، ولعل من أبرزها:

1. استراتيجية (ابد اهتمامك بالآخر) فقد أدّت صيغة النّداء بالكنية (يا أبا سعيد) دورًا مهمًا في إظهار تلطف الوزير وعنايته بالسّيرافيّ سعيًا منه في خلق جو يكتنفه القرب الاجتماعيّ حتّى ينهل من علمه، ويطرب إلى سماع حديثه.

2. استراتيجية (بالغ في التعبير عن إعجابك بالآخر) والتي تمثّلت في تكثيف الوزير من توظيف ضمائر المخاطب للمفرد (أنت، فاعتذارك، لنفسك، بفضلك)؛ ليبيد تأييده للسّيرافيّ، ويعرب عن إعجابه به، ويميّزه عن بقية العلماء.

3. كما وظّف الوزير استراتيجية (بادله الفعل أو اطلب منه ذلك) ليبيد وعيه وتقطنه بما يتضمّنه فعل الاعتذار من مقاصد مواربة لدى السّيرافيّ تهدف إلى الحصول على التّأييد والتّكليف والتميّز.

وبناء على ما سبق، يمتثل السّيرافيّ إلى أوامر الوزير، ويخضع للقيّد الّذي يفرضه عامل السّلطة عليه، فأخذ في استعادة المولى من الزّلل، وسؤاله المعونة على المواجهة في حالتي الحرب والسّلم²، ولعل في تخصيص الاستعادة من الزّلل، وتقديم طلب المعونة من المولى في حالة الحرب على حالة السّلم تأكيد على وعي السّيرافيّ وإدراكه التّام بمآلات الإفصاح عن العلم، والكشف عن وجهات

¹ التّوحيدّي، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 109.

² المصدر نفسه، ج1، ص109.

النَّظَرُ الخاصة بالمنطق أمام الحضور من مزلق وانتهاكات ستفضي إلى تغيير مجرى المناظرة، وتحويلها إلى معركة كلامية، متأججة بالمشاعر، والمقاصد الضمنية الأمر الذي يدفعنا إلى استعراض الطرائق التي لجأ إليها السيرافي رغبة منه في الانتهاك.

- انتهاكات السيرافي لوجه متى

تنوّعت الطرائق التي وظّفها السيرافي بغية تحقيق مآربه، وخدمة لمقاصده غير عابئ بما يشكّله إنجاز الأعمال المهدّد للوجه FTAS القائمة على إقصاء الطرف الآخر، والسّخرية منه، والاستخفاف به من انتهاكات تهدد وجه متى الإيجابي والتي تمثّلت في:

1- مداهمة متى بن يونس بسؤال مباغت من دون تمهيد يخفّف من حدة السؤال، ولا تقديم يوجي بوجود رغبة في خلق أرضية تفاعلية مشتركة بينهما أساسها التعاون، وقوامها إظهار العناية بالمتلقّي، والابتعاد عن كلّ ما قد يشكّل تهديدًا على وجهه، أو يمثّل قيدًا يحول دونه ودون خوض التفاعل القولي بكلّ أريحية والذي ظهر في تصريح السيرافي المباشرة بقوله: "حدثني عن المنطق ما تعني [به]؟ فإنّا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سننٍ مرضيّ وطريقة معروفة"¹.

ومنذ بداية المواجهة تتّضح لنا رغبة السيرافي في السيطرة على الجو العام لهذه المناظرة، وذلك عبر بيان حدودها، والتّعريف بشروطها، والكشف عن الكيفية التي ستسير عليها، فقد جعل السيرافي شروعه بالمناظرة شرطًا موصولًا بمدى قدرة مناظره على توضيح مقاصده، وتوصيل معارفه إليه حتّى يتمكّن من التفاعل معه، هذا وقد نبّه السيرافي متى بأن كلّ ما سيصدر عنه من قول، سيخضعه لعمليتي التدقيق والتّقييم، موضحًا بأنّ الكلام والأفعال في هذا المجلس لن تكون اعتباطية ولن تجرى بصورة عبثية، بل سيكون محاكمًا على كلّ شيء، من دون أن يوضّح له المعايير التفصيلية التي ستكون مفروضة عليه وسيكون محاكمًا عليها.

¹ التّوحيدي، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ص 109.

2- تمييز الأنا عن الآخر، فقد تجلّت عوائق التّفاعل وبوادر الخلاف في مساعي السّيرافيّ إلى انتهاك ما تتضمّنه استراتيجيّات التّلطّف السّلبّيّ فشرع في فصل الأنا عن الآخر والذي تجلّى عندما تحدث السّيرافيّ عن نفسه مستخدماً ضمير المتكلّم للجمع فقال: (كلامنا)، في مقابل استخدامه لضمير المخاطب للمفرد عندما خاطب مناظره قائلاً: (مرادك، معك)، وعلى الرغم من تضاعف تهديدات السّيرافيّ وانتهاكاته لوجهه متى إلا أن الأخير سعى في الإجابة عن غالبية الأسئلة الموجهة إليه، وبالأخص في بداية المناظرة.

ومع تقدم الأحداث، تنهض الضّمائر المخاطبة لغرض محاكمة متى على أفعاله وأقواله الدّاعية إلى تعلّم علم المنطق والذي عبّر عنها السّيرافيّ بقول: "وأنت لو فرّغت بالك وصرفت عنايتك إلى معرفة هذه اللّغة التي تحاورنا بها، وتجارينا فيها، وتدارس أصحابك بمفهوم أهلها وتشرح كتب يونان بعبارة أصحابها، لعلمت أنك غني عن [معاني يونان كما أنك غني عن لغة] يونان"¹، وفي موضع آخر نجده يقول لمتى: "بل أنت إلى تعرّف اللّغة العربيّة أحوج منك إلى تعرّف المعاني اليونانيّة"²، بغية إخضاع متى لمآربه وتطلّعاته الشّخصيّة المتمثلة في تمجيد علوم اللّغة العربيّة والاستهانة بما في علم المنطق من قواعد ومعارف.

3- توظيف الاستراتيجية التّصريحية للكشف عن أخطاء متى، وتشويه وجهه الإيجابيّ أمام الحضور، وقد تمثّل ذلك في تكرار استخدام الفعل المضارع (أخطأت)، في ثلاثة مواضع متفرقة لإثبات جهل متى، وبعده عن إدراك الحقائق.

4- تخطئه متى، وتصوير حاله بحال الجاهل المقلّد الذي يشبه طائر البغاء في ترديد ما يقوله الآخرون من دون بينة ولا إمعان نظر وقد تجلّى ذلك في خروج السّيرافيّ عن موضوع التّفريق بين المطلوبات والمذكورات إلى موضوع آخر يدعو إلى وجوب معرفة اللّغة العربيّة وقواعدها والذي تمثّل في السّؤال المفخخ الذي طرحه السيرافي:
"أفليس قد لزمّت الحاجة إلى معرفة اللّغة؟ قال: نعم. قال: أخطأت، قل في هذا الموضوع: بلى.
قال: بلى، أنا أقلّدك في مثل هذا"³.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص113.

² المصدر نفسه، ج1، ص116.

³ المصدر نفسه، ج1، ص111.

ومن هذا التساؤل، تتضح لنا مقاصد السيرافي المضمرة في الإيقاع بمتى، فموافقة الأخير على ضرورة الحاجة إلى تعلّم اللّغة دفعه إلى الوقوع في خطأ في علم أصيل من علوم اللّغة العربيّة، وهو علم النّحو، حيث إنّ الإجابة عن الاستفهام المنفي يجب أن تكون إما بـ(بلى) في حال الإيجاب، وبـ(نعم) في حال النّفي، وعليه فقد شكّل الخطأ الذي وقع فيه متى انتصاراً مبدئياً عليه من جانب، وأكّد ضرورة إنزاله منزلة المتعلّم الذي هو في حاجة ماسة إلى طلب علوم اللّغة العربيّة من جانب آخر.

5- **شخصنة المسائل والقضايا المطروحة** فقد تجاوز السيرافي تعليقه على إجابة متى بخصوص آلة علم المنطق، إلى الحديث عن واضع هذا العلم، مبدئياً استخفافه به والذي تجلّى في عدول السيرافي عن التّصريح باسم واضعه، والاكتفاء بإطلاق لفظ (رجل) بصورة نكرة لا معرفة فقال: "إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم التّرك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضياً وحكماً لهم وعليهم، ما شهد لهم به قبلوه وما أنكره رفضوه؟"¹.

6- **الاستهانة بعلم المنطق، وتجريده من التأثير في العالم والذي عبّر عنه بقوله:** "وليس واضع المنطق يونان بأسرها، إنّما هو رجل منهم، وقد أخذ عمن قبله كما أخذ عنه من بعده، وليس هو حجة على هذا الخلق الكثير والجم الغفير، وله مخالفون منهم ومن غيرهم... فكيف يجوز أن يأتي رجل بشيء يرفع به هذا الخلاف أو يحلّله أو يؤثر فيه؟ [هيهات!] هذا محال، ولقد بقي العالم بعد منطقته على ما كان عليه قبل منطقته، فامسح وجهك بالسّلوة عن شيء لا يستطيع، لأنّه منعقد بالفطرة والطباع"².

7- **وظّف السيرافي استراتيجيّة الاتفاق الزائف Pseudo-agreement** ليبيدي موافقته المبدئية، ويظهر تسليمه الزائف لحجة متى الدّاعية إلى تعلّم اللّغة اليونانيّة، وتبريره الذي يستند إلى وجود التّرجمة التي حفظت أغراض يونان ولغتها ومعانيها رغم أفلوها. كما اتخذ السيرافي الطّباق وسيلة بلاغيّة تمكّنه من الجمع بين محاسن التّرجمة ومساوئها؛ ليصل إلى التّصريح المباشر بضعف حجة متى وهوانها ممّا يبيّن أن موافقته السابقة لم تكن إلّا موافقة سطحية زائفة، ولعلّ دليلنا على ذلك ما أوضحه السيرافي بقوله إن "التّرجمة صدقت وما كذبت، وقومت وما حرّفت، ووزنت وما جزفت... وإن كان هذا لا يكون، وليس هو في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني"³.

¹ التّوحّديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 110.

² المصدر نفسه، ج1، ص113.

³ المصدر نفسه، ج1، ص 112.

8- حشد السِّيرافيّ ألفاظاً عديدة في معجم دلاليّ تجاوز فيه الاستنقاص من قدر متىّ إلى حدّ التّعدي عليه وعلى حرّماته بقذف أصحابه وأهله بالغفلة والتّمويه، ومن تلك الألفاظ والعبارات: (أنت لا تعرف، لا نفي، لقد موهت بهذا المثال، ولكم عادة بمثل هذا التّمويه، فقيراً، ذهب عليك، محتاج، أنت وأصحابك ورهطك عنه في غفلة، سرّاً ما علق بك، ولا أسفر لعقلك)، علاوة على نسبة أسوء الصّفات التي تنافي أخلاق المناظرة وآدابها إلى متىّ كالتّعصب، والميل مع الهوى.

9- إنزال متىّ من منزلة العالم المتمكّن الذي يستحق أن يناظره السِّيرافيّ بحجج قوية ودامغة إلى مقام المتعلّم الذي هو في حاجة إلى توضيح أصغر المسائل وأبسطها إليه، ويمكننا أن نتبين ذلك في مواضع كثيرة ومتفرقة، نورد منها ما جاء في تعقيب السِّيرافيّ نتيجة استغناء متىّ بمعرفة الاسم والفعل والحرف عما سواه من علوم اللّغة العربيّة لكونها مفضية إلى بلوغ الأغراض والمعاني التي هذبها له يونان، هذا وقد جاءت خطة السِّيرافيّ في الرد على النّحو الآتي:

- التّصريح بالتخطئة وبيان العلل فأوضح السِّيرافيّ أن اكتفاء متىّ بمعرفة الاسم والفعل والحرف ينزله منزلة الفقير في حاجته إلى معرفة وصفها وترتيبها في لغة أهلها لا في لغة غيرها، وتصويره بصورة المحتاج الذي هو في حاجة ماسة إلى تعلّم حركات هذه الحروف والأسماء والأفعال دفعاً للخطأ والتّحريف.

- إغابة متىّ وأصحابه ورهطه وقذفهم بالغفلة نتيجة ما خفي عن أذهانهم من عدم تطابق اللّغات فلكلّ لغة حدودها وصفاتها.

- التّشديد على حاجة متىّ إلى تعلّم معاني اللّغة العربيّة بصورة تفوق حاجته إلى معرفة المعاني اليونانيّة.

وينتهي السِّيرافيّ بتوقّع حال متىّ وتصوير سعادته بتقليد الآخرين له وإن كان على باطل؛ ليرميّه بالجهل المبين والحكم المشين¹، وبذلك تكّل خطة الرّد بالنّجاح وإفحام متىّ عن الإجابة والدّفاع عن نفسه ببنت شفه.

وفي موضع آخر، يسعى السِّيرافيّ إلى نقض الادّعاءات الباطلة التي نسبها متىّ إلى اليونان وتقنيدها من عناية بالحكمة، واشتغال في البحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، ونشر أنواع العلوم وأصناف الصناعات دون سواها من الأمم²، بطرائق عديدة تمثّلت في الآتي:

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص115-116.

² المصدر نفسه، ج1، ص112-113.

- القذف الصريح بالتخطئة والتعصب والميل مع الهوى.

- تعضيد السِّيرافي رأيه بإيراد شاهد شعريّ حتّى يبين أنّ العلوم مبنوثة ومنتشرة في العالم بأسره، ومن الخطأ والتعصب والعدول عن الحق تخصيص هذه العلوم ونسبتها إليهم.

- تجريد اليونان من صفات الملائكيّة والاصطفاء على بقية الأمم.

- العودة إلى القذف بالجهل لمن يظن بتمييز يونان، ورمي من يدعيه منهم بالعناد.

10- لجأ السِّيرافي إلى تأييد آرائه بتوظيف الشاهد الشعريّ لغاية تظهر قوة ما جاء به، وقد ظهر ذلك في مواضع عديدة، نورد منها استشهاده بقول أبي نواس: "حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء"¹؛ ليؤكد جهل متى بمعرفة جوهر الموزون من الكلام وقيّمته وسائر صفاته.

ومن الطّريف أن نشير إلى عدد من الاستراتيجيّات الغامضة والمراوغة التي تمكّن السِّيرافي من توظيفها عندما أنجز بعض الأعمال المهدّدة للوجه بصورة خفيّة **Off-the-Record Strategies** منتهاً في ذلك قواعد المحادثة الغرايسية نوضحها فيما يلي:

1. **انتهاك مبدأ الكمّ:** يتجلّى مفهوم الكمّ في التّفاعل بمقدار مشاركة كلّ طرف في المناظرة، وعندما نسعى إلى عقد مقارنة بسيطة بين مشاركات السِّيرافي ومتّى في أوّل سؤال يوجهه السِّيرافي إلى متى لغرض التّعريف بعلم المنطق، يتجلّى لنا تساوي حجم التّفاعل القوليّ بينهما، فقد شغل سؤال السِّيرافي ثلاثة أسطر، وكذلك إجابة متى قد جاءت بصورة تقريبية في ثلاثة أسطر.

ومع تقدّم أحداث هذه المناظرة، يكاد أن ينقضي التّساوي في حجم التّفاعل القوليّ بينهما، ممّا يوضّح قصد السِّيرافي، ورغبته الحقيقة في فرض الهيمنة على الأجواء العامة ممّا دفع المناظرة لأن تنزع منزعاً تعليمياً تتغيّر على إثره العلاقة التّخاطبيّة من مناظر ومناظر آخر، إلى عالم ومتعالم. فتخطئة السِّيرافي لإجابة متى، وتعليقاته التي تسعى إلى إثبات صحة ما جاء به، قد تجاوزت ستة عشر سطرًا، ابتداء من قوله: "أخطأت، لأنّ صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم...، ما شهد لهم به قبلوه، وما أنكره رفضوه"². في مقابل ردّ متى وإجابته التي لم تتجاوز ثلاثة أسطر، من قوله: "إنما لزم ذلك لأن المنطق بحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة،...، وكذلك ما أشبهه"³.

¹ أبي نواس الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس، وضعه ورتبه وشرح ألفاظه اللغوية: محمود كامل فريد، مطبعة حجازي، القاهرة، 1937م، ص80.

² التّوحيد، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص109.

³ المصدر نفسه، ج1، ص111.

إضافة إلى كم الاستفسارات والمسائل التي يعرضها السيرافي، في مقابل إجابات متى المقتضبة التي لا تكاد تشغل حيزًا في النص، فتكون إما في كلمة أو عبارة قصيرة جدًا لا تتجاوز سطرًا، ومن الأمثلة على ذلك، قول السيرافي لمتى: "وها هنا مسألة نقول: إن الناس عقولهم مختلفة، وأنصباؤهم منها متفاوتة"¹، في حين أن إجابة متى قد كانت بنعم.

ويخيم الصمت على موقف متى في مواضع عديدة يستفهم السيرافي فيها عن أمور متنوعة، وينتقل فيها من مسألة إلى مسألة أخرى، ومن هذه المواضع قول السيرافي: "فهل وصلته بجواب قاطع وبيان ناصع؟ ودع هذا، أسألك عن حرف واحد وهو دائر في كلام العرب، ومعانيه متميزة عند أهل العقل، فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطوطاليس الذي تدلُّ به وتباهي بتفخيمه؛ وهو «الواو»، ما أحكامه؟ وكيف مواقعه؟ وهل هو على وجه أو وجوه؟"². وعلى الرغم من كثافة هذه الأسئلة والمبالغة في طرح المسائل إلا أن متى يؤثر فيها الصمت والإحجام عن الدخول في أي نقاش أو جدال مع السيرافي.

2. انتهاك قاعدتي الكيف والملاءمة: إن تكثيف السيرافي في طرح الأسئلة من دون أن يحصل على إجابة شافية يُعدُّ دليلًا واضحًا على انتهاكه لقاعدتي الكيف والملاءمة، فالمتكلم عادة ما يلجأ إلى طرح السؤال لغاية الحصول على إجابة، ولكن السيرافي يستخدم السؤال بغية توريط مناظره ويتجلى ذلك في إصراره على إثبات جهل متى، وبيان خلو عقله من علم النحو، وبخاصة عندما تساءل السيرافي عن أحكام (الواو) ومواقعه، وأوجهه إن وجدت، ورغم تصريح متى بعدم نظره في هذه المسألة نظرًا لانتفاء حاجة المنطقي إليها، إلا أن نفس السيرافي لم تهدأ إلا بعد تصريحه بتخطئة متى مع بيان تفصيلي وشرح توضيحي له عن تلك المسألة إثباتًا لجهله وتأكيدًا لقلته علمه³.

وبعد بيان المظاهر التي تجلّت فيها انتهاكات السيرافي لوجه متى فإن طرائق الوزير في تحريض السيرافي على الانتهاكات تستدعي منا الوقوف عليها لبيان أنواعها، وتوضيح الأثر المترتب على إنجازها.

¹ التوحيد، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص113.

² المصدر نفسه، ج1، ص114.

³ المصدر نفسه، ج1، ص 114 - 115.

- طرائق الوزير في التحريض على الانتهاكات

تنتظم مشاركات الوزير وفق خطة مليئة بالمآرب والغايات الدفينة التي تهدف إلى تحقيق أمرين، فأما الأمر الأول فهو قائم على تحريض السيرافي لغاية الاستخفاف بمتى والكشف عن جهله، وأما الثاني فيتمثل في السعي إلى تعضيد موقف السيرافي، ودعم مشاركاته حتى تتحقق النصرة والغلبة لعلم النحو على علم المنطق، ويجدر بنا أن نشير إلى أن من المساعي التي لجأ الوزير إلى توظيفها سعيًا منه في تلطيف العمل المهدد لوجه السيرافي، والتخفيف من وطأته عليه قد تجلّى عند توظيفه صيغة النداء والتي عبّر عنها بقوله:

"أيها الشيخ الموفق، أجبه بالبيان عن مواقع (الواو) حتى تكون أشد في إفحامه، وحقّق عند الجماعة ما هو عاجز عنه، ومع هذا فهو مشنّع به"¹.

ويمتثل السيرافي لطلب الوزير فيظهر بصورة المعلم الحريص على إيصال المعلومة لمتعلّمه، وأخذ يستعرض وجوه استخدام (الواو) في اللغة العربيّة ومواقعها، موضحًا ذلك بالعديد من الأمثلة، ومستشهدًا بآيات من القرآن الكريم، وأبيات من الشعر العربيّ الأمر الذي يدل على سداد آرائه وسعة علمه وعمق معارفه.

هذا ويشعر الوزير في استفزاز متى بسؤال مهدّد أورده تعقيبًا على إيضاح السيرافي بشأن مواقع (الواو) عبّر عنه بقوله: "يا أبا بشر: أكان هذا في نحوك"²، ويتقطن السيرافي إلى رغبة الوزير الدفينة في توريط متى وتحريضه على النّيل منه، فأخذ في الحديث عن المسائل المتعلقة بالمعنى العقليّ للعبارة، طالبًا من متى توضيح الفرق بين قولهم: زيد أفضل الإخوة، وزيد أفضل إخوته.

ويجب متى بصحة كلا القولين، من دون أيّ تعقيب يوضّح السبب في ذلك، مما دفع السيرافي إلى استغلال هذه الثغرة ليطلب منه توضيح الفرق بين المثالين السابقين من ناحية الصحة ممّا أوقع متى في حرج كبير بدا في عجزه، وميلانه، وعدم قدرته على الاصطلاب، والتّنفّس من هول الحجة، وعظم حجم التّهديد الذي تعرض إليه.

ويعود السيرافي إلى استصغار خصمه والاستهانة به، ويشعر في قذفه بالإفتاء على غير بصيرة ولا استبانة، نتيجة لغفلته عن التّمييز بين الصّحيح والفاقد، والحق والباطل، مما دفع متى إلى أن يطرح تساؤلًا يستبين من خلاله أسباب تقبيح السيرافي لإجابته، الأمر الذي سنح للسيرافي استغلال هذه الفرصة، وتأكيد حاجة متى الماسة إلى أخذ العلم منه، وحضور حلقاته درسه والذي شف عنه

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 117 - 118.

² المصدر نفسه، ج1، ص118.

قوله: "إذا حضرت الحلقة استفتت، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبيس مع من عادته التّمويه والتّشبيه، والجماعة تعلم أنك أخطأت"¹، ويمكننا أن نلاحظ سيطرة السّيرافيّ على أجواء التفاعل مما دفعه إلى أخذ زمام التفاعل والكلام على لسان الغير ولعل هذا ما أوضحه تخطئة متى على لسان جماعة المجلس؛ ليؤكد اتفاق جميع الحضور على ذلك.

هذا وقد كثّف السّيرافيّ من استخدام ضمير المخاطب للمفرد ممّا يدل على رغبته في شخصنة المسائل، وتوجيه نظره على المتحاور لا على موضوع المناظرة، فيحيد بذلك عن القصد العام الّذي ترنو إليه المناظرة والمتمثل في إدراك الحقائق وتأييد الحق والصّواب إلى تصيّد أخطاء المناظر، واعتباره خصماً يرغب في التّفوق عليه؛ لينال الخطوة من الوزير وجماعة المجلس.

وعلى الرّغم من ظهور رغبة السّيرافيّ في إنهاء الحديث عن مسألة الإخوة، إلّا أنّ مساعي الوزير التّحريضيّة تعود من جديد ليأمر السّيرافيّ بأن يتمّ كلامه فيها، آخذاً في استعراض الأسباب الّتي دفعته إلى هذا الطّلب والمتمثلة في تحقيق النّفع والفائدة لأهل المجلس، وتوبيخ متى وتأنيبه على ما جاء به من باطل والّتي عبّر عنها قوله: "تمّ لنا كلامك في شرح المسألة حتّى تكون الفائدة ظاهرة لأهل المجلس، والتبكيّت عاملاً في نفس أبي بشر"².

ومن هذه الزاوية، يتبيّن لنا وعي السّيرافيّ الأجناسيّ بحدود المناظرة، والفرق بينها وبين المذاكرة والذي تجلّى في نفي السّيرافيّ الكراهة المتحصلة نتيجة إيضاح الجواب وبيانه، وتعلّله بالملل وطول الكلام الّذي يقتضيه الإيضاح. ومع دحض الوزير حجّة الملل، وإصراره على طلبه الّذي عبر عنه بقوله: "ما رغبت في سماع كلامك وبين الملل علاقة؛ فأما الجماعة فحرصها على ذلك ظاهر"³، يمتثل السّيرافيّ لطلب الوزير، ويشرع في استعراض المسألة من دون أيّ نقاش أو جدال، موضحاً أن العلة الّتي تمنع جواز قول: زيد أفضل إخوته، كائنة في عدم شمولية تلك الأفضليّة لزيد، فزيد شخص خارج عن جملة الإخوة، ولا يمكن إسناد الضّمير (في إخوته) إليه؛ لأنّه لا يُعدّ منهم.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 119.

² المصدر نفسه، ج1، ص 119.

³ المصدر نفسه، ج1، ص 120.

وبعد هذا الكشف والبيان، أبدى الوزير إعجابه بما جاء به السّيرافيّ، فأخذ يقول: "ما بعد هذا البيان مزيد، ولقد جَلَّ علم النّحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الإسفار"¹، وبذلك ينهي الوزير الحديث عن تلك المسألة، مظهرًا اكتفاءه بما جاء به السّيرافيّ من بيان شاف كانت نتيجته الإعلاء من شأن علم النّحو في نفسه، وبهذا تحسم المناظرة في جولتها الأولى بانتصار أولي لعلم النّحو على علم المنطق.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 120.

تغيب موقف متى وتصريح السيرافي بالانتهاكات

شغف السيرافي بعلم النحو جعله يستعرض لمتى معاني النحو من دون أن يطلب منه ذلك، موضعاً أقسامه ومُعَرِّضاً في الوقت ذاته بالمنطقيين، فيقول: "وإنما دخل العُجب على المنطقيين لظنهم أن المعاني لا تعرف ولا تُستوضح إلا بطريقهم ونظرهم وتكلفهم، فترجموا لغة هم فيها ضعفاء ناقصون، وجعلوا تلك الترجمة صناعة، وادَّعوا على النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى"¹، فالسيرافي يستخدم أسلوب التعميم، ليظهر الضعف والنقص المتأصل في عموم جماعة المنطقيين عن إدراك المعاني الرفيعة، والتوصّل إلى الأسرار الدقيقة المتضمنة في اللغة العربية.

ويترتب على توضيح السيرافي لأقسام معاني النحو، تعقيب آخر منه أخذ في توجيهه لمتى قائلاً: "أما تعرف يا أبا بشر أن الكلام اسم واقع على أشياء قد ائْتُلفَتْ بمراتب، وتقول بالمثل: «هذا ثوب»"²، ويتضح لنا أن السيرافي قد وظّف الاستفهام الإنكاري رغبة منه في توبيخ متى، وسعيًا منه في إظهار جهله، واستنقاص قدره أمام الجماعة والذي استدعاه بغية مناقشة متى في مثال بسيط أورده السيرافي تبيانًا للكيفية التي يتواطؤ الناس عليها عند إطلاق اسم معين على ذات الشيء، فعندما نقول: هذا ثوب، فإن اسم الثوب لا يطلق عليه إن لم يغزل وينسج، مما يدل على أن الأسماء إنما تنسب إلى الأشياء عند إتلاف معانيها، حتّى يصح على إثرها أن ينعت بذلك الاسم.

ونتيجة لغياب متى عن التّفاعل، وامتناعه عن التعليق عن تلك المسألة، يستغل الوزير الموقف، ويحرّض السيرافي على تصعيد المواجهة، وإفحام المناظر بتكثيف الأسئلة عليه، فيقول: "سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى، فإن هذا كلّما توالى عليه بان انقطاعه، وانخفض ارتفاعه في المنطق الذي ينصره، والحقّ الذي [لا] يبصره"³. ويظهر من قول الوزير استخفافه الكبير بمتى، وترفعه عن ذكر اسمه، أو كنيته، وسعيه في إشعال جوّ التّفاعل بالانتهاكات التي تستهدف وجه متى، وتسعى إلى إفحامه بقطع كافة الحجج عليه، والخطّ من المنزلة والحظوة التي نالها نتيجة دعوته إلى تعلّم علم المنطق.

¹ التّوحيدي، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص121.

² المصدر نفسه، ج1، ص121.

³ المصدر نفسه، ج1، ص 121-122.

ويجب السّيرافيّ طلب الوزير فأورد مجموعة من المسائل النّحوية الّتي أخذ في توجيهها إلى متى بشكل مباشر طالبًا منه توضيحها وبيانها، في حين تأتي إجابة متى بصورة مقتضبة جدًّا لتتفي عن نفسها العلم بهذا النمط. هذا ويجيء تعقيب السّيرافيّ بانتهاك صريح يعبر فيه عن رغبته في الإساءة إلى متى وتشويه وجهه الإيجابيّ أمام الحضور والّتي شف عنها قوله: "لست نازعًا عنك حتّى يصح عند الحاضرين أنك صاحب مخرقة ورزق"¹.

ولعل تضاعف حجم التّهديد على موقف متى دفعه إلى إنهاء تفاعله القوليّ في المناظرة والذي شف عنه قوله: "لو نثرْتُ أنا أيضًا عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالي"²، ورغم قصر هذه العبارة إلّا أنّها تضمّنت مجموعة من الإشارات الّتي تستدعي منا الوقوف عليها ففي توظيف متى لأسلوب الشرط بـ(لو) الّذي يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط تذكير للسّيرافيّ بمكانته العلميّة، وقدرته على البوح بأدق مسائل علم المنطق ممّا يوقع السّيرافيّ في الحرج الّذي أوقعه فيه، إضافة إلى تنويع متى في استخدام ضمائر المتكلّم وتكثيفها في ثلاثة مواضع متتالية (نثرْتُ، أنا، حالي)، في مقابل توظيفه لنوع واحد من ضمائر المخاطبة الموجّه للسّيرافيّ (عليك، حالك) الأمر الّذي نستدل به على وجود تضمين خفي من قبل متى يقرّ فيه بأفضليته الّتي يترقّع بها عن الجدل والمماراة.

ونتيجة لحوم متى حول جمى السّيرافيّ ممّا دفعه إلى التّصريح بالانتهاك، وإنجاز الأعمال المهدّدة لماء الوجه بكلّ أريحية **Bald On-Record Strategies** من دون تقديم أية مبررات أو استراتيجيات تحفظ ماء وجه متى، ومن جملة هذه الانتهاكات:

1. التّصريح للمرة الخامسة في هذه المناظرة بالتخطئة³، وبذلك فهو ينهي دائرة الحوار، ويغلق التّفاعل القوليّ مع الوزير ببيان عدم الجدوى من مناظرة هذا الخصم نظرًا لتأصل الخطأ والجهل في أعماقه.

2. تعبيره بتسارعه في الإجابة والرد، قبل بحثه وإمعان نظره في المسألة.

3. تناول السّيرافيّ في هجائه ليشمل عموم جماعة المنطقيين، وظهر ذلك في مواضع عدة، منها ما نعتهم به من فساد في الوضع، وحشو للكتب، ونفي للمنفعة والفائدة ممّا يوردونه من أمثلة، وقرب أمثلتهم من الجهل والغموض، والعجز والميل إلى الزّلل، إضافة إلى بيان النقص

¹ التّوحيدّي، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص 122.

² المصدر نفسه، ج1، ص122.

³ المصدر نفسه، ج1، ص122.

الظاهر في علم المنطق، وما فيه من تخليط وتهويل وتطاول وصولاً إلى التعريض بهم نتيجة حرمانهم من الهبات الإلهية، فهم بلا عقل، ولا قدرة على التمييز والنظر في حقائق الأمور.

4. **التنوع في استخدام الضمائر**، فنجد يوجه رده في ختام هذه المناظرة إلى متى، فيقول: (أخطأت، لأنك، عليك)، وينتقل مباشرة إلى استخدام ضمير المخاطب للجماعة، فيقول: (لكم، حشوتكم، كتبكم، استعرتكم، منطقكم، لأنكم، فددعون، ولا تعرفونه، وأنتم، بودكم)، ثم يعود إلى استخدام ضمير المخاطب للمفرد، وهو الموجه إلى متى، فيقول: (وأنت، لو عرفت، ووقفت، لحشرت نفسك، وزدريت أصحابك)، وفي هذا تأكيد على تركيزه الشديد على استهداف ذات الخصم باعتباره محور المناظرة وموضوعها.

5. **تعظيم السيرافي شأن كل من يوافقه في الرأي**، كالنأشي أبو العباس الذي بين خطأ المنطقيين، وأبرز ضعفهم، في مقابل تحقيره لرموز علم المنطق، وأعلامه كالكندي مبيناً اعتقاده الخاص بأنه مريض عقل، وفاسد المزاج، وحائل الغريزة، ومشوش اللب¹.

6. **المبالغة في طرح الأسئلة الموجهة لمتى من قبل السيرافي وجماعة المجلس**، فنجد السيرافي ينتقل من مسألة إلى أخرى، من دون أن يحصل على إجابة من متى، ومثال ذلك قوله: "«لفلان من الحائط إلى الحائط» ما الحكم فيه؟ وما قدر المشهود به لفلان؟ ... ودع هذا أيضاً، قال قائل: «من الكلام ما هو مستقيم حسن، ومنه ما هو مستقيم محال، ومنه ما هو مستقيم قبيح، ومنه ما هو محال كذب، ومنه ما هو خطأ.» فسر هذه الجملة، واعترض عليه عالم آخر، فاحكم أنت بين هذا القائل والمعترض وأرنا قوة صناعتك التي تميز [بها] بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل"².

كما تأتي أسئلة جماعة المجلس بشكل مكثف مشتملة على مسائل متنوعة، تختص بالأجرام، والحركات الطبيعية، والصور الهولانية، والوجدان، فنجدهم يقولون: "أخبرنا عن اضطكاك الأجرام وتضاغط الأركان، هل يدخل في باب وجوب الإمكان، أو يخرج من باب فقدان إلى ما يخفى عن الأذهان؟ ... وقالوا له أيضاً: ما نسبة الحركات الطبيعية إلى الصور الهولانية؟ وهل هي ملازمة للكيان في حدود النظر والبيان، أو مُزيلة له غاية الأحكام؟ ... وقالوا له: ما تأثير فقدان الوجدان في عدم الإمكان عند امتناع الواجب من وجوبه في ظاهر ما لا وجوب له لاستحالة في إمكان أصله؟"³.

¹ التوحدي، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص124.

² المصدر نفسه، ج1، ص125-126.

³ المصدر نفسه، ج1، ص127.

7. التَّغْيِيبُ الْمُتَعَمَّدُ فِي بَيَانِ مَوْقِفِ مَتَّى، وَالتَّحْفِظُ عَنْ اسْتِعْرَاضِ إِجَابَاتِهِ بِاللَّجْوَاءِ إِلَى أَسْلُوبِ التَّعْمِيمِ الَّذِي يَظْهَرُ رِكَاكَةً، وَضَعْفٌ، وَسَخَفٌ مَا جَاءَ بِهِ، وَعَدَمُ الرِّغْبَةِ فِي تَطْوِيلِ السَّرْدِ بِمَا لَا فَائِدَةَ مِنْهُ.

وَتَحْسُمُ نَتِيجَةُ الْمُنَاطَرَةِ بِقَوْلِ عَلِيِّ بْنِ عِيسَى الَّذِي يَصِفُ فِيهِ الْكَيْفِيَّةُ الَّتِي تَفَرَّقَتْ عَلَيْهَا جَمَاعَةُ الْمَجْلِسِ، بَعْدَمَا تَكْشَفَتْ الْحَقَائِقُ، وَانْجَلَتْ الْغُمَائِمُ، فَيَقُولُ: "وَتَقَوَّضُ الْمَجْلِسُ، وَأَهْلُهُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ جَاشِ أَبِي سَعِيدِ الثَّابِتِ، وَلِسَانِهِ الْمُتَصَرِّفِ، وَوَجْهِهِ الْمُتَهَلِّلِ، وَفَوَائِدِهِ الْمُتَتَابِعَةِ"¹. كَمَا يَصِرُّ الْوَزِيرُ عَلَى أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ مَعَ السَّيْرَافِيِّ، خَاتِمَةَ النِّهَايَاتِ، فَيَدْعُو لَهُ، وَيَقُولُ: "عَيْنَ اللَّهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ، فَقَدْ نَدَّيْتُ أَكْبَادًا، وَأَقْرَرْتُ عَيُونًا، وَبَيَّضْتُ وَجْهًا، وَحُكِّتَ طَرَارًا لَا يَبْلِيهِ الزَّمَانُ، وَلَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْحَدِثَانِ"²، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى قَلْقِ الْوَزِيرِ، وَانْشَغَالِ فِكْرِهِ، وَقَلْبِهِ خِلَالَ الْمُنَاطَرَةِ، فَلَمْ يَلِينْ قَلْبَهُ، وَلَمْ تَقَرَّ عَيْنَاهُ، وَلَمْ تَنْفَرَجْ أَسَارِيرُهُ وَجْهَهُ إِلَّا عِنْدَمَا تَحَقَّقَتْ الْغَلْبَةُ عَلَيْهِ.

¹ التَّوْحِيدِيُّ، عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ، الْإِمْتَاعُ وَالْمُؤَانَسَةُ، ج1، ص128.

² الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ج1، ص128.

- خاتمة الفصل:

انكشف لنا في هذا الفصل وعي التّوحيديّ بما يضيفه التّداخل الأجناسيّ بين مقامات ثلاثة وهي: مقام المشافهة، ومقام التّرسّل، ومقام الكتابة من تأسيس للنص في سياقه الّذي تشكّل فيه والّذي أسهم بدوره في الشّروع بسرد أحداث المناظرة الّتي أثّرت نتيجة اعتبار فعل الاعتذار بمثابة عامل تهديد وتحريض، ولعلّ دراستنا للاعتذار على أنّه فعل تهديديّ أوضح لنا أثر إنجاز الفعل على طرفي الخطاب وهما السّيرافيّ ومتّى، فعلى الرغم مما شكله الاعتذار من تهديد على وجه السّيرافيّ الإيجابيّ نتيجة امتناعه عن ترشيح نفسه لغاية الحصول على التّكليف الّذي يقرّ بفضلّه أمام كبار العلماء إلّا أنّه قد فرض قيداً من نوع آخر على وجه السّيرافيّ السّلبّيّ نتيجة لما يترتب عليه تقديم نفسه للمناظرة بالتّرشّيح من تعريضه لمواجهة الاعتراض أو الاستنكار. وفي مقابل ذلك، فقد شكّل إنجاز فعل الاعتذار ضغطاً على وجه الوزير السّلبّيّ لما يوجبه عليه من اعتراف بفضل السّيرافيّ وتمييزه عن أكابر العلماء، علاوة على ما يلحقه قبول الوزير لفعل الاعتذار من إسقاط للتّكليف، وهذا ما دفع الوزير إلى توظيف استراتيجيّات التّلطّف الإيجابيّ ليبيدي اهتمامه بالسّيرافيّ، ويبالغ في إظهار إعجابه به حتّى يمثّل لأوامره ويشرع في الانتهاكات.

وقد أفضى بنا النّظر في الطّرائق الّتي وظفها السّيرافيّ سعياً منه في انتهاك وجه متّى إلى بيان حدودها وتوضيح المقاصد الّتي تتضمنها فقد شملت: (السّؤال المبالغت، فصل الأنا عن الآخر، مغالطة الآخر وتصوير حاله بحال الجاهل المقلّد، شخصنة المسائل والقضايا المطروحة، توظيف استراتيجية الاتّفاق الزائف، الاستهانة بعلم المنطق، وتجريده من التّأثير إنزال متّى من منزلة المتعلّم، توظيف معجم دلاليّ لقذف أصحابه وأهله بالغفلة والتّمويه، توظيف الشّاهد الشّعريّ لغاية تأييد أقواله)، ومن هنا تتجلى لنا مزاجيّة السّيرافيّ بين توظيف الاستراتيجية التّصريحية، لغاية التّصريح بجهل متّى، وبين الاستراتيجية التّلميحية الّتي تنجز عبرها الأعمال المهدّدة بصورة خفيّة والّتي تمثّلت في انتهاك قواعد المحادثة الغرايسية وبالأخصّ مبدأ الكمّ نتيجة انتفاء المساواة في حجم التّفاعل القوليّ بين السّيرافيّ ومتّى حيث إنّ السّيرافيّ هو الطّرف المسيطر، وعليه فقد نزعت المناظرة منزلاً تعليميّاً تغيّرت على إثره العلاقة التّخاطبيّة من مناظر ومناظر آخر، إلى عالم ومتعالم. كما أدّى تكثيف السّيرافيّ من طرح للأسئلة من دون أن يحصل على إجابة إلى انتهاك قاعدتي الكيف والملاءمة.

وقد تنوّعت طرائق الوزير في تحريض السّيرافيّ على الانتهاكات لغاية الاستخفاف بمتّى والكشف عن جهله من جهة، ودعم مشاركات السّيرافيّ وتأييده من جهة أخرى حتّى تتحقّق غلبة لعلم النّحو على علم المنطق، ولا شك أن غياب متّى عن التّفاعّل قد أسهم في دفع السّيرافيّ إلى إنجاز الأعمال المهدّدة لماء الوجه بصورة صريحة ومباشرة. ولعلّ هذه الانتهاكات هي الّتي تفسّر لنا قلة توظيف الاستراتيجيّات التّلطّفية في جنس المناظرة ممّا يؤكد لنا أن الامتثال لقواعد التّلطّف وآدابه إنّما هو أمر موصول بطبيعة الجنس الأدبيّ.

الفصل الرابع: غياب التلطف واستراتيجيات تشويه الوجوه (عرض نماذج من كتاب أخلاق الوزيرين).

1. الإطار العام لنظرية غياب التلطف

2. استراتيجيات تشويه الوجوه انتقامًا وتشفيًا

- استراتيجية (انشر ولا تستر).
- استراتيجية (سخر اللغة لصالحك).
- استراتيجية (اسأل، اصد، انشر).
- استراتيجية (خض في الأعراض).
- استراتيجية (لا تغفر، وعامل بالمثل).

الفصل الرابع: غياب التلطف واستراتيجيات تشويه الوجوه (عرض نماذج من كتاب أخلاق الوزيرين).

انتهينا في الفصلين السابقين إلى الكشف عن أبرز استراتيجيات التلطف التي سعى الأطراف الفاعلة إلى توظيفها والتي تمحورت حول غايتين رئيسيتين، فقد قامت الغاية الأولى على مآرب دفيئة كشفت عنها صريح التهديدات، وأمّا الغاية الثانية فقد تمثلت في جملة الطرائق المفضية إلى اتقاء التهديدات، أو التخفيف من حدة الأعمال التهديدية المنجزة. ويهمنّا في هذا الفصل أن نتجاوز درجات السلم التلطفي، وننتقل من الأسلوب الذي يحاول فيه المتكلم اتقاء التهديدات، أو التخفيف من حدتها بتوظيف الاستراتيجيات التلطفية¹، إلى الأسلوب الذي تتجلى فيه فظاظة الكلمة Rudeness of Word، وفضاظة العمل Rudeness of Action²، وتغيب عنه قواعد الآداب العامة، فيعمد المتكلم فيه إلى انتهاك قواعد التلطف مستهدفاً بذلك متلقيه، ويشرع في رصد مساوئه، ونشر عيوبه، وتدني عرضه، وتشويه وجهه، نكاية به وتشفيًا عما في نفسه من حرقة اتجاهه.

ومن هذا المنظور، نروم في هذا الفصل التوقف عند موضوع غياب التلطف Impoliteness، وهو موضوع بحث خصب، تعرّض له عدد من الباحثين؛ لنتساءل في شأنه، ونعي مداه، ونستخرج أبرز قواعده واستراتيجياته من كتاب (أخلاق الوزيرين)، مستندين في ذلك إلى أفكار باحث اللسانيات التداولية جوناثان كولبير Jonathan Culpeper الذي سعى إلى وضع قواعد تأسيسية لبناء نظرية غياب التلطف انطلاقاً من الأهمية التي يحظى بها عنصر الوجه في نظرية التلطف للباحثين B & L.

¹ ذكر ابن سينا في شرحه لأفكار أرسطو الوسائل التي تحقق حسن الأدب في القول، فبين أهمية عدم التصريح باللفظ البسيط المتضمن لمعنى فاحش، وضرورة اللجوء إلى التركيب عند التصريح به ويعني بذلك التوسط بمعنى مستعار يستدل به على المعنى الفاحش المتضمن، والدلالة على اللفظ القبيح بالإشارة دون العبارة، والإعراض عن ذكر اللفظ الفاحش بالشبيه أو المناسب إلى تسميته بما يخالف معناه، ونتيجة لوعي التوحيدي بهذه الوسائل فقد سعى في كتابه (أخلاق الوزيرين) إلى تجنب ما يمكن أن يحفظ به كرامة هذين الوزيرين، أو يحسن من صورتهم أمام الناس. ينظر: ابن سينا، الشفاء، ج4، ص 207.

² يصنّف سيجارا الوقاحة إلى أنواع ثلاثة: فظاظة الكلمة وتتمثل في استخدام المصطلحات البذيئة، وفضاظة العمل والتي تقوم على استخدام الأفعال اللفظية أو غير اللفظية سعياً منه في ازدراء الأشخاص والتقليل من شأنهم، وأخيراً فظاظة التراخي وتظهر في مختلف السلوكيات التي يقوم بها المتكلم وفيها إهمال، أو عدم اهتمام أو عدم استجابة لمتطلبات المتلقي.

Segarra, C. How to Become a True Professional. USA: Xulon Press, 2007, P 141.

شرع التّوحيديّ في توضيح السّبب الّذي زيّن له سرد أخبار الوزيرين، وهما الصّاحب ابن عبّاد¹، وابن العميد² رغم وعيه بجسارة الطّريق وعظم ما سيخوض من جهة، ولتبرير هذا العمل الهجوميّ والسّلوّك العدواني من جهة أخرى ممّا دفعه إلى التعلّل بحجة تدعو إلى ضرورة الامتثال لطلب ابن سعدان الّذي كلّفه "بنسخ أشياء من حديث ابن عبّاد وابن العميد وغيرهما"³ ممن أدركه في عصره، فأخذ يعرّف بدخائلهما، و"خوافي أحوالهما، وغرائب مذاهبهما وأخلاقهما"⁴، ولعلّ هذا ما يدفعنا إلى إثارة التساؤل التالي: هل سلك التّوحيديّ مسلك التّشنيع والتّقبّيح لطبيعة شخصيّة فيه، أم أنّها نتيجة لظروف ومعاملة أفضت به إلى هذا المسلك؟

¹ إسماعيل بن عباد بن العباس بن عباد الطالقاني نسبة لمدينة طالقان بقزوين، يكنى بأبي القاسم، ولد في السنة السادسة والعشرين والثلاثمائة، واختلف في مكان ولادته فقليل بإصطخر، وقيل: بالطالقان، وقد لقب بكافي الكفاة والصاحب، وقد أشارت المصادر إلى أنه أول من سمي بالصاحب من الوزراء لسببين: فأما الأول فهو نتيجة صحبته لمؤيد الدولة في صباه، وهذا ما مال إليه صاحب الأعلام، وأما الثاني فلمصاحبته ابن العميد، قيل عنه بأنه نادرة الدهر وأعجوبة العصر في الفضائل والمكارم، فقد أخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوي، وكذلك عن أبي الفضل ابن العميد، وافته المنية سنة خمس وثمانين وثلاثمائة للهجرة. ينظر: الصفدي، خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، ج9، ص 76-77، وينظر أيضًا: ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1، ص 228-233، وينظر أيضًا: الزركلي، محمود بن محمد، الأعلام، ج1، ص 316.

² هو محمد بن العميد أبي عبد الله الحسين بن محمد الكاتب، عرف بابن العميد تعظيمًا له، والعميد هو لقب والده، وكان وزير ركن الدولة أبي علي الحسن بن بويه الديلمي والد عضد الدولة، توسّع في علوم الفلسفة والنجوم، وكان أعجوبة يضرب بها المثل في الترسل والإنشاء والبلغة حتّى أسماه البعض بالجاحظ الثاني، وقد اختلف في سنة وفاته فقليل سنة ستين وثلاثمائة، وقيل سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وقيل سنة ستين وثلاث مائة، والأرجح سنة ستين وثلاثمائة التي أشار إليها كحالة والزركلي. ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط1، 1994م، ج 5، ص 103-113، وينظر أيضًا: كحالة عمر رضا، معجم المؤلفين، ج9، ص 257، وينظر أيضًا: الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، ج 12، ص 213، وينظر أيضًا: الزركلي، محمود بن محمد، الأعلام، ج6، ص 98.

³ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين الصاحب ابن عباد وابن العميد)، حققه وعلق عليه: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، 1992م، ص9.

⁴ المصدر نفسه، ص 9.

الإطار العام لنظرية غياب التلطف

يسعى التّوحيديّ في أخلاق الوزيرين إلى إظهار إنصافه وعدله في ترصد أحوال الوزيرين الصّاحب بن عباد وابن العميد، فنجدّه يؤكّد على لسان ابن سعدان أنّ حديثه عن هذين الوزيرين لن يكون جالباً لمقتهما، وداعياً إلى الرّأيّة عليهما، وباعثاً على سوء القول والاعتقاد فيهما، بل إنّه قد تناول ما قد شاع وشهر عنهما من فضائل تميّزا بها عن غيرهما¹ مشيراً إلى أنّ الهدف الذي سوغ له الخوض في الحديث عنهما قائم على "تأديب النفس واجتلاب الأنس، وإصلاح الخلق، وتخليص ما حُسن مما قُبِح، وتسليط النّظر الصحيح، مع العدل المحمود فيما أشكل واشتبّه بين الحسن المطلق والقبيح المطلق"²، ولعلّها من أسمى القيم التي دعا إليها التّوحيديّ -ولم يمتثلها بصورة تامة- في حديثه عنهما، فأغلظ العبارة وسعى إلى رصد السّقطات، والنّيل من الوزيرين بنشر مختلف أخبار الفحش والخساسة والدّناءة عنهما، ومن المثير إنزال هذا المعنى على التعريف الذي صاغه عدد من الباحثين وهم كولبيير Culpeper، وبوسفيلد Bousfield، وويشمان Wichmann عندما أشاروا إلى مفهوم غياب التّلطف القائم على مجموعة من الاستراتيجيّات التّواصلية المصممة لمهاجمة الوجه، والمتسبّبة في إحداث الصّراعات الاجتماعيّة، وانعدام علاقات الانسجام بين أطراف الخطاب³.

ومن المفيد أنّ ننبه على أنّ مفهوم غياب التّلطف اعتنى بمنجز القول ومتلقّيه نتيجة قيامه على مبدئي القصدية والإدراك، ويتجلى مبدأ القصدية عندما يلجأ منجز القول إلى التّواصل الهجومي بشكل استهدافي ومقصود، في حين أنّ مبدأ الإدراك يقوم على إدراك المتلقّي للهجوم المقصود، أو محاولة تبني المتلقّي لسلوك معيّن سعياً منه في مواجهة أيّ هجوم عمدي ومقصود، وكأنّه في حالة تأهب مستمرة، كما يمكن المزاوجة بين المبدئين، فيقصد منجز القول أمراً وفي الآن ذاته يدرك أنّ المتلقّي سيواجهه ويتصدّى له⁴.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 13.

² المصدر نفسه، ص 13.

³ Defines Impoliteness as "Communicative strategies designed to attack face, and thereby cause social conflict and disharmony...".

Culpeper, J., Bousfield, D., & Wichmann, A. Impoliteness revisited: with special reference to dynamic and prosodic aspects. *Journal of Pragmatics*, 2003, 35(10-11), P1546.

⁴ Culpeper, J. Impoliteness, and entertainment in the television quiz show: The Weakest Link. *Journal of Politeness Research: Language, Behaviour, Culture*, 2005, 1(1), P38.

وعليه، فقد توصل الباحثون إلى وجود فرق بين مفهوم الفظاظة Rudeness، والمفهوم الذي تغيب فيه قواعد التلطف Impoliteness رغم ارتباط كلا المفهومين بالسلوك العدواني، إلا أن الفظاظة تكون متممة بصورة دائمة، بينما غياب التلطف قد يجري بشكل مقصود أو بصورة عرضية، ويجدر بنا الإشارة إلى أن غياب التلطف وفي أحيان كثيرة يكون بصورة ردود أفعال لسلوكيات فظة¹.

واعتماداً على ما سلف بيانه، نشير إلى خمس استراتيجيات قامت عليها نظرية غياب التلطف لدى كولبير والتي تمثلت في الآتي²:

1. الاستراتيجية التصريحية التي يغيب فيها التلطف Bald on record Impoliteness وقوامها (أن ينفذ منجز القول العمل المهدد للوجه على نحو صريح، وموجز، ومباشر لا لبس فيه).

2. الاستراتيجيات التي يغيب فيها التلطف الإيجابي Positive Impoliteness ومؤداها (أن يلجأ منجز القول إلى توظيف استراتيجيات تلحق الضرر بوجه المتلقي الإيجابي)، ومن الأمثلة عليها: تجاهل المتلقي واستبعاده من نشاط معين، وإظهار عدم الاهتمام به، وعدم التعاطف معه، والسعي إلى الخلاف، واستخدام لغة غامضة أو سرية معه، أو استخدام كلمات محرمة³ Taboo، أو استدعائه بأسماء أخرى عوضاً عن ذكر اسمه.

3. استراتيجيات التي يغيب فيها التلطف السلبي Negative Impoliteness وتتمثل في (سعي منجز القول إلى توظيف استراتيجيات تلحق الضرر بوجه المتلقي السلبي)، ومن الأمثلة عليها: تخويف المتلقي، والتعالي عليه، والسخرية منه وازدراؤه، إضافة إلى التقليل من شأنه وعدم التعامل معه بصورة جادة، والعمل على إضفاء الطابع الشخصي في الحديث وذلك بفصل الأنا على الآخر.

¹ Nassrullah Hiba and Fadhil Nawal: Pragmatics of Impoliteness and Rudeness, College of Education for Women, Baghdad University, American International Journal of Social Science, Vol. 4, No. 6; December 2015, P195-205.

² Impoliteness and entertainment in the television quiz show: The Weakest Link. P 41-42.

³ يشير أولمان إلى أن اللامساس (أو الحظر) مصطلح يطلق على كل ما هو "مقدس أو ملعون، ويحرم لمسه أو الاقتراب منه لأسباب خفية، سواء أكان ذلك إنساناً أم كلمة أم شيئاً آخر". ينظر: أولمان ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال محمد يسر، مكتبة الشباب، سوريا، دط، دت، ص 174، وهامشها.

4. استراتيجية التَّهْكَم أو التَّلَطُّف الزَّائِف **Sarcasm or mock politeness** وقوامها (أن ينفذ منجز القول العمل المهدّد للوجه على نحو يوحي إلى المتلقّي بعدم مصداقيّته ممّا يجعل تأثير استراتيجيّات التَّلَطُّف عليه سطحيّاً).

5. استراتيجية الامتناع عن التَّلَطُّف **Withhold politeness** وتتمثّل في (إحجام المتلقّي عن التَّلَطُّف رغم ما يتوقّع منجز القول الحصول عليه من أفعال وأقوال لطيفة ومؤدبة)، ويظهر ذلك عندما يمتنع المتلقّي عن التعبير عن شكره وامتنانه نظير الهدية المقدمة إليه، فتصنّف على أنّها وقاحة متعمّدة منه.

وبناء على هذا التّصور، يستعرض التّوحيديّ مجموعة من الحجج الّتي تعزز من أقواله وتؤيد مقاصده، ولعلّ هذا ما دفعه إلى استخدام أسلوب المقابلة كأرضيّة خصبة تمهّد له ذكر الأسباب الدّافعة إلى انتهاك وجه الوزيرين وحرماتهما أمام العامة والخاصة، ويتّضح لنا ذلك بقوله:

1. "الكِبْرُ في استيفاء الحق من غير ظلم، كالتّواضع في أداء الحق من غير ذلّ.
2. المنع في موضع الإعطاء حرمان، كالإعطاء في موضع المنع خذلان.
3. الكلام في موضع الصّمت فضلٌ وهدر، كالسّكوت في موضع الكلام لكنةٌ وحصر.
4. القلوب جُبلت على حُبّ من أحسن إليها، كالنفوس طُبعت على بُغضٍ من أساء إليها.
5. الحبّ نتيجة الإحسان، كالبغض نتيجة الإساءة.
6. المُنعَم عليه لا يتهنّأ بنعمته الواصلة إليه إلا بالشّكر لواهبها، كالمُساء إليه لا يجد بَرْدَ غُلّته ولدّة حياته إلا بأن يشكو صاحب الإساءة، وإلا بأن يهجو المانع، ويذمّ المقصّر، ويثلبّ الحارم ويُنادي على الخسيس الساقط، والنّذل الهابط، في كلّ سوق، وفي كلّ مجلس، وعند كلّ هزلٍ وجَدٍّ، ومع كلّ شكلٍ وضدٍّ؛ ميزانٌ عدلٌ، ووزنٌ بقسطٍ، ونصفة مقبولة، وعادةٌ جارية على وجه الدّهر"¹.

ومما سبق تتجلّى لنا الرؤية الّتي شغلت ذهن التّوحيديّ، وجعلته يبدع في رسم خطة منهجيّة يسعى بها إلى استهداف الخصمين، فإنّ ما نسب إليهما من كبر وظلم في استيفاء حقوق الآخرين، وما آثره التّوحيديّ آنذاك من صمت نتيجة منعه وحرمانه من العطاء، كان دافعاً قوياً ومركزيّاً في تغيّر طريقة التّوحيديّ في التّعامل معهما، والانتقال من الأسلوب الّذي يثمن فيه الوجوه ويراعي فيه حرّات الآخرين، إلى أسلوب الّذي يعمد فيه إلى مهاجمة الوجوه، ويستهدف فيه حرّات الآخرين بالتّشهير والإساءة سعياً منه في الحصول على برد الغلّة ولدّة الحياة.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 11.

ولسنا هنا في موضع انتقاد لشخص التّوحيديّ، فحال من يشكو الفاقة والحرمان محال أن يتساوى مع من يعيش في رغد ورفاهية لا يفكر في رزق يومه ولا غده، ولعلّ هذا الأمر يدعونا إلى أن نستشف عن بعض الصفات الشخصية¹ المتأصلة في نفس التّوحيديّ والتي استطقتها حاجته وفاقته، وهي غزارة علمه وسعة معارفه ومداركه والتي تجلّت في كثرة الاستشهادات وتنوعها، فقد أورد آيات من القرآن الكريم، واستشهد بأحاديث نبوية شريفة، وأشعار عربية، وأمثال، ورسائل. ومن المهم أن نشير إلى أنّ سرد هذه الأخبار لم يكن عشوائياً أو اعتباطياً، بل سار وفق منهجية واضحة ومحددة معتمداً فيها على أمرين: فأما الأول فهو نتيجة صفة التّوحيديّ لهذين الوزيرين ومشاهدته لأحوالهما، وأمّا الثاني فقد استند فيه إلى السّماع والرّواية عنهما من البطانة والحاشية والنّدماء وذوي الملابس².

ويجدر بنا أن ننبه بأنّ التّوحيديّ شخصية اجتماعية محاطة بدائرة واسعة من المعارف والعلاقات التي تربطها بالآخرين والتي مكنتها من الحصول على أخبار هذين الوزيرين إلاّ أنّها -في الآن ذاته- تعاني من الكبر والإعجاب بالنفس والتي تجلّى في اعتداد التّوحيديّ بقوله، والإعلاء من شأن نفسه في مختلف التفاعلات القولية ممّا أوقعه في أزمة نفسية حزناً على نفسه، وحسرة على وضعه المادي والاجتماعي فرغم كلّ ما قدمه من أجل التّقرّب ونيل الخطوة من الوزراء إلاّ أنّه لم يحصد منهما سوى الحرمان والغلظة والمنع ممّا دفعه إلى الاجترار على أمور ثلاثة³:

¹ يفترض كولبير أربعة معايير تؤثر في غياب التلطف: وهي المعايير الشخصية، والمعايير الثقافية، والمعايير الظرفية، والمعايير النصية المشتركة، مشيراً إلى قوة تأثير المعايير الشخصية والثقافية عند مقارنتهما بالمعايير الظرفية والنصية المشتركة. ومن الطريف أن نشير إلى اختلاف المعايير الشخصية والأخلاقية في نفس التّوحيديّ التي كان لها أثر بارز في هتك أعراض الوزيرين، فنجدته يثني على صفتي التبذير والحمق في العطاء وإن كانت في التخلق بهما مخالفة لما جرت عليه العادة، وقد ظهر ذلك عند استشهاد = بحادثة يرويها له خازن كتب ابن العميد، وهو أبو علي مسكويه الذي يقول: "أما ترى إلى خطأ صاحبنا -وهو يعني ابن العميد- في إعطائه فلاناً ألف دينار ضريبة واحدة؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق"، فمسكويه يريد أن يثبت لابن العميد صفة التبذير، وانتقاء حسن التصرف عنده، في المقابل يعقب التّوحيديّ على كلامه فيقول: "هذا ذكرته - أياك الله - لتبين أن الخطأ في العطاء مقبول، والنفس تُغضي عليه، والصواب في المنع مردود، والنفس تقلق منه"، كما استشهد بقول عدي بن حاتم الذي أقر فيه بنجاعة أن يكون السيد متصفاً بالحمق في المال، الأمر الذي يؤكد لنا قوة تأثير المعايير الشخصية في التحكم في سلوكيات الفرد.

Culpeper, Jonathan. Reflections on impoliteness, relational work and power. In: Bousfield, D., Locher, M.A. (Eds.), Impoliteness in Language: Studies on its Interplay with Power in Theory and Practice. Mouton de Gruyter, Berlin and New York, 2008, p. 17-44.

وينظر أيضاً: التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 92.

² المصدر نفسه، ص 9.

³ يورد الماوردي ثلاثة وجوه لخلق الحياء في الإنسان، وهي كالتالي: الحياء من الله، والحياء من الناس، والحياء من النفس، ينظر: الماوردي، علي محمد، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط5، 2008م، ص 213-214.

أولاًها: الاجتراء على أوامر الله وما شرعه، فأخذ في توظيف الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة خدمة لمقاصده، وتأييداً على صحة أقواله، وحتى يسوّغ لنفسه الاتيان بما يريد والخوض فيها يشتهيه من أمرهما.

ثانيها: الاجتراء على الناس فشرع في ذكر ما فيه أذى للآخرين، فجاهر بقبيح الصفات والخصال التي تنأى عن قبولها النفس البشرية وتعجب.

ثالثها: الاجتراء على نفسه فسوء سريرته وإظهاره لمودة من لا يستحق، أوقعه في النفاق فأجحف في حق نفسه، وأبعدها عن الفضيلة. ولعلّ من أبرز الأمور التي أوقعت التّوحيديّ في أدران الحسد والبغضاء¹ فقره وانعدام المال، وتعرّضه لشطف العيش، ومقارنة حاله بما يتمتع به هذين الوزيرين من رغد العيش ورفاهيته، الأمر الذي دفعه إلى الاعتراض على قضاء الخالق في تقسيم الأرزاق²، وحرّضه على أن يشنّ حرباً كلامية على هذين الوزين تمثّلت في عدد من الاستراتيجيات التي سعى من خلالها التّوحيديّ إلى الانتقام والتّشفيّ عبر تشويه الوجوه وتدنيس الأعراض.

¹ دواعي الحسد ثلاثة وهي متدرجة من أقلها حتى أشدها: 1. بغض المحسود لفضائله ومناقبه، 2. فضائل المحسود التي يعجز عنها ويكره تقدمه فيها واختصاصه بها، 3. الحاسد لديه شح بالفضائل وبخل بالنعمة وليست إليه فيسخط على قضاء مولاه، ونلاحظ من الدواعي التي بعثت التّوحيديّ على تأليف كتاب تجاوز 500 صفحة، إنما يميل لأن يكون الأخير وهو أشدها وأكثرها جهداً وسقماً، ينظر: الماوردي علي محمد، أدب الدنيا والدين، ص 223.

² التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 33.

استراتيجيات تشويه الوجه انتقامًا وتشفيًا

يظهر عنف التوحيد القولي من خلال سلوكه العدوانى اتجاه الوزيرين، واتخاذ خطه عنيفة تستهدفهما، وتعنى بالتحقير من شأنهما والتقليل من مكانتهما الاجتماعيه، نتيجة ما خلقته سوء أفعالهما من أثر بالغ في نفسه مما دفعه إلى كشف الغطاء¹، وهتك الأسرار والحرمان، رغبة منه في التنفيس عما في نفسه من ألم وحرقة معتمدًا في ذلك على منهج يهدف إلى تجريد هذين الوزيرين من "دعائم العالم، وأركان الحياة، وأمهات الفضائل، وأصول مصالح الخلق في المعاش والمعاد، وهن: الدين، والخلق، والعلم"².

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الاستراتيجية التصريحية لغياب التلطف كان لها حضور فاعل في أغلب ما ورد في حق هذين الوزيرين مما دفعنا إلى استنطاق المدونة البحثية، وصياغة تلك الاستراتيجيات بالاستناد إلى الطرائق المتنوعة التي أنجز فيها التوحيد تلك التهديدات مراعين في ذلك استراتيجيات كولبير الخمس.

- استراتيجية (انشر ولا تستر)

تقوم هذه الاستراتيجية على مبدأ يبيح للتوحيد إفشاء جميع الأسرار، وإشاعة كافة الأخبار بغية انتهاك وجه الوزيرين الإيجابي والسلبي، وقد تجلت هذه الاستراتيجية في مساعي التوحيد في إظهار الوزيرين في حال من انتفت حسانتهما حتى غمرتهما المساوي، وذاعت مثالهما فلم تبق لفضائلهما قدرًا³، الأمر الذي سوغ له الشروع بهجاء هذين الوزيرين، سالكا مسلك التشهير والتحقير، نصرًا لنفسه التي تعرضت للذل والفقر والمهانة والتي عبر عنها بقوله: "فأنا ذلك المظلوم، ولا بد لمن ظلم من أن يتظلم"⁴.

لقد شرع التوحيد ابتداء في رصد عيوب الصاحب ابن عباد، فأشار إلى مدى استخفافه واحتقاره للناس نتيجة لعُجبه بنفسه، واتصافه بالكبر في كلامه وحركاته، ولعل هذا ما أثبتته لنا الروايات التي أوردها التوحيد عنه والتي باشر الصاحب فيها بالتصريح عن موقفه اتجاه من استقبله في

¹ التوحيد، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 35.

² المصدر نفسه، ص 27.

³ المصدر نفسه، ص 26.

⁴ المصدر نفسه، ص 77-78.

منطقة الرّي بعد مفارقتة لعضد الدّولة. ورغم اختلاف أقدارهم، وتفاوت مستوياتهم الاجتماعيّة، وتباين مكانتهم السّياسيّة إلّا أنّه لم يعبأ بذلك، فبدأ بالقاضي أبي الحسن الهمدانيّ، فقال له وهو مستخف به:

"ولو شهدتني بين أهلها [ويعني أهل المجالس] وقد علوْتهم ببياني ولساني وجَدلي، لأنشدت قول حسان بن ثابت في ابن عباس،...، ولقد أودعت صدر عضد الدّولة ما يطول به التفاتُه إليّ، ويديم حسرتَه عليّ، ولقد رأى ما لم ير قبله مثله، ولا يرى بعده شكله"¹.

هذا ونتبيّن تهديده ووعيده لكلّ من ينافسه في السّمو بذاته والذي تجلّى فيما خاطب الصّاحب فيه الرّعفرانيّ رئيس أصحاب الرّأي بقوله: "وقد بلغني عدواؤك وما خيله إليك خيلاؤك وأرجو أن أعيش حتّى يرد عليك غلواؤك،...، ولي معك - إن شاء الله - نهار له ذيل، وليل يتبعه ليل، وثبور يتصل به ويل، وقطر يدوم معه سيل"².

وظهر تمّن الصّاحب بن عباد على الناس وإظهار فضله عليهم عند قوله لابن أبي خراسان الفقيه الشّافعيّ:

"لولا أنّني أرعى قديما قد أضعته، وأعطيك من رعايتي ما قد منعتَه، لكان لي ولك حديث، إما طيب وإما خبيث؛ خلفتك محتسباً فخلفت مكتسباً، وتركتك أمراً بالمعروف فلحقّتك راكباً للمنكر، قد يفيل الرّأي ويخيّب الظن، ويكذب الأمل"³.

هذا وقد أوضح الجرفادقانيّ كاتب داره سُخنة عين الصّاحب وربيته واحتياله خوفاً من أن يفطن الناس لنقصه، وخاصة عندما طلب منه الصّاحب تحرير حساب داره، وإحصاء ما يجري عليه من دَخل وخرَج، وبعد تنفيذ الجرفادقانيّ لطلبه، وتحريره للحساب على قاعدته وأصله، نجد حِدّة طبعه، ولؤم نفسه أن يقابله برمي الكتاب، ويقول:

"أهذا كتاب، أهذا تحرير، أهذا تقرير، أهذا تفصيل، أهذا تحصيل؟ والله لولا أنّي قد ربّيتُك في داري، وشغلت بتخريجك ليلي ونهاري، ولك حرمة الصّبا، وتلزمني رعاية الأبناء، لأطعمتك هذا الطومار، وأحرقْتُك بالنفط والنار، وأدّبت بل كلّ كاتب وحاسب، وجعلتك مُثلاً لكلّ شاهد وغائب"⁴.

¹ التّوحيد، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 95-96.

² المصدر نفسه، ص 97-98.

³ المصدر نفسه، ص 102.

⁴ المصدر نفسه، ص 118-120.

ولعلّ ما أشرنا إليه سابقاً يبيّن لنا مدى استهانة الصّاحب بجهود بطانته، واستخفافه بعمل كاتبه رغم ما بذله من جهد دون تثبّت أو تفحصٍ أو مسألة. كما أدى توظيف الاستقهام الإنكاري، وأفعال جواب الشرط بلولا التّاليّة (لأطعمتك، وأحرقتك، وأدّبت، وجعلتك) من وظيفة تهديديّة للجرفادقانيّ تفضّح مساعي الصّاحب في إهانته والانتقام منه، ابتداء من الوجه من خلال إطعامه للصّحيفة الّتي كتبها، وصولاً إلى كامل الجسد عبر إحراقه بالنّقط والنّار، وجعله مثلاً يؤدّب به كلّ كاتب ومحاسب بشكل خاص، وعبرة لكلّ شاهد وغائب بشكل عام. والغريب في هذه الواقعة، أنّ جهل الصّاحب بدا واضحاً في ضحكه وثنائه ومباركته في صنيع الجرفادقانيّ بعدما تعمّد التّلاعب في الحسابات بغية إفساد تلك الصّحيفة، علاوة على استمرار عجب الصّاحب بنفسه، وثنائه على يقظته¹ في اكتشاف أخطاء الجرفادقانيّ مما يؤكّد تجذّر صفتا الجهل والعجب في نفسه.

ولم يغفل التّوحيديّ عن سرد غزل الصّاحب الشّاذ بالغلماں وافتتانه بهم والّذي ظهر عند ثنائه على حسن وجه الغلام الّذي بقل وجهه، ونهيه عن الشّحوب نتيجة اتهام بعضهم إليه بقبح الوجه²، علاوة على تأكيد قلة دين الصّاحب الّذي دفعه إلى تصنيف رسالة يدّعي فيها أنّه المهديّ المرتقب³.

في مقابل ذلك، يسعى التّوحيديّ إلى توظيف الاستراتيجية التّصريحية الّتي تنعدم فيها قواعد التّلفّظ ومبادئه، رغبة منه في بث مساوئ ابن العميد بشكل واضح وجلي قبل أن يسرد أيّة شهادة أو رواية، فأخذ في وصفه بأنّه طامّة أخرى، ويقول:

"نقصه من ضرب لم يكن له فيه ضريب، كان يُظهر حلماً تحته سغه، ويدّعي علماً هو به جاهل، ويُرِي أنّه شجاع وهو "أجبن من المنزوف صرطاً"⁴، وكان يدّعي المنطق وهو لا يفي بشيء منه، ولم يقرأ حرفاً على أحد، ويتشبع بالهندسة وهو منها بعيد، ولم يكن معه من صناعة الكتابة الأصل وهو الحساب، وكان أجهل الناس بالدّخل والخرج... وكان مع هذا سيّء السّيرة، قليل الرّحمة، شديد القسوة، وارم الأنف، عظيم التّيه، شديد الحسد لمن نطق ببيان، أو أفصح بالعربيّة وسيتبيّن بعض هذا بما أذكره لك بشاهد عدل، وراو ثقة"⁵.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 121.

² المصدر نفسه، ص 104.

³ المصدر نفسه، ص 208.

⁴ تعددت المرويات التي ضرب من أجلها هذا المثل، ولكنها في المجمل تتفق على وجود رجل ادّعى الشجاعة ولكنّه في الحقيقة جبان خواف، ينظر: العسكري، الحسن بن عبد الله، جمهرة الأمثال، دار الفكر - بيروت، د.ط، د.ت، ج 1، ص 324.

⁵ أخلاق الوزيرين، ص 321-322.

ويتضح لنا مما سبق استباقية الصورة الماثلة في ذهن التّوحيديّ لابن العميد والتي رغب في تأكيدها عبر الشّهادات والروايات التي سيردها، والمتضمّنة لأبشع صفات ابن العميد والتي لا يضاهيه أحد فيها -كما زعم- والتي تمثّلت في السّفه والجهل والجبن، وإدّعاء العلم بالمنطق والهندسة والحساب، علاوة على سوء سيرته، وقلة رحمته، وشدة غلظته وحسده لمن يفوقه بيانًا وإفصاحًا، كما ينتقل التّوحيديّ من نشر أسوء صفات ابن العميد الخُلقيّة إلى بيان صفته الخُلقيّة مشيرًا إلى أنه وارم الأنف ليكنّي بذلك عن سرعة غضبه¹ وقلة حلمه.

هذا وقد ظهر حسد ابن العميد وخسته ولؤمه ونقصه وسقوطه عندما اغتاز من فصاحة الكاتب أبي طالب الجّراحيّ الذي عُرِفَ بأنّه أنطق عصره لسانًا وقلَمًا عندما لقيه بالري، الأمر الذي دفعه إلى العمل على سُمّه رغبة في التّخلص منه²، ونتيجة لذلك كتب إليه أبو طالب كتابًا يوضح له معنى الرّئاسة، وكان ابن العميد تلميذه الذي هو في حاجة ماسة إلى الإفهام والتّعليم، وليتمكّن في الوقت ذاته من أن يوجّه سهام النّقد اللاذع له من خلال استعراضه لكلّ شاردة وواردة تضمّنت أسوأ صفات ابن العميد، فأخذ يقول:

"وأنت! فبابك مقفل، ومجلسك خال، وخيرك مقنوط منه، وإحسانك منصرف عنه، ووجهك عابس، وبنائك يابس، وكنفك حرج، وخادمك مذموم، وحاجبك هَرّار، وبوابك كلب، ودرهمك في العيوق³، ورغيفك في منقطع التراب، وجاهك موفور عليك، وتذكركت محشوة بالقبض على فلان، وباستئصال فلان وبنفي فلان، وبسم فلان، وبالّس على فلان، وبحطّ مرتبة فلان"⁴.

ويمكننا أن نستشف تجاوز الجّراحيّ في نقده الحد الذي رصد فيه ذميم صفات ابن العميد من قلة العطايا، وعدم قضاء حوائج الناس، وانصرافهم عن حضور مجلسه نتيجة عبوسه وسوء خُلّقه معهم، إلى التّعدي على حاشيته من الخادم والحاجب والبواب، حتّى بلغ في تشبيهه البواب بالكلب⁵. ولم يغفل الجّراحيّ عن رصد تحركات ابن العميد الخفيّة، وتصرفاته اللّئيمة التي تستهدف الخلق،

¹ ينظر: الهاشمي، أحمد بن إبراهيم، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ج1، ص 292.

² التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 322-323.

³ يوضح الزبيدي معنى العوق بأنه ما خيس، ينظر: الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، ج26، ص 229.

⁴ أخلاق الوزيرين، ص 323-324.

⁵ وظّف الجّراحيّ التشبيه المجل عندما شبه بواب ابن العميد بالكلب، وقد حذف وجه الشبه لوضوحه، وذلك لأن البواب يشبه الكلب في علو صوته، وكثرة صياحه على الناس الأمر الذي يشبه الكلب في كثرة نباحه.

وتسعى إلى الاستئصال والنّفي والسّم والدّس والحطّ من مراتب الآخرين مما يدل على حقارته وخبث نفسه.

هذا وقد نقل التّوحيديّ مواقف عدة عن أصحابها على اختلاف قريهم ومكانتهم من ابن العميد ليؤكد سوء خُلُقهِ وقلة رحمته، منها:

- حادثة يسردها مدبّر شؤون داره، والمشرف على غوامض أمره، القاضي ابن عبد الرحيم الذي عرض قصة وفادة الشّاعر ابن نباتة السّديّ على ابن العميد طمعاً وأملاً فيما عنده من مال، إلا أنّ الأخير منعه ولم يكرمه بدرهم واحد رغم ما سمعه من شعره ممّا دفع القاضي إلى الاعتذار من ذلك الشّاعر البائس، وإكرامه بشيء من ماله¹.

- حادثة شاعر من الكرخ يعرف بمويه الذي لزم ابن العميد، مغترباً عن أهله، ومتأملاً في خيره، ومتذللاً لما عنده، ومعرضاً عن قول ناصحيه قبل وفادته إليه، إلا أنّ ابن العميد قابل كلّ ذلك التّذلّل وحسن التّأمل فيما عنده بالإعراض والمنع².

هذا وقد اتضح لؤم ابن العميد وشؤمه عبر قتله لأبي المحاوش البدويّ نتيجة لشرافته واكتساحه للأكلّ وطلبه للزيادة مما أحرق فؤاد ابن العميد، ودفعه إلى أن يكيد خطة تقوم على تقطيع الجلود بحجم يشبه البندق، وتقديمها في عجة وافرة إليه رغبة في القضاء عليه³. علاوة على عقوقه بأبيه الذي دفع والده إلى التّبّرأ منه، والهروب إلى خراسان⁴.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 333-334.

² قصة هذا المجلس طويلة يشارك فيها الشّاعر ابن نباتة بعدما أحرق قلبه المنع، مما يؤكد لؤم طباع ابن العميد، وخساسة خُلُقهِ، ينظر: المصدر نفسه، ص 341-344.

³ المصدر نفسه، ص 350-351.

⁴ المصدر نفسه، ص 352-353.

- استراتيجية (سخر اللغة لصالحك)

تقوم هذه الاستراتيجية على وعي عميق باللغة ممّا يدفع منجزها إلى اتخاذ كافة الأساليب في سبيل تسخيرها لصالحه، ومن الطّريف أن نشير إلى تفتّن كولبير إلى هذا الأمر فقد ألف مصنفاً بعنوان: (غياب التّلفّظ: استخدام اللغة لإحداث الجريمة) والذي تجاوز فيه تناول الإساءة والوقاحة من المنظور الاجتماعي إلى منظور التشريعات والعقوبات¹.

وبالعودة إلى المدونة، يسعى التّوحيديّ إلى إبراز الوقاحة المتأصلة في سلوك الصّاحب بن عباد اللّغويّ والتي ظهرت في تعمّد الصّاحب بن عباد استخدام الكلام الوحشيّ الذي لا تعرفه العامة، ومثال ذلك ما قاله الصّاحب عند لقائه بقرّورّان المجوسيّ في دار الإمارة:

"إنّما أنت مجش محش لا تهش ولا تبش ولا تمتش"².

ولعلّ من الصّعب بمكان إدراك معاني تلك المفردات لكونها غير معروفة أو مألوفة، وهي طريقة خفيّة لجأ إليها الصّاحب لاتهام المجوسيّ بخشونة الطّبع والغلظة، والبعد عن اللّينة واللّطافة، الأمر الذي تفتّن إليه المجوسي، فقال له:

"إن كان من رأيك أن تشتمني فقلّ ما شئت بعد أن أعلم، ...، كلّما بما نعقل على العادة التي عليها العمل؛ والله ما هذا من لغة آبائك الفرس، ولا لغة أهل دينك من هذا السّواد؛ فقد خالطنا النّاس فما سمعنا منهم هذا النّمط"³، ممّا أغاظ الصّاحب وجعله يفرّ من الدّار نتيجة ما أصابه من الخزي والغضب نظير انتقاد أقواله وأفعاله، الأمر الذي يؤكّد نرجسيته، ويوضّح شدّة اعتداد الصّاحب بصحة ما يأتي به.

وفي موضع آخر، يبيّن التّوحيديّ تشدّد الصّاحب بن عباد، وبلوغه أبعد حدّ، وتقوّقه على الجميع في باب المخاطبات والذي اتخذه باباً يسوّغ له التّقلب في الخيرات، والتّمتع بالنّعم، ومطالبة النّاس على اختلاف قدرهم ومكانتهم بما ليس في طاقتهم، ولم تجر به العادة⁴، وكأنّ مدار لذّته واستيفاء شهوته موصولتين بالتّعالي على الآخرين، والتّفرد بإيراد ما يشدّ عن الأسماع، وهو أمر يؤكّد بعد

¹ Culpeper, J. Impoliteness: Using Language to Cause Offence. Cambridge: Cambridge University Press, 2011.

² التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص104.

³ المصدر نفسه، ص105.

⁴ المصدر نفسه، ص 287.

الصَّاحِب عن الالتزام بالجانب التَّهذِيبِيّ الأخلاقيّ العاطفيّ الَّذِي يلجأ إليه الفرد -في طبيعة العادة- رغبة منه في استمالة القلوب، والابتعاد عن كلّ ما هو قبيح وشنيع¹.

كما سعى التَّوْحِيدِيّ إلى توظيف الفعل الكلاميّ التَّوجِيهِيّ الطَّلْبِيّ لاستكشاف أمر الصَّاحِب بن عباد، فنجدهُ يُحَدِّث الرَّعْفَرَانِيّ قائلًا:

"اصدقني أيُّها الشَّيْخ عن هذا الإنسان، كيف وجدته في طول ما عجمت عودَه، وتصفَّحت أخلاقه، وخبرت دِخلته. فقال: وجدته كَلِيل الكرم، حَادّ اللُّؤْم، رقيق الظاهر، مُريب الباطن، دنس الجيب، مُثْرِيًّا من العيب، ... وأنا أَسْتَغْفِر الله من قولي فيه ونفاقي معه؛ ولعن الله الفقر فهو الَّذِي يُحِيل المروءة، ويقدح في الدِّيانَة؛ ولو كان لي ببغداد قوتٌ يحفظ عليّ ماء الوجه ما صبرت على هذا الرِّقِيع البارد المجنون المطاع ساعة، ولكن ما أصنع قد قَلَبْتُ أُمري ظهراً لبطن، مالي إلى الرزق باب إلاّ منه"².

ومما سبق تتجلى لنا رغبة التَّوْحِيدِيّ في إلزام الرَّعْفَرَانِيّ بتحري الصّدق في القول بشأن الصَّاحِب بن عباد، وفي المقابل نجد امتثال الرَّعْفَرَانِيّ لهذا الأمر، فأخذ في سرد أشنع صفات الصَّاحِب والمتمثلة في قلة كرمه، وسذاجة ظاهره، وشُبْهة باطنه، وفسقه فيما يملك، وامتلائه بالعيوب، طالبًا المغفرة من مولاه على نفاقه وتملّقه، متجاهلاً إيراد أية خصلة حسنة لهذا الرجل.

وقد أكثر التَّوْحِيدِيّ من توظيف الشَّاهد على اختلاف أنواعه وتفاوت درجات قوته باعتباره وسيلة تأثير وتصديق، فأخذ يستشهد من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، والشَّعر العربيّ، والأمثال العربيّة ممّا يؤكّد سعة علمه، وعمق مخزونه الثَّقافيّ والمعرفيّ، إضافة إلى وعيه التَّام بالدور الَّذِي يلعبه الشَّاهد في التَّأثير في المخاطبين على اختلاف مستوياتهم الفكرية، ومراتبهم

¹ بوراس علي، واللطيفي حمادي، ومجموعة من الباحثين، الخطاب والأخلاق مقاربات بلاغية وتداولية، ص 11. يشير كولبير إلى ثلاثة أنواع من غياب التلطف، فأما النوع الأول فيتمثل في غياب التلطف العاطفي التَّأثيري Affective Impoliteness، ويظهر عندما يبدي المتكلّم غضبه اتجاه المتلقّي بشكل صريح ومباشر مما يخلق جوًّا عاطفيًّا سلبيًّا بينهما، وأما النوع الثاني فيظهر في غياب التلطف القهري Coercive Impoliteness ويتمثل في المعاملة المكروهة التي يقوم بها المتكلّم رغبة منه في الحصول أرباح على حساب المتلقّي، مشيرًا إلى أنها الوسيلة التي تمكّن المتكلّم من الحصول على القوة عن طريق اللغة، وأما النوع الثالث والأخير فهو قائم على عنصري التمتع والتسلية على حساب مشاعر المتلقّي Entertaining Impoliteness، ويظهر ذلك عندما يقوم المتكلّم بالسخرية من المتلقّي، أو استغلال مشاعره من أجل إضحاك الآخرين. ينظر:

Culpeper, J. Impoliteness: Using Language to cause Offence, P 252.

Nassrullah Hiba and Fadhil Nawal: Pragmatics of Impoliteness and Rudeness, Vol. 4, No. 6, p195-205.

² التَّوْحِيدِيّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 105-106.

الاجتماعيّة، مما يسوغ له -في الآن ذاته- التّصريح بما يشاء من مستقيح الكلام، على لسان غيره، ومن الأمثلة على ذلك:

-تنبية الملتقي لرسالة كتبها الجاحظ في ذم أخلاق محمد بن الجهم ومساواته بإبليس، في مقابل مدحه لأخلاق ابن أبي داود وكأنّه ملك سماوي منزّه عن النقائص¹.

-استشهاده بحديث عن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام: "اذكروا الفاسق بما فيه كي تحذره النّاس"²؛ حتّى يبيح لنفسه الخوض في عرض هذين الوزيرين.

-استشهاده بوقائع وقصص ومرويات ينقلها بصورتها التّفصيليّة، فاستشهد برسائل كلّ من أبي العباس عبيد الله بن دينار³، وأبي هيفان إلى ابن مكرم⁴، وأبي محمد العروضيّ لابن حمّاد في ابن مقلة أبي علي⁵، ليتمكّن من تأييد مذهبه، ويؤكد صحة منهجه القائم على شتم المتصف بقبيح الأخلاق، وخساسة الأصل، وسوء الصنيع.

-استشهاده بقوله تعالى: (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلّا من ظلم)⁶، وبيان ميله إلى ما رواه أصحابه عن ابن عباس في أنّ معنى (إلّا من ظلم) هو "إلّا من لم يُكرّم في ضيافته"⁷ فكلّ لئيم في إكرام ضيفه مستحق للجهر والإشهار بسوء صنيعه.

وقد وظّف التّوحيديّ الشّاهد الشّعريّ بصورة بيّنت أنّ الإفصاح بفحش الأقوال، وانتهاك أعراض النّاس، ما هي إلّا نتيجة للحرمان، ومنع العطايا، والتّعريض للظلم، ومن تلك الشّواهد قول أحدهم:

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 42-43.

² في سبل السلام: "اذكروا الفاسق بما فيه كي يحذره النّاس"، وتخرجه بأنه ضعيف، وأخرجه الطبراني بإسناد حسن، وقد ضمنه الحسني في باب النهي عن السباب، مبيناً خلاف العلماء في جواز سب الفاسق، ينظر: الحسني محمد إسماعيل، سبل السلام، دار الحديث، دط، دت، ج2، ص 663. وينظر أيضاً: أخلاق الوزيرين، ص 44.

³ المصدر نفسه، ص 47.

⁴ المصدر نفسه، ص 63-66.

⁵ المصدر نفسه، ص 66.

⁶ القرآن الكريم، سورة النساء، الآية 147.

⁷ أخلاق الوزيرين، ص 77.

يجمل صاحب زاد المسير سبب نزول الآية في قولين: الأول وقد نسب لمجاهد لا ابن عباس، وهو: أن ضيفاً تضيّف قومًا فأسأوا قرأه فاشتكاها، فنزلت هذه الآية رخصة في أن يشكوا، والثاني لمقاتل بن سليمان وهو: أن رجلاً نال من أبي بكر الصّدّيق في وجود النبي عليه الصّلاة والسلام، فسكت عنه أبو بكر مراراً، ثم ردّ عليه، فقام النبي صلّى الله عليه وسلّم، ينظر: الجوزي، عبد الرحمن علي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط1، 2001م، ج1، ص 491.

"فإن تمنعوا ما بأيديكم ... فلن تمنعوني إذا أن أقولاً"¹.

وفي موضع آخر يشبه التّوحيديّ شراسته ورغبته في هتك عرض الصّاحب بحال الأسد الّذي ينهش لحم فريسته، فنجدّه يستشهد بقول أحد الشعراء فيقول:
"فيا قومنا لا تظلمونا فإننا ... نرى الظلم أحياناً يشل ويعرج
ويترك أعراض الرجال كأنها ... فريسة لحم ليس عنها مهجج"².

- استراتيجية (اسأل، ارصد، انشر)

لعلّ من أبرز الطّرق الّتي لجأ إليها التّوحيديّ بغية إفشاء أسرار هذين الوزّرين، توظيفه لاستراتيجية (اسأل، ارصد، انشر) والّتي تقوم على إيراد مجموعة من الأخبار والقصص والرّسائل المنتقاة، كمحصّلة لنتائج أسئلته وتحرياته بشأنهما، ممّا يسوّغ لنا القول بأنّ السّؤال -في مواضع كثيرة من أخلاق الوزّرين- قد نهض باعتباره وسيلة استخباريّة مكّنت التّوحيديّ من تتبّع أحوالهما ورصد مساويهما. ولقد وظّفت هذه الاستراتيجية بشكل فاعل في اقتفاء أثر الصّاحب بن عباد والتّتقيب عن خصيصة سيئة فيه والّتي تجلّت في:

أ. سؤال التّوحيديّ للمسيبيّ عن قوله في ابن عباد³، وتحقيقاً لمراده، فقد عمد المسيبيّ إلى التّعظيم من مساوئ الصّاحب، ناسباً إليه كلّ الصّفات الذميمة، فأخذ يقول:
"له في الخلاعة قرآن مُعجز، وفي الرّقاعة آية مُنزلة، وفي الحسد عرق ضارب، وفي الكذب عارٌّ لازب؛ لا ينزع عن المساوي إلاّ ملأ، ولا يأتي الخير إلاّ كسلأ؛ ظاهره ضلالة، وباطنه جهالة، وليس له في الكرم دلالة، ولا في الإحسان إلى الأحرار آلة؛ فسبحان من خلقه غيظاً لأهل الفضل والأدب، وأعطاه فيضاً من المال والنشب!"⁴.

¹ ورد البيت في أخلاق الوزّرين بتلك الصيغة بينما في تاريخ دمشق والحامسة الصغرى فإن البيت ينسب إلى قعنّب بن ضمرة وهو قعنّب بن أم صاحب الفزاري الذي يقول فيه: "فإن تمنعوا ما بأيديكم فلن تمنعوني إذا أن أقولاً".

ينظر: التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزّرين، ص87، وينظر أيضاً: هبة الله علي الحسن، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م، ج 49، ص 357، وينظر أيضاً: الطائي حبيب بن أوس، الوحشيات وهو الحامسة الصغرى، علق عليه وحققه: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، زاد في حواشيه: محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط3، دت، ج1، ص 219.

² التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزّرين، ص88.

³ المصدر نفسه، ص107.

⁴ المصدر نفسه، ص107.

ويتضح لنا مما سبق تفنّن المسيبيّ في اعتماد أساليب تعبيرية عديدة ومتنوّعة تحقيقاً لمقاصده، منها:

1. تقديم شبه الجملة من الجار والمجرور المتعلّق بخبر المبتدأ (في الخلاعة، وفي الرقاعة، وفي الحسد، وفي الكذب) على المبتدأ (قرآن، آية، عرق، عار)، ليبين أهمية هذا الخبر، ويؤكد تأصل هذه الصفات الخسيسة في الصّاحب بن عبّاد.

2. استخدام أل الجنسية ليوضح استغراق نسبة هذه الخصال الذميمة كالخلاعة، والرقاعة، والحسد، والكذب وشموليتها في نفس الصّاحب.

3. توظيف الاستثناء المنفي بإلّا والذي ظهر في قوله: (لا ينزع عن المساوي إلّا مللاً، ولا يأتي الخير إلّا كسلاً) لينفي عن الصّاحب حالتين، فأما الأولى فهي الانفكاك عن المساوي، فهو موغل فيها إلّا في حال تملّله، وأما الثّانية فهي حالة المسارعة والمبادرة في تقديم الخير للآخرين، موضحاً كسل الصّاحب وتثاقله عن القيام بها.

4. تكرار أسلوب النفي بأداتين مختلفتين، وهما لا النافية وليس، واستخدمهما لنفي الفعل تارة والتي تمثّلت في قوله: (لا ينزع عن المساوي إلّا مللاً، ولا يأتي الخير إلّا كسلاً)، ولنفي مضمون الفعل تارة أخرى والتي تجلّت في قوله: (وليس له في الكرم دلالة، ولا في الإحسان إلى الأحرار آلة).

ب. ينقل الخليليّ تقييم ابن العميد الذّاتي على كلام الصّاحب عبر سؤال وجهه التّوحيديّ إليه متسائلاً عن مدى إقبال ابن العميد على سماع كلام الصّاحب، وهذا وقد جاءت إجابة ابن العميد كالآتي:

"سجّعهُ يدل على الخلاعة والمجانة، وخطه يدل على الشّلل والزّمانة، وصياحه يدل على أنه قد غلب بالقمار في الحانة، ...، وهو أحرق بالطبع إلّا أنّه طيّب، وإن كان له يومٌ تضاعف حمقه، وذهب طيبه، وضرّ أهل النعم والمروّات والأدب بالحسد والكبر والإعنات"¹.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 126.

ولعلّ الإجابة السابقة توضّح لنا مساعي ابن العميد في إبراز الجوانب السيئة من شخصية الصّاحب، بغية استنباط أقبح خصاله وأشنع صفاته من سجعه، وخطّه، وصوته. فأما السجع وهو الكلام الموزون المقفى¹ فقد أشار ابن العميد إلى أنّه قائم على الإخلال بالأدب العامة، ومائل إلى ذكر مستقبحات الأمور، وأما سوء خطّه فقد بيّن أنّه دليل واضح على إصابة الصّاحب بالشلل والعاهة المرضيّة، كما شبه ابن العميد شدة ارتفاع صوت الصّاحب بمن غلب بالقمار في الحانة؛ ليؤكد وضاعته ومقاربته لأهل الفسوق والعصيان.

ولم يغفل ابن العميد عن الإشارة إلى مزية حسنة في الصّاحب، وهي كائنة في الطّيبة، إلّا أنّ الصّاحب يحقّقها نتيجة لغلبة الحماقة في طبعه، والمضرة البالغة في فعله نتيجة لحسده وكبره وفجوره.

ج. يطلب التّوحيديّ من اللّغويّ ابن فارس بصورة صريحة ومباشرة أن يصدر حكمه على هذا الإنسان -أي الصّاحب بن عباد- من دون تسميته، وفي هذا تقليل كبير واستتقاص عظيم لقدره ومكانته، ويعقّب الآخر بإجابة موجزة يقول فيها:

"بأنّه لله عدوّ، وللأحرار مُهين، ولأهل الفضل حاسد، وللعامّة مُحبّ، وللخاصّة مُبغض"²، ويفصل قوله ويبينه بأنّه عدو لله لقلّة دينه، وإهانته للأحرار أمر مشهور عنه، وحسده مجرّب بالكلمة تبديها لأهل الفضل، وحبّه لمناظرة العامة، وإقصائه للخاصّة.

¹ الرّبيديّ محمّد بن محمّد، تاج العروس من جواهر القاموس، ج21، ص 179.

² التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 319-320.

- استراتيجية (خض في الأعراض)

يعي التّوحيديّ أن أقواله -وبالأخص في الصّاحب ابن عباد- غير محتشمة، ولا مُراقبة¹، ويأخذها بصورة تسوغ له هتك الأعراض وانتهاك الحرمات، وقد تجلّى ذلك عندما وظّف التّوحيديّ استراتيجية (خض في الأعراض) وهي قائمة على عدم اكتراث منجز القول في صيانة وجهي المتلقّي الإيجابي والسّلبّي، الأمر الذي دفعه إلى الاعتداء على حدود متلقّيه الشّخصيّة، والتجرّأ على حرّماته، والخوض في أعراض أهله قذفاً وسخرية.

ولعلّ هذا هو الحد الذي بلغه التّوحيديّ، عندما أورد أقوال ابن العميد أبي الفضل الشّنعاء التي أخذ يستهزئ بها في الصّاحب بن عباد، ووالده حتّى أنّه قد شبهه بالثور مرة، وبالحمار مرة أخرى، جاعلاً وجه الشّبه بينهما يكمن في علو الصّوت من دون جدوى والذي شف عنه قوله: "هو مع هذا الطّيش والخفة، والتّقلّ والتّثني أفضل من أبيه؛ فإنّ أباه كان ثوراً خوّاراً، وحماراً نهاقاً"². كما انتقل التّوحيديّ في قدح ابنه أبي الفتح³، متهمّاً إياه بالريّة، باعثاً شكوكه وسوء ظنونه فيه عندما كان غلاماً.

ولم يغفل التّوحيديّ عن الشّروع في انتهاك عرض ابن العميد، فأورد شيئاً مما كتبه الجّراحيّ فيه بعد أن تفتّن لأمره، واتضح له حد الحقد ومستوى الحسد الذي تجاوزه ابن العميد، وبخاصّة عندما انصرف منه الجّراحيّ ذليلاً مذموماً. كما زاوج الجّراحيّ بين الاستراتيجية التّصريحيّة التي ينعدم فيها التّلفّظ والتي تمثّلت في المباشرة بالتّصريح والهجاء، وبين الاستراتيجية التي ينعدم فيها التّلفّظ السّلبّي والتي تجلّت في فصل الأنا عن الآخر، وهذا ما عبّر عنه بقوله:

"فمتى كنت أنت وأباؤك تستحقّون خدمة رجلٍ من آل الجّراح؟ كأنّ بيتك بقمّ ما سألنا عنه، ولا وقفنا عليه؟ أليس أبوك كان قوّاداً⁴، وأبوه كان نحّالاً⁵؟ ها أنا قد انقلبْتُ عنك خائباً، أفضّعت وُبرْتُ وكسدت؟..."⁶.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 91.

² المصدر نفسه، ص 125.

³ المصدر نفسه، ص 125.

⁴ رجل قوّاد هو الديوث الذي لا غيره له على أهله، ينظر: رضا أحمد، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة - بيروت، 1960م، ج 4، ص 673.

⁵ ما سقط عند نخل الدقيق، ينظر: الأزدي محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط 1، 1987م، ج 1، ص 621.

⁶ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 325-326.

ويجدر بنا أن نقف عند الأغراض البلاغية التي دفعت الجراحِي إلى توظيف أسلوب الاستفهام بصورة متكررة في مواضع ثلاثة، وهي كالتالي:

الموضع الأول عند قوله: "قمتى كنت أنت وأباؤك تستحقون خدمة رجلٍ من آل الجراح؟".

وأما الموضع الثاني فعند قوله: "أليس أبوك كان قَوَادًا، وأبوه كان نَحَالًا؟".

وأما الثالث فعند قوله: "أفضعت وبرئت وكسدت؟".

ولعل ما سبق يوضح لنا خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي الذي يهدف فيه الجراحِي إلى الحصول على إجابة، إلى استفهام إنكاري يقوم على غرض بلاغي متمثل في استنكار حال ابن العميد، وإظهار نقصه ووضاعته رغم ما يبيديه من تكبر وتعظيم على الخلق، وقد تمكّن الجراحِي من استهداف ابن العميد عبر طريقة ذكية سعى من خلالها إلى بيان انقلاب الحال وتحول العلاقة المتبادلة بينه وابن العميد من علاقة يسعى كل طرف منها إلى استمالة الطرف الآخر بغية تحقيق مصالحه وغاياته الدفينة، إلى علاقة مفككة يفصل فيها الأنا عن الآخر، بل ويتعالى فيها الجراحِي على ابن العميد، وعلى آبائه وأجداده مظهرًا عدم استحقاقهم لخدماتهم. ولم يكن ذلك، بل بلغ الجراحِي الحد فغذف عرض والد ابن العميد بالديانة وانعدام الغيرة على المحارم، إضافة إلى استهزائه بأجداد ابن العميد واستخفافه بمكانتهم الاجتماعية عبر تذكيرهم بعملهم في مهنة النخالة مما يؤكد بساطتهم وتواضعهم.

وفي الاستفهام الثالث فقد تجلّى حديث الجراحِي السَلْبِي مع ذاته، فأخذ يتساءل عن أسباب ضياعه وكساده بعد أن فارق ابن العميد خائبًا، وفي الآن ذاته، شرع في الإجابة عن ذلك السؤال فبين تبدل حاله إلى الأفضل نتيجة مصاحبة للأشرف منه مكانة وقدرًا، وهذا ما عبّر عنه قوله:

"ها أنا قد انقلبْتُ عنك خائبًا، أفضعت وبرئت وكسدت؟ لا والله، بل قيّض الله لي مُلْكًا من ملوك الدنيا حتّى اشتهل عليّ، ونظر بعين الكفاية إليّ، وأهلّني لمحلٍّ زائد عن محلك، وربّني في حالٍ هي أشرف من رُتبتك، والله أكرم من أن يُضيع مثلي أو يُخونني إلى مثلك.

فبئُ الآن بخساستك، والصق بالدّعاء ندمًا على فعلك، وثق بأن لساني وقلمي لا يزالان يبريان عرضك، ويخطبان بدمك، ويلهجان بهتك سترك، ويبعثان الناس على معرفة خزيك وسقوطك؛ ... وسأشقّ النظم والنثر في أكناف الأرض بما ينكشف به للصغير والكبير نقصك، وتزول الشبهة عن القلوب في أمرك إن شاء الله"¹.

¹ التّوحيدِي، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 325-326.

وبناء على ما سبق، يتضح لنا استهانة الجراحيّ بقدر ابن العميد ومكانته من خلال توظيفه للأفعال الكلاميّة والتي جاءت كالتّالي:

1. الأفعال الطّليّة التّوجيهيّة، فاستخدم الجراحيّ الأفعال التّالية: (بؤ، والصق، وثق) رغبة منه في توجيه ابن العميد للاعتراف بخساسته، والندم على أفعاله، والثّوق بما سيحلّ عليه من نقد لاذع لعرضه.

2. الأفعال الإخبارية التّوضيحية (لا يزالان يبريان، ويخطبان، ويلهجان، ويبعثان) والتي اتخذها الجراحيّ وسيلة تمكّنه من وصف حاله، وتوضح أهدافه القصدية المتمثلة في هتك عرض ابن العميد، والسعي إلى ذمه ونشر مخازيه بين الناس، وهو ذات الهدف الذي يسعى التّوحيديّ إلى تحقيقه.

3. الفعل الوعدي الإلزامي (سأشق) فقد أخذ الجراحيّ على نفسه عهدًا ملزمًا إياها بالعمل على إذاعة نقائص ابن العميد بكافة الطّرائق والوسائل نظمًا ونثرًا، مستهدفًا في ذلك القاصي والداني، والصغير قبل الكبير.

- استراتيجية (لا تغفر، وعامل بالمثل)

يحاول التّوحيديّ أن ينفّس عما في نفسه من ألم وحرقة نتيجة عدم مراعاة الصّاحب بن عباد لحاله، وما يقاسيه من شدائد العدم وذهاب المال وفناء الزاد، الأمر الذي دفعه إلى توظيف استراتيجية (لا تغفر، وعامل بالمثل) والتي تقوم على تنبيه كل من تعرّض إلى أية إساءة بعدم العفو والصفح، وتحريضه على الاقتصاص منه ومعاملته بالمثل، ولعلّ هذا ما دفع التّوحيديّ إلى الشروع بهجاء الصّاحب وقذفه بأسوء الخصال قائلاً:

"ولكنني ابتليْتُ به، وكذلك هو ابتليَ بي، ورماني عن قوسه مُغرَقاً فأفرغْتُ ما كان عندي على رأسه مغيطاً؛ وحرَمَني فازدريته، خصّني بالخيبة التي نالت مني، فخصصته بالغيبة التي أحرقتة، والبادي أظلم، والمنتصف أعذر"¹.

وفي موضع آخر نجده يقول: "ولئن كان منعني ماله الذي لم يبق له، فما حظر علي عرضه الذي بقي بعده، ولئن كنت انصرفت عنه بخفي حنين لقد لصق به من لساني وقلمي كلّ عار وشنار وشين، ولئن لم يرني أهلاً لنائله وبره، إني لأراه أهلاً لقول الحق فيه، ونث ما كان يشتمل عليه من مخازيه، ولئن كان ظن أن ما يصير إلى من ماله ضائع، إني لأتيقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قلبي شائع..."².

فقد شبّه التّوحيديّ نفسه بصاحب المثل: "أخلف من خفي حنين"³، نتيجة لوجود رغبة في نفسه تدفعه إلى الكف عن الطّلب، وتسعى في صيانة وجهه عن الذل الذي توجبه المسألة والتي تدعوه إلى مدح الصّاحب وتلمّقه إلّا أنّ انعدام العطاء ومذلة السّؤال قد شكلا مبرراً سوغ له كلّ انتهاك يقوم به في حقه، حتّى بلغ التّوحيديّ في وصف نفسه بأنّه بلاء عليه كما كان هو بلاء ابتلي به.

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 86-87.

² المصدر نفسه، ص 87-88.

³ البكري عبد الله بن عبد العزيز، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط1، 1971م، ج1، ص 354.

كما اتخذ التّوحيديّ أسلوب المقارنة والمفاضلة بين الوزيرين وسيلة تثبت انتهاكهما للقيم الأخلاقية، وترصد أبرز السلوكيات غير الأخلاقية اتجاه الآخرين، ويتجلّى لنا توظيف التّوحيديّ لهذا الأسلوب في مواضع متفرقة من الكتاب وبالأخص في الجزء الأخير منه، ومن تلك النّماذج: سؤال الهروي الجرجانيّ عن الصّاحب بن عباد وابن العميد¹.

ومن جهته، فقد بيّن الجرجانيّ أن الوزيرين يتفقان في أمرين، فأما الأول فهو كائن في غياب شهرتهما في الكرم، وأما الثاني ففي عدم تحقيق أيّة فائدة من نشر لؤمهما وخساسة طباعهما. هذا وقد أوضح الجرجانيّ مخازي الصّاحب والتي تمثّلت في كونه مهذاراً، ومحبّاً للغيبة، ومتصفاً بالكبر والحسد والجور والجهل، ومعروفاً بسوء أدبه وانتقامه من خصومه بتجريدهم أمام الناس، وساعياً في تلبيس الأمور على النّاس.

في مقابل ذلك يقدّم الجرجانيّ فضائل ابن العميد على مساويه مشيراً إلى أنّه حسن الكتابة، غزير الإنشاء، جيّد الحفظ، شعره صالح ومشهور في الغزل والمعاتبة، إلّا أنّ كتابته تخلو من معرفة بالدّواوين، والحساب وتحصيل الأموال، رغم محاولاته ومسايعه إلى تحصيل هذه المعارف. كما فاضل الجرجانيّ بين ابن العميد وابنه أبي الفتح، مبدياً تفوق ابنه عليه شعراً وخطاً وحظاً. وأما مناقصه فقد أكد قلة عطاياه، وشدة منعه، وتكابره على الخلق، وجهله بعلم الهندسة والإلهيات، مبيّناً خبثه بصورة تمتنع الإحاطة بها.

وعندما نتأمل وصف الجرجانيّ لأحوال الوزيرين، يتضح لنا ميل الجرجانيّ إلى تفضيل ابن العميد على الصّاحب بن عباد والذي تجلّى في أمور عديدة، منها: ذكر فضائله وتقديمه على مثالبه، وتبرير معايبه في قلة معرفته بالحساب وتحصيل الأموال والدواوين، والثناء على تفوق ابنه وتميزه رغم ما فيه من تضمين خفي يوحي بعلو منزلة الابن على منزلة أبيه. كما حاول الجرجانيّ أن يظهر عدله وإنصافه، فنجدته يتدارك إغفاله عن ذكر حسنات الصّاحب بن عباد، ببيان يوضح وقوف الصّاحب مع الغرباء وسؤاله عنهم، إلّا أنّه يعود في نقده وهجائه مؤكداً أنّ عجبه بنفسه أرداه، وأفسد كلّ قليل وصغير. وبهذا يعود الجراحي إلى دائرة الأمان ومنطقة الرّاحة التي تضمن له السّلامة من الأقوال التي أفصح عنها والآراء التي أبداه في حق هذين الوزيرين، فلجأ إلى إظهار الإنصاف، والتأكيد العام على أنّ "لكلّ حسن مُقَيِّح، ولكلّ عزيز مذلل، ولكلّ جديد مبلّ"².

¹ التّوحيديّ، علي بن محمد، أخلاق الوزيرين، ص 342-349.

² المصدر نفسه، ص 349.

- خاتمة الفصل:

تبين لنا في ختام الفصل أنّ موضوع غياب التّلطف Impoliteness موضوع خصب قد شغل العديد من الباحثين في اللّسانيات التّلطفية الحديثة بوصفه امتداداً لمفهوم الوجه الّذي قامت عليه نظرية التّلطف للباحثين B & L، ولعل الرّيادة في هذا الموضوع يمكن نسبتها إلى الباحث كولبيير Culpeper الّذي تمكّن من تصميم خمس استراتيجيات مصممة لمهاجمة الوجوه.

وقد دفعنا ذلك إلى استثمار ما جاء به كولبيير لبناء المبحث الأول والّذي تضمّن الإطار عام لنظرية غياب التّلطف القائمة على مجموعة من الاستراتيجيات التّواصلية التي تسعى إلى مهاجمة الوجوه نتيجة السّلوكة العدوانية الصّادر من قبل أحد أطراف الخطاب، وقد آل بنا الأمر إلى التّمييز بين مفهومي الفضاظة وغياب التّلطف، وخلصنا إلى أن الفضاظة دائماً ما تكون متعمّدة، في حين أنّ غياب التّلطف يكون في الغالب ردود أفعال لسلوكيات فظة.

ولئن كانت جهود الباحثين محل تقدير إلّا أنّنا أثّرنا استتطاق المدونة البحثية لاستخراج أبرز الإستراتيجيات التي غاب فيها مفهوم التّلطف في كتاب (أخلاق الوزيرين) والتي تجلّت في الآتي: استراتيجية (انشر ولا تستر)، واستراتيجية (سخر اللّغة لصالحك)، واستراتيجية (اسأل، ارصد، انشر)، فاستراتيجية (خص في الأعراض)، وأخيراً استراتيجية (لا تغفر وعامل بالمثل)، ولا شك في أنّ صياغتنا للاستراتيجيات من المدونة المعتمدة، وسعيها إلى إثارة أبرز القضايا التي تتطوي عليها قد مكّنا من الكشف عن دوافع التّوحيديّ الدّائية والّتي عبر عنها كولبيير بالمعايير الشّخصية الّتي تتحكّم في أفعال التّوحيديّ وأقواله فقد كانت طباعه سبباً مباشراً في حرمانه من العطاء ونفور الناس منه.

الخاتمة العامة

كان من أهم أهداف هذه الدراسة امتحان نظرية التلطف بالقول في التراث العربي الأصيل وبالتحديد في محاورات التوحيد، وقد أظهر البحث أن لهذه النظرية جذورًا راسخة تناولها العلماء العرب الأوائل تحت مباحث الكناية، وتخيّر الألفاظ، ومراعاة المقام، وحال أطراف الخطاب، ولما قام الحقل الدلالي اللغوي للتلطف على معاني البر واللين والتخفي والترفق دفعنا ذلك إلى توظيف هذا المصطلح إحياءً لما في تراثنا العربي من مصطلحات ثرية، واجتنابًا لما في مصطلحي (الأدب والأدبية) من تجانس صوتي يضيف نوعًا من التداخل الدلالي بينهما رغم كونهما حقلين متميزين موضوعًا ونهجًا وغاية.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن التصور الذي بني عليه موضوع التلطف قد اتسم بالضبابية رغم محاولات ليتش ولاكوف في مراجعة المنجز المعرفي في مجال التلطف، والسعي إلى تطويره، ولهذا فقد نسبت الهيمنة على جميع المحاولات التنظيرية في مجال التلطف اللغوي إلى النموذج المقدم من براون وليفنسون الأمر الذي أفضى بنا إلى تناول منطلقات النظرية القائمة على (الوجه) باعتباره مفهومًا مركزيًا يخضع للاستثمار العاطفي، ويتعرض إلى أمور ثلاثة: الفقدان Lose، أو الصيانة Maintain، أو التحسين Enhance، فبحثنا في الأسس العامة لهذا النموذج انطلاقًا من مفهوم الوجه القائم بوصفه الصورة الذاتية التي يطالب بصيانتها كل طرف من أطراف الخطاب، والوجه وجهان متكاملان هما الوجه الإيجابي، والوجه السلبي. يتمثل الوجه الإيجابي في الصورة الإيجابية المثمنة للذات التي يُنشئها الآخرون عنه، وأما الوجه السلبي فقام على رغبة الفرد في الحفاظ على المحميات الشخصية الخاصة به، والسعي إلى عدم الكشف عنها، ونتيجة لأهمية إرضاء هذين الوجهين تجلّى مفهوم صيانة الوجه Face as wants، في حين أن مفهوم بذل الوجه face given قد تجلّى نتيجة الضعف المتبادل في الوجوه.

إن طبيعة الظروف الاجتماعية والنفسية التي تتحكم في منجز الخطاب دفعتنا إلى الالتفات إلى أنواع الأعمال اللغوية المنجزة التي تتعرض للتهديد والانتهاك، وتوصلنا إلى وجود تداخل كبير في الأعمال المهددة لوجه منجزها ومتلقيها اعتمادًا على المعايير الشخصية للفرد، فما يشكل تهديدًا على وجه أحدهم قد لا يعده الآخر شيئًا يذكر، وهو الأمر الذي دفعنا إلى الإشارة إلى مفهوم العمل التصحيحي أو الإجراء التعويضي الذي ذكره الباحثان بوصفه وسيلة تصدّ تمكّن منجزها من إجراء بعض التعديلات والإضافات التي تبعد الشك عن وجود تهديد ضمني مقصود والتي تتخذ أحد الشكلين الآتين: إمّا التلطف الإيجابي وإمّا التلطف السلبي. ويقوم مفهوم التلطف الإيجابي على

توجيه عنايته بالمتلقي والإقرار برغبته، في حين أن مفهوم التلطف السلبي قد اعتمد بشكل أساسي على التجنب والالتقاء.

ولعل هذا الأمر قد راح بنا إلى استعراض الاستراتيجيات التي بني عليها مفهوم التلطف والتي حاولنا وصلها بأمثال من تراثنا العربي، وقد تدرجنا في عرضها ابتداء من الاستراتيجية الأقل تهديداً إلى الاستراتيجية الأكثر تهديداً، فشرعنا في توضيح استراتيجية الصمت التي تتمثل في تجنب المتكلم الإساءة وإيثار الصمت على الكلام، ومن ثم استراتيجية التلميح التي يعدل فيها عن الإفصاح إلى التعريض، وتعبها استراتيجية التلطف السلبي المتمثلة في التصريح بالعمل المهدد مع إجراء تعويضي لوجه المتلقي السلبي، وتليها استراتيجية التلطف الإيجابي القائمة على التصريح بالعمل المهدد مع إجراء تعويضي لوجه المتلقي الإيجابي، وصولاً إلى الاستراتيجية التصريحية التي يصرح المتكلم فيها بالقول المهدد من غير إجراء تصحيحي.

وقد أوضحنا ضرورة وصل إنجاز الأعمال المهددة للوجه، واختيار الاستراتيجيات التلطفية بعوامل تقييم مستوى خطورة العمل المهدد على الوجه وهي: المسافة الاجتماعية الفاصلة بين المتخاطبين Social Distance، والقوة النسبية التي تظهر توسع نفوذهما Relative power، ومنزلة العمل المهدد بالنسبة لثقافة معينة Absolute Rank، مشيرين في ذلك إلى أربع استراتيجيات ذات المستوى الأعلى في التقييم، أطلق عليها براون ولفنسن مسمى الاستراتيجيات الفائقة Super-Strategies والتي جاءت كالتالي: الاستراتيجيات التصريحية، واستراتيجيات التلطف الإيجابي، واستراتيجيات التلطف السلبي، وأخيراً استراتيجيات التلميح.

ونتيجة لقيام دراستنا على مفهوم التلطف شرعنا في توضيح حدود كل استراتيجية من استراتيجيات التلطف الإيجابي والسلبي وقوامها، كما سعينا إلى إثارة أهم المسائل الإشكالية فيهما، وعلى الرغم من وجود علائق وصلات بين هاتين الاستراتيجيتين نظراً لقيامهما على مفهوم التعويض والتخفيف من حدة الأعمال المهددة للوجه إلا أننا توصلنا إلى إمكانية تصنيف أغلب الأنواع التي تتضمنها استراتيجية التلطف الإيجابي تحت مصطلح (التقرب) ونعني به سعي المتكلم في وصل سلوكه الفعلي المتمثل في إظهار الاهتمام بالآخر والعناية به بما يُنجزه من أفعال لغوية تؤكد ذلك؛ لغاية الحصول على تأييده وتحقيقاً لمقاصد المتكلم وغاياته، في حين أن غالبية استراتيجيات التلطف السلبي يمكن تصنيفها تحت مصطلح (التجنب) الذي أشار إليه دوركهيم ليكون فحوى الاستراتيجية المركزي قائماً على تجافي كل ما من شأنه التحكم في سلوك المتكلم اللغوي أو تقييد حرية المتلقي في التفاعل القولي. هذا وقد التفتنا إلى الطريقة التي ينجز بها العمل المهدد بصورة خفية فأخذنا في توضيح ما تقوم عليه الاستراتيجية التلميحية من طرائق للتخفيف من حدة التهديد، وخلصنا إلى

قيامها على طريقتين، وهما التعميم، والمراوغة، وكان من المثير وصل استراتيجيات المراوغة بما تستدعيه قواعد المحادثة لدى غرايس لتوضيح القاعدة التي تم انتهاكها، والتمكّن من التفسير الدقيق للمعاني الضمنية في المقول.

ونتيجة لأهمية النموذج الذي قدمه الباحثان سعينا إلى الارتقاء به بإعادة تعريف النظرية ليكون التلطف الإيجابي متمثلاً في الإقبال على إنجاز الأعمال الممنّنة للوجه، في حين اعتُبر التلطف السلبي ذا بعد غيابي، وقد أثّرنا جملة من القضايا الإشكالية المتعلقة بتصنيف بعض الأعمال الكلامية على أنها أعمال مهدّدة للوجه كأعمال الشكر، والتّهنة، والإطراء، مشيرين إلى أنّ عمق التداخل المتأّتي من استعمال المصطلحين (سلبي وإيجابي) أدى إلى وجود عسر في الفصل بين مختلف الاستراتيجيات، كما أوضحنا أن اختلاف معايير التلطف اللغوي في المجتمع الواحد يؤكد لنا عدم الدقة في ادعاء عالمية نظرية التلطف أو كونيتها.

وعلى الرغم ممّا اشتملت عليه النظرية من مزالق منهجية إلّا أنّ طرافتها وجِدّتها وقلة الدراسات العربية حولها زيّنا لنا اختيارها وتطبيقها على نماذج من محاورات أبي حيان التّوحيديّ، وعليه، فقد قسّمنا الدراسة إلى فصل نظري تمهيدي كان بمنزلة التأسيس النظريّ لها، واستعرضنا فيه أهم أدبيّات التلطف التّأسيسية في المفهوم والنشأة، كما تبيّنا أهم منطلقات هذه النظرية، والأسس العامة التي بنيت عليها. وقد أفضى بنا تحليل المحاورات الثلاث إلى تخصيص ثلاثة فصول تطبيقية:

أول الفصول التطبيقية - وهو الثاني في الترتيب - موسوم بـ(السؤال المهدّد للوجه وطرائق انقاء التهديد في الليلة السادسة من الإمتاع والمؤانسة (المفاضلة بين العرب والعجم أنموذجاً)) لاحظنا أنّ السؤال الذي استهلّت به الليلة قد شكل تهديداً على نوع العلاقة التّخاطبية بين الوزير والتّوحيديّ، نتيجة لعناصر ثلاثة: أولها طبيعة العلاقة الضّعيفة والمفكّكة بين الطّرفين المتخاطبين، وثانيها تفوق الوزير على التّوحيديّ نسبة إلى عامل السّلطة، وثالثها خروج معنى الاستفهام عن مقصده المراد به الحصول على إجابة إلى مقاصد أخرى ضمنية كان لها تأثير في سيرورة الحوار بين الأديب والوزير، من ذلك عدم اكتراث الوزير بوجه التّوحيديّ السلبيّ ودفعه إلى مضيق مسدود لتحصيل إجابة معينة تكون له حجة عليه، لذلك تواصلت أسئلة الوزير وكان التّوحيديّ يسلك مسلك الاحتراس باعتماد طرائق ظهرت في التحوط عن الإجابة بالتقديم والتأخير، واتخاذ التعميم وسيلة للتستر، وتوظيف عدد من استراتيجيات التلطف الإيجابي التي تسهم في توصيل المراد بأقل تهديد ممكن، هذا وقد اتخذ التّوحيديّ الإقذاع في الحديث عن الجيهاني وسيلة تمكّنه من تنفيذ كافة الحجج المنسوبة إلى العرب والتي كشفت لنا عن رغبته الدّفينة في الانتصار إلى العرب مما آل بالمناظرة لأن تنزع منزعا تعليميا يكون التّوحيديّ هو المعلم فيها.

ولقد تبيننا هذا النزوع كذلك في الفصل الثالث الذي وسمناه بـ(الاعتذار عامل تهديد ووسيلة تحريض للانتهاك) (المناظرة بين متى والسيرافي أنموذجاً)) فقد كشف لنا المبحث الأول عما يشكله إنجاز فعل الاعتذار من تهديد مزدوج على وجه السيرافي الإيجابي والسلبي، في حين أن فعل الاعتذار قد كان أحادي الأثر على وجه الوزير السلبي، إلا أن قبول فعل الاعتذار قد شكل تهديداً من نوع آخر على وجه الوزير نتيجة الصراع الذي وقع فيه بين ما يبدي من حيادية وبين ما يخفيه من ميل إلى السيرافي وتقويقه على الحاضرين. وقد خالصنا بعد دراسة جملة الطرائق التي وظفها السيرافي لانتهاك وجه متى والمتمثلة في المزوجة بين الاستراتيجية التصريحية وبين الاستراتيجية التلميحية إلى نزوع المناظرة منزعاً تعليمياً تغيرت على إثره العلاقة التخاطبية بين المتحاورين إلى علاقة عالم بمتعالم، ولعل هذا ما يفسر لنا قلة توظيف الاستراتيجيات التلطيفية في جنس المناظرات نتيجة لقيامه على الجدل والمماراة من جهة، وتداخله مع أجناس أدبية أخرى كالمذاكرة من جهة أخرى.

ولما اهتمت أحدث الدراسات في مجال التلطف بدراسة غياب التلطف Impoliteness أثرنا اختيار النظرية التي دعا إليها كولبيرر لانبتاقها من نظرية التلطف واهتمامها بعنصر الوجه، وبذلك تنزل الفصل الرابع والأخير من هذه الدراسة (غياب التلطف واستراتيجيات تشويه الوجه) (عرض نماذج من كتاب أخلاق الوزيرين)). سعينا في هذا الفصل إلى الكشف عن قوام نظرية غياب التلطف المتمثل في مجموع الاستراتيجيات التواصلية المصممة لمهاجمة الوجه، والمتسببة في إحداث الصراعات الاجتماعية، وانعدام علاقات الانسجام بين أطراف الخطاب، والقائم على مبدئين هما القصدية الاستهدافية والإدراك الهجومية. كما اتضح لنا الفرق بين الفظاظ كسلوك عدواني متعمد، وبين غياب التلطف الذي يكون عادة كردة فعل نتيجة لسلوكيات فظة، ولعل تأملنا في الاستراتيجيات التي يغيب فيها التلطف أفضى بنا إلى وجود تقارب وتداخل بين الاستراتيجية التصريحية التي يغيب فيها التلطف، وبين الاستراتيجية التصريحية التي تتضمنها نظرية التلطف حيث إن كلا الاستراتيجيتين تهدفان إلى التصريح بالعمل المهدد للوجه إلا أن السياق هو الفيصل بينهما.

وخلصنا إلى أن تضخم ذات التوحيدي، وارتفاع مستوى المعايير الشخصية في نفسه دفعاه إلى الاجترار على أوامر الله بتفسير الآيات والأحاديث وفقاً لهواه، والاجترار على الناس فجاهر بقبح الصفات والخصال، وأخيراً الاجترار على نفسه فوقع في النفاق والحسد والبغضاء التي أشعلت في قلبه الرغبة في الانتقام. وهذا ما كشفه لنا المبحث الثاني من الفصل الذي عقدناه لرصد أبرز الاستراتيجيات التي سعى التوحيدي إلى توظيفها كشفاً للمستور وهتكاً للأسرار، ولعل محاولتنا في تطبيق استراتيجيات كولبيرر على المدونة البحثية أكدت لنا الإشكالية التصنيفية ذاتها التي واجهتنا

عند تناول استراتيجيات التلطف، فإن فعل السخرية الذي أورده كولبير كمثال تطبيقي للاستراتيجيات التي يغيب فيها التلطف السلبي لما يلحقه من ضرر يهدد وجه المتلقي السلبي، يمكننا اعتباره فعلاً تهكمياً أو تلطفاً زائفاً يبدية المرء في صورة استهزائية لغاية تحقق مقاصده الدفينة.

حاولنا استنطاق المدونة البحثية، وصياغة تلك الاستراتيجيات بالاعتماد على الطرائق التي أنجز فيها التوحيدي تلك التهديدات والتي تجلت في استراتيجية (انشر ولا تستر) القائمة على مبدأ يبيح للتوحيدي إفشاء جميع الأسرار، وإشاعة كافة الأخبار، واستراتيجية (سخر اللغة لصالحك) التي تؤكد وعي التوحيدي العميق باللغة والتي اتخذها وسيلة للكشف عن مساوئ الوزيرين اللغوية المتمثلة في استخدام الكلام الوحشي، ومطالبة الناس في باب المخاطبات بما لا طاقة لهم به، ولم تجر به العادة، وكذلك استراتيجية (اسأل، ارصد، انشر) والذي نهض السؤال فيها كوسيلة استخبارية مكنت التوحيدي من رصد أحوال الوزيرين، إضافة إلى استراتيجية (خض في الأعراض) والتي أخذها التوحيدي مسوغة لتدنيس عرض الوزيرين قذفاً وسخرية، وأما الاستراتيجية الأخيرة وهي (لا تغفر، وعامل بالمثل) فقد اتخذها التوحيدي وسيلة تحريضية وتوجيهية لكل من تعرض للإساءة بعدم العفو والصفح مبيته ضرورة الاقتصاد منه ومعاملته بالمثل. وقد كشفت قراءتنا لأخلاق الوزيرين عن حضور الاستراتيجية التصريحية في أغلب ما ورد في حق هذين الوزيرين.

ويحق لنا أن نقول إن لعامل السلطة والمكانة الاجتماعية والمصالح الشخصية دوراً كبيراً في التأثير في طبيعة العلاقات الاجتماعية في محاورات التوحيدي من جهة، إضافة إلى أن قلة توظيف استراتيجيات التلطف وانعدامها إنما هو أمر موصول بطبيعة الجنس الأدبي للمحاورة والذي تجلّى لنا في فصول رسالتنا هذه، فقد برزت استراتيجيات التلطف في الفصل الثاني بناء على تحكّم عامل السلطة في علاقة الوزير بالأديب التوحيدي، ويكاد يعدم توظيف استراتيجيات التلطف في الفصل الثالث الذي تمحورت فيه العلاقة بين عالم وعالم آخر متكافئين في الرتبة الاجتماعية، وأما في الفصل الرابع والأخير فإن انتقاء المصالح الشخصية بين التوحيدي والوزيرين كان دافعاً للخروج من دائرة التلطف القولي، والشروع في التعدي والانتهاك.

وبناء على ما سبق تبين لنا أهمية دراسة التلطف باعتبارها نظرية خصبة مغرية، ومجال بحث استكشافي وحيوي ما فتئت الدراسات العلمية الغربية المعاصرة تبحث فيه وتشغل به، وإننا لندعو الباحثين إلى الاهتمام بالأدب وسائر أنواع الخطاب من منظور التلطف واستراتيجياته. فهذه المقاربة كفيلة بتحقيق ثلاث قيم مجتمعة: قيمة علمية تتمثل في حجم المنجزات العلمية والمعرفية المعنية بدراسة التلطف والتي ما فتئت تزداد يوماً بعد يوم، وقيمة عملية نفعية تتمثل في حاجتنا إلى الاستفادة من القيمة المعرفية للتلطف في حياتنا الاجتماعية، وقيمة تعاملية ذلك أن تطبيق قواعد

التّلقّف واستراتيجيّاته في مختلف تعاملاتنا الاجتماعيّة كفيل بتمتين العلاقات، وتأسيس الصّداقات،
والتّقليل من حجم التّهديدات، والتّخفيف من حدّة الانتهاكات.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- المصادر العربيّة:

1. التّوحيديّ علي بن محمد، أخلاق الوزيرين (مثالب الوزيرين الصّاحب ابن عباد وابن العميد)، حققه وعلق عليه: محمد بن تاويت الطنجي، دار صادر، بيروت، 1992م.
2. التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه أحمد أمين، وأحمد الزين، دار الذخائر، المكتبة العصرية، بيروت، ج1، 2004م.
3. التّوحيديّ، علي بن محمد، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2003م.

- المراجع العربيّة:

1. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط1، 1997م.
2. الأزدي، محمد بن الحسن، جمهرة اللّغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، ط1، 1987م.
3. الأزهرى، محمد بن أحمد، تهذيب اللّغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط1، 2001م.
4. الأصمعي، عبد الملك بن قريب، الأصمعيّات، تحقيق: أحمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون، دار المعارف - مصر، ط7، 1993م.
5. الألباني، محمد ناصر الدين، غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، المكتب الإسلامي - بيروت، ط3، 1985م.
6. الأنباري، عبد الرحمن بن محمد، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، ط3، 1985م.
7. البحري، سامية محمد، صور التّلطّف في نصوص أخبار العرب من كتاب العقد الفريد دراسة في ضوء علم اللّغة الاجتماعي، كلية الدراسات الإسلامية بدبي، في عام 2009م.

8. البستاني، بشرى، ومجموعة من الباحثين، التداولية في البحث اللغوي والنقدي، مؤسسة السياب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، لندن، ط1، 2012م.
9. البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997م.
10. البغدادي، القاسم بن سلام، الأمثال، تحقيق: د. عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، ط1، 1980م.
11. البكري، عبد الله بن عبد العزيز، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط1، 1971م.
12. البكري، عبد الله بن عبد العزيز، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1936م.
13. البهلول، عبد الله، الحجاج الجدلي خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث العربي واليوناني، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2016م.
14. البهلول، عبد الله، في بلاغة الخطاب الأدبي بحث في سياسة القول في نصوص من الأدب العربي القديم، قرطاج للنشر والتوزيع، ط1، 2007م.
15. بوراس علي، واللطيفي حمادي، ومجموعة من الباحثين، الخطاب والأخلاق مقاربات بلاغية وتداولية، تنسيق وإشراف: عمو عسو، حسن بدوح، عبد الفتاح شهيد، لكبير الشميطي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2019م.
16. الثبيني، محمد بن سعيد، ظاهرة التلطف في الأساليب العربية (دراسة دلالية لتقبل الألفاظ لدى الجماعة اللغوية)، مجلة جامعة أم القرى، العدد 20، 2000م.
17. الجاحظ، عمرو بن بحر، البرصان والعرجان والعميان والحولان، دار الجيل، بيروت، ط1، 1989م.
18. الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2003م.
19. الجوزي، عبد الرحمن علي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط1، 2001م.
20. الجوهري، إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، ط4، 1987م.
21. حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط6، 2009.

22. الحسن، أحمد بن محمد، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: تغريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2003 م.
23. الحسني، محمد إسماعيل، سبل السلام، دار الحديث، د.ط، د.ت.
24. الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م.
25. الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط2، 1995م.
26. ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج1، د.ط، 1900م، ج5، ط.1، 1994م.
27. الخوارزمي، محمد بن أحمد، مفاتيح العلوم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، ط2، د.ت.
28. درنيقة، محمد أحمد، معجم أعلام شعراء المدح النبوي، تقديم: ياسين الأيوبي، دار ومكتبة الهلال، ط1، د.ت.
29. الدواداري، عبد الله بن أيك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، ط1، 1992م.
30. الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م.
31. الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2006م.
32. الرازي، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، 1979م.
33. الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية-الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط5، 1999م.
34. ابن رشد، محمد بن أحمد، تلخيص الخطابة، وكالة المطبوعات الكويت، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم بيروت-لبنان، د.ت.
35. رضا، أحمد، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960م.
36. الزبيدي، محمد بن محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ومصطفى حجازي، دار الهداية، 1965م.
37. الزركلي، محمود بن محمد، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.

38. الزناد، الأزهر، نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصًا، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، ط1، 1993م.
39. السراج، محمد علي، اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب النحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة والمثل، مراجعة: خير الدين شمسي باشا، دار الفكر - دمشق، ط1، 1983م.
40. السكاكي، يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط2، 1987م.
41. ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط1، 1996م.
42. ابن سينا، الشفاء، تصدير ومراجعة: إبراهيم مذكور، تحقيق: أحمد فؤاد الإهواني، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي الكبرى، الخزانة العالمية للمخطوطات الإسلامية، قم إيران، ط2، 2012م، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1957م.
43. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تحقيق: محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب - القاهرة مصر، ط1، 2004م.
44. الشيباني، محمد بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت، 1982م.
45. الصغاني، الحسن بن محمد، العباب الزاخر واللباب الفاخر، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق - بغداد، ط1، 1987م.
46. الصفدي، خليل بن أبيك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، 2000م.
47. الطائي، حبيب بن أوس، ديوان الحماسة، ضم شرح العلامة التبريزي بشكل مختصر، طبعه: محمد عبد القادر الرفاعي، مطبعة التوفيق، مصر، 1904م.
48. الطائي، حبيب بن أوس، الوحشيات وهو الحماسة الصغرى، علق عليه وحققه: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، زاد في حواشيه: محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ط3، د.ت.
49. عبد الرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء 1998م.
50. عبد الله، مصطفى، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الحاج خليفة، مكتبة المثنى - بغداد، 1941م.

51. العبودي، محمد بن ناصر، معجم أسر بريدة، دار الثلوثية للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، ط1، 2010م.
52. عبيد، حاتم، في تحليل الخطاب، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ط1، 2013م.
53. العراقي، وابن السبكي، والزبيدي، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، استخراج: أبي عبد الله محمود بن محمد الحداد، دار العاصمة للنشر - الرياض، ط1، 1987م.
54. العسقلاني، أحمد بن علي، لسان الميزان، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط1، 2002م.
55. العسكري، الحسن بن عبد الله، جمهرة الأمثال، دار الفكر، بيروت، د.ت.
56. العسكري، الحسن بن عبد الله، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية - بيروت، 1998م.
57. العمري محمد، دائرة الحوار ومزالق العنف، أفريقيا الشرق، المغرب، بيروت، 2002.
58. العسيري، أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر 1417 هـ/ 96 - 97 م، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 1996م.
59. الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، بيروت - لبنان، دار ابن حزم، ط1، 2005م.
60. الغويل، المهدي، السياق وأثره في المعنى، أكاديمية الفكر الجماهيري، دار الكتب الوطنية، بنغازي - ليبيا، ط1، 2011م.
61. فارس، أحمد، الصّاحبي في فقه اللّغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق: محمد علي بيضون، ط1، 1997م.
62. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ط8، 2005م.
63. القاضي، محمد، ومجموعة من المؤلفين، معجم السرديات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2010م.
64. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، دار الكتب المصرية، 1925م.

65. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، غريب الحديث، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني - بغداد، ط1، 1397م.
66. القشيري، مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.
67. القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط1، 1982م.
68. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى - دار إحياء التراث، بيروت، د.ط، د.ت.
69. الماوردي، علي محمد، أدب الدنيا والدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط5، 2008م.
70. الماوردي، علي بن محمد، تفسير الماوردي النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د.ط، د.ت.
71. مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط2، د.ت.
72. المبرد، محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، ط3، 1997م.
73. المبخوت، شكري، دائرة الأعمال اللغوية - مراجعات ومقترحات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، ط1، 2010م.
74. المحميد، منال صالح، المحاورة في أدب أبي حيان التّوحيد دراسة في خصائص التّفاعل القولّي (الأدب المجلسي في مدونات التّوحيدي)، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2019م.
75. مسكويه، أحمد بن محمد، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: أبو القاسم إمامي، سروش، طهران، ط2، 2000م.
76. مصطفى، إبراهيم، الزيات أحمد، عبد القادر حامد، النجار محمد، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، دار الدعوة، د.ت.
77. مطلوب، أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، 1986م.
78. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1993م.

79. الميداني، أحمد محمد، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، لبنان، د.ت.
80. ابن النديم، محمد بن إسحاق، الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت - لبنان، ط2، 1997م.
81. أبي نواس، الحسن بن هانئ، ديوان أبي نواس، وضعه ورتبه وشرح ألفاظه اللغوية: محمود كامل فريد، مطبعة حجازي، القاهرة، 1937م.
82. الهاشمي، أحمد بن إبراهيم، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت.
83. هبة الله، علي الحسن، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1995م.
84. يموت، بشير، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، المكتبة الأهلية، بيروت، ط1، 1934م.

– المراجع الإنجليزِيَّة:

1. Brown Penelope and C. Levinson Stephen, Politeness Some universals in language usage, University of Cambridge, 1978.
2. Culpeper, Jonathan, Impoliteness and entertainment in the television quiz show: The Weakest Link. Journal of Politeness Research: Language, Behaviour, Culture, 2005.
3. Culpeper, Jonathan, Impoliteness: Questions and answers, relational work and power. In: Bousfield, D., Locher, M.A. (Eds.), Impoliteness in Language: Studies on its Interplay with Power in Theory and Practice. Mouton de Gruyter, Berlin and New York, 2008.
4. Culpeper, Jonathan, Impoliteness: Questions and answers. In: Denis Jamet and Manuel Jobert (eds.) Aspects of Impoliteness. Newcastle: Cambridge Scholars Publishing, 2013.
5. Culpeper, Jonathan, Impoliteness: Using Language to Cause Offence. Cambridge University Press, 2011.

6. Goffman, Erving, *Interaction Ritual: Essays on face-to-face Behavior*, Pantheon, New York, 1967.
7. Gordon, D and Lakoff, G. Conversational postulates. In *Papers from the seventh regional meeting of the Chicago Linguistic Society*, Chicago, 1971.
8. Grice, Paul, *Studies in the Way of Words*, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, London, England, 1989.
9. Holmes Janet, *Sex Differences in Apologies: One Aspect of Communicative Competence*, Victoria University of Wellington, Applied Linguistics, Oxford University Press 1989.
10. Ide, Sachiko, Formal forms and discernment: two neglected aspect of linguistic politeness, *Multilingua*, 1989.
11. Lakoff, Robin. *Language and Woman's Place*. New York: Harper and Row, 1975.
12. Leech, Geoffrey, *Exploration in Semantics and Pragmatics*, Amsterdam: Benjamins, 1980.
13. Leech, Geoffrey, *Principle of Pragmatics*, Longman linguistics library, eleventh impression, 1997.
14. Nassrullah Hiba and Fadhil Nawal: *Pragmatics of Impoliteness and Rudeness*, College of Education for Women, Baghdad University, *American International Journal of Social Science*, Vol. 4, No. 6; December 2015.
15. Ogiermann, E. Politeness and in-directness across cultures: A comparison of English, German, Polish and Russian requests. *Journal of Politeness Research*, 2009.
16. Richaed J.Watts, *Politeness*, Cambridge University Press, fourth impression, 2004.

17. Searle, John.R. A classification of illocutionary acts, *Language in Society*, Vol.5, No.1, 1976.
18. Segarra, C. *How to Become a True Professional*. USA: Xulon Press, 2007.
19. Sifianou, Maria, *Politeness Phenomena in England and Greece*, Oxford: Clarendon Press, 1992.

– المراجع الفرنسيّة:

1. Orecchioni Kerbrat, *La conversation*. Paris : Seuil C. 1996.
2. Orecchioni Kerbrat, *La notion d'interaction en linguistique: origine, apports, bilan*. *Langue française* 117: 51–67. DOI: 10.3406/lfr.1998.6241.
3. Orecchioni Kerbrat, *Pragmática Sociocultural (Journal): (Im)politesse et gestion des faces dans deux types de situations communicatives: petits commerces et débats électoraux* ,Vol 2, Issue 2, De Gruyter, 2013.
4. Searle, John R. *Sens et expression: études de théorie des actes de langage*, Éditions de Minuit, Paris, 1982.

– المرجع بالّغة الهولنديّة:

- Elen, G, *Ideology in politeness: A Critical Analysis*. Proefschrift voorgelegd tot het behalen van de graad van Doctor in de taal- en letter kunde. Antwerp: Universitaire Instelling Antwerpen.

- المراجع المترجمة:

1. أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال محمد يسر، مكتبة الشباب، سوريا، د.ت.
2. أرمينكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ط1، 1986م.
3. دُوزي، رينهارت بيتر آن، تكلمة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط1، 2000م.
4. سبيربر، دان، ولسون ديرى، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدراك، ترجمة: هشام إبراهيم الخليفة، مراجعة: فراس عواد معروف، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت- لبنان، ط1، 2016م.
5. سورل، جون.ر، الأعمال اللغوية: بحث في فلسفة اللغة، ترجمة: أميرة غنيم، مراجعة محمد الشيباني، دار سيناترا- المركز الوطني للترجمة، تونس، 2015م.
6. سيلفان، أورو، جاك ديشان، جمال كولوغلي، فلسفة اللغة، ترجمة: بسام بركة، مراجعة: ميشال زكريا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، ط1، 2012م.
7. شارودو، باتريك، دومينيك منغو، معجم تحليل الخطاب، بالاشتراك مع عدد من المؤلفين، ترجمة: عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، دار سيناترا، المركز القومي للترجمة، تونس، ط1، 2008م.
8. مانغونو، دومينيك، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة: محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008م.

-الدوريات والمجلات العلمية:

1. خصاونة، سهيل محمد، وبنيان محمد علي، فن الاستجواب في مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، ع1، السنة 11، 2019م.
2. الروبي، ألفت كمال، محاورات التوحيد وتعدد الأصوات، مجلة النقد الأدبي فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، م14، ع4، 1996م.
3. عبيد، حاتم، نظرية التأدب في اللسانيات التداولية، مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلد 43، يوليو- سبتمبر 2014م.

4. الفتلي، حميد عبد الحمزة، مبدأ التأدب في عهد الإمام عليّ إلى مالك بن الأشتر، كلية الآداب، جامعة بغداد، السنة الثّانية، العدد الرابع، مجلة المبين 2017م.
5. فصيح، مقررّان، أسلوبية المحادثة الأدبية وقوانين الخطاب في أدب أبي حيان التّوحيديّ 420 هـ، حوليات جامعة قالمّة للغات والآداب، ع 15، يونيو 2016م.
6. يقطين، سعيد، المجلس، الكلام، الخطاب (مدخل إلى ليالي التّوحيديّ)، فصول مجلة النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج2، المجلد 14، العدد 4، 1996م.

Summary

Examples of Euphemism of Altawhidi's Dialogue (Pragmatic Approach)

Submitted by

Esraa Adel Mohammed Janahi

Supervised by

Dr. Abdullah Mohammed Bahloul

The goal of this research is to study examples of Abu Hayyan Altawhidi's debates from a politeness linguistics perspective as one of the contemporary approaches and one of its branches. This approach is concerned with means of expression, and the effective strategies that a speaker uses with his addressee to keep sound relationships and to establish solid friendships. This cognitive domain allured us to dig deep to find out its secrets and investigate the factors affecting it.

We decided to present this research on a preliminary chapter that is a theoretical base, followed by three different chapters according to the analysis of these three domains.

We have allotted the theoretical preliminary chapter to converse with Brown & Levinson Model as it is one of the richest and most dependable models in the field of euphemisms. We had a critical debate with him through which we could identify his perspectives, and clarify the general basis upon which it was established so as to invest it in studying literature and all kinds of discourse.

We set the second chapter to analyze the debates between Arabs and Non-Arabs. This debate was prelaminated with a face-threatening question; Altawhidi adopted many approaches to avoid its threat. We tacked the context of the threatening question according to risk assessment factors. We concluded that raising the question constituted a threat to the kind of discoursal relationship between Alwazir and Altawhidi. We found out Alwazir's means to threaten faces that were clear in his indifference to Altawhidi's negative face, the thing that drove us into researching Altawhidi's methods in avoiding threats.

In the third chapter, we investigated the dialogue between Mata bin Yunus Alqenaei and Abi Saeed Al-Serafi out of the context of genre overlapping, depending on apology as a factor of threat and a means to entice infringements. We reviewed Al-Serafi's desecration of Mata's face, Alwaziri's methods to entice infringements reaching to obsoleting Mata's stance, and Al-Serafi's declaration of infringements. We have concluded that the rarity of euphemism in the kind of debates is due to scaling the debate on arguments and disputes on the one hand, while on the other hand, is interference with other literary genres, studying may be one of its most important.

As for the fourth chapter, we have allotted it to study the absence of euphemism as a field that rarely got the attention of scholars and critics. We have chosen the manners of the two ministers (Alwazirine) as an example through which we can detect the features of euphemism absence and its strategies based on the approach through which we have reviewed the general frame for the existing theory on attacking faces, and the cause of social conflicts. Research led us to the presence of convergence and overlap between the declarative strategy in which euphemism is absent (Bald on record Impoliteness Strategies), and the declarative strategy included in the theory of euphemism (Bald on record Strategies), as the two strategies aim to declare the action threatening the face, but the context is the difference between them.

We have finished this research with a number of results, the most important of which is the authenticity of the theory of euphemism in the Arab heritage. It was addressed by the first Arab scholars under the investigations of the metonymy and the choice of words and considering the status and condition of the parties of the debate in addition to the presence of a great overlap in the face threatening acts of its doer and its recipient based on the personal criteria of the individual in addition to the necessity of relating the completion of face-threatening acts and the selection of palliative strategies to factors assessing the level of risk of threatening face acts which include: social distances between communicators, the relative power that shows the expansion of their influence, and the rank of acts that is threatening for a particular culture.

The research has reached the possibility of classifying most of the types contained in the strategy of positive palliation under the term “proximity”, in which the speaker seeks to connect his actual behavior that appears in showing interest in the other and taking care of him with the linguistic verbs that confirm this to get its support and to achieve the intention and ends of the speaker. Meanwhile, most strategies of negative politeness can be classified under the term “avoidance” which Durkheim referred to be the core of the central strategy based on neglecting anything that has to do with controlling the behavior of the speaker’s language or restricting the freedom of the recipient’s in verbal interaction. In addition, the use of strategies for positive politeness was considered an effective means that enabled Tawhidi to prevent the minister's (Alwaziri's) threats, while the lack of strategies for politeness and its non-existence was related to the nature of the literary genre of the debate on one hand, while on the other hand, is subject to the nature of social relations that govern the debating parties.

UNIVERSITY OF BAHRAIN

College of Arts



**Department of Arabic
Language & Islamic Studies**

**Examples of Euphemism of Altawhidi's Dialogue
(Pragmatic Approach)**

A Thesis Submitted in Partial Fulfilment of the Requirements for the
M.Sc.Degree in Arabic Language

Submitted by

Esraa Adel Mohammed Janahi

Supervised by

Dr. Abdullah Mohammed Bahloul
University of Bahrain

Kingdom of Bahrain

June 2022